



بلاال فضل

مسيرات

السكان
«الأصليين»
لمصر

بلال فضل

السكان "الأصليين" لمصر

حكايات عن عبقرية المكان

.. وبلادة الحكام وطرمة البشر

دار ميريت
الغاهرة 2009

السكان "الأصليين" لمصر
حكايات عن عبقرية المكان
.. وبلادة الحكام وطرمة البشر

بلال فضل

الطبعة الأولى: ٢٠٠٩
(C) دار ميريت
٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف: أحمد اللباد

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٥١٦٦

التقديم الدولي: 977-351-430-7

بعضها "نبييلكها" نلحنا

نلحنا نلحنا نلحنا

بعضها نلحنا نلحنا نلحنا ..

رأى رأيي

في يومه
الذي في يومه
وكانت له

بالحق

في يومه "نبيي" من الكون

في يومه في يومه

في يومه في يومه

في يومه

في يومه

في يومه

في يومه

في يومه

3009

إلى عم صلاح السعدني وعم محمود السعدني
رعاتي الرسميين
.. أو على رأي المثل
رُبَّ أبوين أخوين لك لم تلدهما ستك
ممتنا لهما كأجدع ما يكون الإمتنان
وطالبا لهما الثواب من الله كأمتع ما يكون الثواب

www.DVD4ArAB.Com
By Dr. Hatem Ewisge.

أجدع من أي مقدمة

يا عم الضابط إنت كذاب
واللي بعنك كذاب
مش بالذل حاشوفكم غير منكم
أو استرجى منكم خير سمعنا
إنتو كلاب الحاكم... وإحنا الطير
إنتو التوقيف... وإحنا السير
إنتو لصوص الوقت .. وإحنا بنبني بيوت
إحنا الصوت... ساعة ماتحبوا الدنيا سكوت
إحنا شعبين شعبين شعبين
شوف الأول فين.. والثاني فين
وادي الخط ما بين لانتين.. بيوفت
إنتو بعنوا الأرض بفاسها.. بناسها
في ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
باننت وش وضهر
بطن وصدر

تمت

ماتت والريحة سبقت طلعة أنفاسها
واحنا ولاد الكلب الشعب
إحنا بتوع الأجل وطريقه الصعب
والضرب ببيوز الجزم ويسن الكعب
والموت في الحرب

عبد الرحمن الأنبودي
رضي الله عنه وأرضاه

ربيعه ربيع ربيع
ربيعه ربيع ربيع
ربيعه ربيع ربيع
ربيعه ربيع ربيع
ربيعه ربيع ربيع
ربيعه ربيع ربيع
ربيعه ربيع ربيع
ربيعه ربيع ربيع
ربيعه ربيع ربيع
ربيعه ربيع ربيع

السكان الأصليين لمصر!

كثيرا ما أتلقى أسئلة من بعض القراء الأعزاء - وهم كثير ولكن لا شيء أعلم عنهم - حول كيفية قدرتي على التعايش مع واقع هو ضد كل ما أكتبه أو أحلم به، واقع أقول أنا مرارا وتكرارا أنني أعلم أنه لن يتغير أبدا لكنني أبدا أستمر في رفضه والسخرية منه وخبط رأسي في حوائطه الخرسانية الكثيفة. بسيطت تعاليت ببساطة شديدة ودون محاولة لتزويق الكلام أعتقد أن ما يحمي بي دائما كبني آدم ضعيف يغره الأمل من الوقوع في وهم انتظار الفرج هو أنني أوقن أنه لأمل في أي أمل طالما ظلت المعركة الأزلية الدائرة على أرض مصر منذ أن خلقها الله لا يشترك فيها سوى نوع واحد من سكان هذه البلاد أطلق عليه إسم السكان المنتفعين بمصر، لاحظ هنا أن الإنتفاع ليس مصطلحا سلبيا فهو يعني أن من يمكن وضعهم ضمن هذا النوع يحصلون من وراء كونهم مواطنين مصريين على نفع ما أيا كان قل أو كثر، شرعيا كان أو غير شرعي، وهذا النوع بالمناسبة شامل فمفادهم يمكن أن تضع تحت إهابه وبين ثناياه كل من ينتسبون إلى الحكومة والمعارضة ومن ينتسبون إلى ما يعرف بالنخبة والصفوة والكريمة وكل محترف في السياسة

والصحافة وهواتهما وأرباب الفنون من الموهوبين أو الموهومين وأصحاب العاهات الفكرية المستديمة أو القابلة للشفاء ونجوم المجتمع ومرشحي الإنتخابات ووكلاءهم ورجال وسيدات الأعمال وقراء الصحف المنتظمين والشواذ جنسياً والشواذ فكرياً والشواذ نفسياً.

أما ما عدا أولئك من أبناء الشعب المصري فهؤلاء هم الذين أسميهم "السكان الأصليين لمصر"، وأعتقد جازماً أن في أيدي هؤلاء وحدهم الأمل الوحيد في تحقيق أي تغيير لأن هباتهم المفاجئة هي التي تصنع الفرق لكن المشكلة أن هبات هؤلاء متباعدة وقصيرة النفس ونادرة وعشوائية - تماماً مثل حياتهم - ربما لأنهم اختاروا لأنفسهم منذ عهود سحيقة حلاً يعصمهم من الإنقراض أو الطفقان المفضي للإنقراض، هو أن يعيشوا في بلد موازية لها قوانين خاصة وحكام مختلفين وأبطال شعبيين يخصونهم وغناء لا يطرب غيرهم وأنواعاً من الطعام والشراب لاتصلح إلا لهم.

ومع أنني أعرف أن الكثيرين لديهم حساسية شديدة من حكاية أن المصريين هم أول من اخترعوا كل شيء من ورق البردي إلى ورق البفرة، لكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن السكان الأصليين لمصر هم أول من اخترعوا ما أصبح يعرف هذه الأيام لدى خبراء التكنولوجيا بالواقع الافتراضي، لأحد يعرف منذ متى كان ذلك، هل كان منذ أن دخل الهكسوس إلى مصر أو العرب أو الفرس أو الرومان أو المباركيون القدامى أو المباركيون الجدد،

ليس مهماً متى بدأ ذلك، لكن المهم أنك تستطيع دون عناء أن تدرك أن هذا الواقع الافتراضي الذي يدعي خبراء الكمبيوتر زوراً نسبته إليهم هو الذي يحكم منذ قديم الأزل حياة السكان الأصليين لمصر، وهي حياة تشبه ما يمكن أن تكون قد شاهدته في أفلام الخيال العلمي الأمريكية والتي تفترض أنه مع التطور التكنولوجي المذهل سيصبح هناك نوعان من البشر يعيشان في الأرض، أغنياء يعيشون على سطح الأرض وفقراء يسكنون باطنها، وتستطيع أن تقول أننا بالصلاة على الحبيب سبقنا أفلام الخيال العلمي بتطبيق هذه الافتراضية ولكن الفرق أن الفقراء يعيشون لدينا على الأرض أيضاً تاركين بطنها لأمواتهم ومواسير صرفهم الغير صحي.

المؤسف أو المقرف إن شئت أن كل الخناقات التي يخوضها السكان المنتفعين بمصر تندلع وتثور تحت ظلال شعارات تقسم أنها مانندلعت ومائثارت إلا من أجل خاطر السكان الأصليين لمصر، هاهو رئيس الدولة المبارك يحلف على النعمة الشريفة أنه لا يذوق الزاد إلا وهو يفكر فيهم، وهاهي حرمة المباراة تقيد صوابها العشرة من أجلهم مشكورة مأجورة، وهاهو ابنه المبارك يقول أنه كان من الممكن أن يتمتع بالخميرة التي عملها من شغل البنوك في هدوء لكنه قرر من أجلهم فقط أن يجلب لنفسه وجع القلب من اللي يسوا واللي مایسواش، وهاهنا الك رئيس الوزراء النظيف الطويل يحلف على المصحف إنه لا ينام الليل من أجل راحة السكان الأصليين لمصر وأنه يستحق أن يوقف الله نموه لو

لم يدخل لكل منهم كمبيوترا في بيته أيا كانت عفاشة بيته، وها
دوكهمه الوزراء لايقض مضاجعهم ولايعكر عليهم صفو
الإستمتاع بقصورهم وحساباتهم في البنوك سوى التفكير في أولئك
المزعين الذين يطلق عليهم عادة أسماء غير دقيقة مثل البسطاء
والمهمشين ومحدودي الدخل والمواطن العادي، وأطلق أنا عليهم
إسم السكان الأصليين لمصر. (بالمناسبة الخطأ النحوي مقصود
لحاجة في نفسي لم أتبينها بعد).

حتى الذين يحتلون مواقع المعارضة في مصر ينقسمون فيما
يخص علاقتهم بالسكان الأصليين إلى صنفين: بعضهم ينتفع هو
الآخر من إدعائه أنه يحمي حقوقهم وهو ليس كذلك، وأغلبهم
يحمل هم السكان الأصليين على رقبته ويزعق ويعارض ويكتب
ويظاھر ويسجن ويقتل ويشرد وينفي وكل هذا وهو يعتقد يقينا أنه
يفعل ذلك من أجل السكان الأصليين الذين يراهم يشدون على يديه
ويقبلونه ويقولون له كلاما جميلا ناعما مؤازرا ومحبا ويطلبون
منه أن يستمر في دفاعه عنهم، لكنهم في حقيقة الأمر عندما
يحدث له أي أذى من جراء مافعله من أجلهم سيكتفون بالحوقة
والممصصة والدعاء على الظالم والمفترى وابن الحرام دون
تحديد إسمه حتى، ثم القول بلهجة معاتبة "هو برضه زودها
حبتين".

يعني هل تتخيل مثلا أن هناك بعض السكان الأصليين لمصر
يعتقد أن صحيفة معارضة حرة مثل الدستور التي تقض مضاجع
أهل الحكم في مصر ليست سوى صحيفة تمتلكها الحكومة في

"الكتيمي" لكي تبرهن للخليفة أن هناك حرية في مصر، وأني
وأمثالي بدءا من رئيس تحرير الدستور إبراهيم عيسى وحتى
أصغر محرر فيها نكتب بتعليمات مباشرة من الرئيس مبارك
وإينه لزوم إضفاء الديكور الديمقراطي على حكمه، أقسم بالله أن
هذا الكلام جاغني كثيرا في إيميلات تلقيتها من سكان منتفعين
بمصر سمعوا هذا الكلام من سكان اصليين لهذه البلاد واندھشوا
جدا وصعبت عليهم أنا ومن على شاكلتي لأننا نؤذن في مالطة،
بينما أنا عن نفسي لم أندھش أبدا ولم تصعب علي روعي أبدا،
لماذا؟، لأنني نشأت وترعرعت وكدت أدبل كواحد من السكان
الأصليين لمصر، لكنني ما إن انتقلت دون سعي حيث مني بل
بمشيئة السميع العليم إلى فئة السكان المنتفعين بمصر حتى جاهد
كل السكان الأصليين الذين كنت منهم في قطع صلاتهم بي
وحرمانني مما يعتبرونه تلصصا على واقعهم الإفتراضي الذي
رضي عنهم ورضوا عنه، وذلك لأنني في رأيهم لم أعد أهلا لأن
أكون منهم. تريد توضيحا أكثر، وماله، بالتأكيد سمعت ذلك
التعبير الذي لايقوله إلا السكان الأصليين لمصر عندما يقولون عن
شخص أنه "عدى"؟ ألم تسأل نفسك مامعنى "عدى"؟، إنه ببساطة
يعني أنه فارق حياته معهم إلى عالم آخر فأصبح مفارقا لهم حتى
وإن بدا مجاورا. لذلك وأرجو ألا يحبطك كلامي بينما نقول نحن
معشر الكتاب المستقلين بكل يقين أننا نعبر عن السكان الأصليين
فيما نكتبه، يحتفظ غالبية هؤلاء السكان الأصليين برأي مغاير
تماما، رأي يضعنا نحن ومن نعارضهم في سلة واحدة، فجميعنا

على ظلامهم وسارقيتهم وناهبي أقاتهم. على أي حال وبعيدا عن الغرق في أسئلة لا يعلم إلا الله وحده إجاباتها، دعني أقول لك أنني في هذا الكتاب سأحكي لك عن أناس كثيرين من السكان الأصليين لمصر ليسوا ملائكة ولا شياطين ويمكن أن نظن أحيانا أنهم ليسوا بشرا، هم يقولون ذلك طول الوقت، "إحنا عمرنا ما هنبقى بني آدمين"، يقولون ذلك بشكل محايد يوحي لك أن حكاية أن تكون بني آدم هي مسألة تجيئ بظروفها، يعني ممكن أن تأتي ويمكن ألا تأتي، إنت ونصيتك. هؤلاء البشر بالتأكيد أنت تعرفهم، وفي الأغلب كنت منهم قبل أن تقرر أن تشغل بالك بمستقبل ومصير هذه البلد التي تعيش عليها فتقرأ وتهتم بمعرفة أي شيء عنها حتى ولو كان من باب العلم بالشيء، وإذا لم تكن كذلك فستفعل مايفعله عادة أبناء طبقة السكان المنتفعين وستسأل في تأفف عن الحكمة من الإساءة إلى سمعة مصر وتشويه صورة الشعب المصري وماإلى ذلك من الكلام الذي لايجيب همه، والذي يمكن أن أنصحك بالإستعاضة عنه بعدم قراءة هذه الحكايات أساسا.

أما إذا كنت ساكنا أصليا سابقا أو ساكنا أصليا منتسبا فأنا على يقين أنك ستستمتع جدا بما سأحكيه عن السكان الأصليين لمصر وستدرك كم أحبهم وكم أتعاطف معهم بل وأحن إليهم وإلى أيامهم الحقيقية، وستتفهم كل شيء يخصهم بدءا من قرارهم الإختياري بالإنقراض من الواقع الواقعي والإكتفاء بالواقع الافتراضي ووصولاً إلى شتائمهم ولعناتهم التي تنصب طيلة اليوم

"ولاد كلب - يعني اعتبرها ولاد كلب فأنت تعرف حقيقة مايقال - .. كلهم بيضحكوا على بعض.. يقدر حد فيهم يعيش يوم زي مالحننا عايشين". والحقيقة أنني أعذرهم كثيرا عندما يقولون ذلك، فبرغم أنني عشت أياما طويلة "زي ماهم عايشين"، لكنني الآن لااستطيع أن أعيش يوما ما زي ماهم عايشين، وبالمناسبة ولأنت أيا تستطيع أيا كانت ظروفك المادية، كنت أغنى مني أو أفقر، عارف ليه، لأنك خرجت فورا من عبادة السكان الأصليين لمصر عندما اهتمت بما يحدث في البلد الموازية التي يتقاسمونها معنا. بعض هؤلاء قاطعني إلى الأبد ويصب علي اللعنات بل وبعضهم أو بعضهم يرسلون إلي تحذيرات بألا آتي إلى المناطق التي جاورتهم وجاورتهن فيها، لكي لايطلع أشياء معينة من عائلتي، والسبب أنني خنت العشرة وجعلت منهم أضحوكة للخلق، هكذا يرون، والبعض الآخر أصبح يتحفظ على حكاية أي شيء أمامي "علشان مايلاقيهاش في فيلم ولا جرنان"، وهكذا أصبح مقدورا علي أن أكتفي بالكتابة عن حصيلة سنوات طويلة من العيش إلى جوار السكان الأصليين في مصر، وهي حصيلة رويت منها النزر اليسير في هذا الكتاب، مستغربا كيف ضحك الناس على بعضها عندما نشرتها في الصحف السيارة، ففي رأيي أنها ليست حكايات مضحكة أبدا، حتى لو بدت كذلك، وماكتبتها إلا لأنني رأيت أنها يمكن أن تشكل مدخلا ما لفهم الناس الذين نعيش معهم في هذه البلد ونسأل بكل براءة - لن أقول كلمة قبيحة أخرى مع أنها أدق في الوصف - لماذا لايتحركون ولماذا لن يثوروا أبدا

لن أطيل عليك أكثر من ذلك. مع أنه كان نفسي والله. هذا كتابي وتلك حكاياته بين يديك. لم أكتبها لكي تضحك. لكن لو ضحكت كما ضحك إخوة لك من قبل فلاندع لي، إدعي لمصر.. فهي أحوج مني إلى دعواتك.

على مصر، أو تلك الدعوات التي تسمعا أينما ذهبت "بلد بنت.. يارب تولع بجاز.. يارب تحترق من ساسها لراسها"، ومن فضلك لا تقل لي أنها دعوات تدخل في نطاق "أدعي على ابني وأكره اللي يقول أمين"، بالمناسبة سأعذرك إن فعلت فأنت عندها فعلا لست من السكان الأصليين لمصر، فهؤلاء دائما لديهم اعتقاد راسخ أن دعاءهم على البلد الموازية التي هي مصر وهو دعاء حقيقي ومحروق وممزوج بالوجع سيستجاب يوما ما وعندما تحترق البلد لن ينالهم من العذاب جانب، ليه.. "عشان احنا غلابة وعمرنا ماأدينا حد"، جملة أقسم بالله أنني سمعتها من قتالين قتلا ونشالين نشلا، وموظفين على المعاش، وموظفين على المعاش المبكر، وفلاحين بالأجرة، وفتيات ليل بالأجرة، وعمال فاعل، وعمال مفعول بهم، كلهم لديهم دائما يقين راسخ أن العذاب الذي يستعملون نزوله من السماء على سكان البلد الموازية التي إسمها مصر هو عذاب سيحقيق فقط بأهلها التي هي "بلادهم ويعملوا فيها ما بدالهم" ولن يحيق بهم أبدا لأنهم غلابة و"عمرهم ماأدوش حد.. ومابيعملوش حاجة غلط"، كلهم يوقنون بذلك يقينا لاشك فيه، بدءا من عامل المستشفى الحكومية الذي يسرق أدوية المستشفى على أساس أن "قرايبي الغلابة أولى بيها من ولاد الكلب اللي معاهم فلوس"، وصولا إلى فتاة الليل التي تقولها بملء صدرها أنها مابيعملش حاجة غلط لأنها عارفة ربنا كويس، "أصله مش هيسيب الحرامية الكبار وييجي على الغلابة".

'معلّش باباشا في الكلمة.. سيادتك بتقابل جمال باشا مبارك؟'

لولا معرفتي بصدق نوايا عم جعيل بائع الجرائد لظننته يشتغلني على الصبح، قلت له "آخر مرة شفت ابنه شادي بس ماكانش معاه باباه".

قطّب عم جعيل وجهه غاضبا مني، ثم قال لي "باتكلم بجد والله باباشا.. أصل بيقولوا إنك بتكتب عنه في الجرنان.. قلت لما أشوف جايز يكون بيتسل بيك"، قلت له "هو أكيد بيكلمني بس أنا مش مسجل نمرته.. بس قول إنت عايز إيه وأنا أشوف له سكة". قال لي "لا أنا مش عايز مصلحة لذات نفسي يعني لاسمح الله، أنا بس اتخضيت لما سمعت الحوار بتاعه مع الأستاذة المذيعة السفيفة نيمس الحيتي ولقيته بيقول لها إن الإصلاح الإقتصادي الحمد لله ابتدا بس المواطن العادي مش قادر يحس بيه"، قلت له "وايه اللي بخض في حقيقة زي دي ياعم جعيل.. المفروض إنك تفرح إن الإصلاح ابتدا من غير ماتحس بيه"، نظر عم جعيل إليّ كاظما غيظه وقال لي "ماهي المشكلة إننا حاسين بالإصلاح قوي لغاية ماجينا خل وجاز ودم كمان وهم لسه فاكرين إننا مش

الإتحاد السوفيتي.. وبصراحة ربنا إحنا ماحسيناش بيه في الأول بس يعني الموضوع ده ماقعدش كثير.. هو يادويك كام سنة بس بعد كده إبتدينا نحس بيه قوي.. وياما حاولنا نقول الموضوع ده لناس ليهم علاكات زي حضرتك.. بس ماحدش حس بينا.. بس ربك والحق خدنا على الإصلاح بعد كده وهديت المسائل.. بس لما جه الباشا الصغير والباشوات الصغيرين اللي معاه وعملوا إصلاح جوه الإصلاح رجعنا نحس قوي بيه.. لدرجة إني فكرت أقف في الشارع وأستي أي موكب يعدي لحد من الباشاوات وأصرخ خلاص كفاية والنعمة إحنا حاسين بيه بس خفت حد يفهمني غلط.. عشان كده أنا باحملك الأمانة دي والنبى.. إحنا مالناش طلبات كثير والله.. ولا عندنا أمل في أي حاجة.. وخلاص رمينا طوبة كل حاجة.. بس خلاص اللي جاي مش قد اللي راح.. ونفسنا يحسوا إننا حاسين بيه.. عشان عيب واحد زي حالاتي يتبهدل في سن زي دي عشان الناس الكبار فاكربيه مش حاسس بيه.. فجأة انخرط عم جعبل في البكاء فجرى ابنه بيومي الواقف على طرف فرشة الجرائد ليحتضنه ناظرا لي نظرة إتهام، قلت له دفعا لأذاه "معلش يا بيومي والله ما كنتش أعرف إن عم جعبل حاسس بيه"، قال لي وهو يتابع والده الذي ابتعد عنا قليلا مختليا بحزنه "قصدك إيه يا باشا.. إنت هتبخ"، قلت له "أنا قصدني الإصلاح يا بيومي.. أصل والدك محماني رسالة لجمال باشا مبارك.. وأنا قبيلت الأمانة.. بس ياترى إنت حاسس بيه يا بيومي.. حاسس بالإصلاح الإقتصادي"، قال لي "أنا حاسس إنك هتخليني

حاسين بيه"، على حين غرة أخرج عم جعبل من جيبه علبة ورقية لمرهم شهير وهو ينظر حوله محرجا حذرا، ثم قال لي بصوت هامس "يا باشا أنا حصل لي إتهابات من كتر الإصلاح.. وماشي على المرهم ده بقى لي سنتين وباغيره كل خطة خمسية"، قلت له ملتزما بشروط الموضوعية "أكيد بشرتك حساسة وده مش ذنب الأستاذ جمال خالص".

دس عم جعبل المرهم في جيبه مسرعا منعنا للفضيحة وأخذ يحدثني بحرارة وهو يكاد يمنع نفسه من البكاء "أنا مش باكذب الباشا الصغير جمال بيه والله بس الظاهر إن في سوء تفاهم مخليه يفكر إننا مش حاسين بالإصلاح.. تلاقي حد من الحرامية الكبار بتوع مجلس الشعب قال له إن الشعب يعني مش حاسس بالإصلاح فقرر يقرص علينا في الإصلاح زيادة.. وأملنا فيك كبير إنك تبلغه إننا حاسين بيه.. وياريت يخفوا علينا شوية.. يعني يعتبروا الفترة دي فترة راحة من الإصلاح أصلح لنا وليهم"، قلت له متبيننا لكي نقف على أرضية دلالية واحدة "قصدك يعني يتوقفوا فترة من أجل تقييم آثار عملية الإصلاح الإقتصادي على مختلف الطبقات"، بدا جليا أنه لم يفهمني فقال لي بعد تردد "مش هنختلف يعني بابيه المهم يعرفوا إننا حاسين قوي وتعبنا والنعمة خاصة يعني والباشا الكبير أبو علاء ربنا بيديه الصحة قال من بيجي عشرين ثلاثين سنة إن سياسة الدولة هي إنها ماتخليش المواطن يحس بآثار الإصلاح الإقتصادي عشان مايحصلناش زي الدول اللي حسست بيه وباظت على الآخر.. اللي هم الجماعة بتوع

واللعب في الباك يارد بتاعة الإسكول.. كل هذه التجارب الإنسانية العميقة ستجعله يشعر بمعاناتك أنت ووالدك وجميع الحاسين بيه من أبناء الشعب المصري وبالتالي سيضعوا معاناة إحساسكم بيه في المراحل التالية من عملية الإصلاح الإقتصادي في ثوبها الجديد".

أصدر بيومي صوتا منكرا لايليق بشخص حاسس بيه ثم دفعني في كفتي قائلا "ياالله ياعم ربنا يسهل لك.. امشي من هنا ماتاكلش دماغنا"، نهره أبوه الذي كان قد اختفى للحظات في بير سلم العمارة المجاورة ثم أطل وهو يعدل جلابيته أثناء مشيه داسا علبة المرهم في جيبيه "عيب يابيومي ياأهبل.. ده عمك وأنا موصيه على مصلحة عند الباشا الصغير.. والنبي ماتتسى ياباشا"، قلت له "حاضر ياعم جعيل ولو إن إبنك باين عليه لسه ماحسش بالإصلاح"، قال لي ملاحظا "ماتستعجلش عليه ياباشا.. شاب ومستعفي روحه.. بكره يحس بيه وعينه تتكسر"، هزرت رأسي متأملا حكمة الأب وأنا أبتعد عن فرشة الجرائد ناظرا إلى عناوين الصحف القومية التي تتلو على الناس ماتيسر من تصريحات النجل السابق سنه، استوقفني صوت عم جعيل وهو يناديني "والنبي ياباشا قوله لما يطلع ثاني في أي حوار يدنا كم بوسة وهو بيتكلم عن الإصلاح.. عشان مافيش إصلاح من غير بوس".

أتغابى عليك ياباشا"، أعجبتني تركيبة الجملة فقلت له "يابيومي أنا عايز أطمئنك إن جمال مبارك هيتفهم الرسالة بتاعة والدك جدا لأنه كما اتضح شاب عادي ولو كنت شفقت الحوار"، قال لي ببلاهة مدمن بانجو ردئ التجميع "حمار مين"، قلت له "إصحي معايا يابيومي أنا مش باتكلم عن برنامج حالة حمار.. أنا باتكلم عن حوار جمال مبارك اللي قال فيه إنه شاب عادي لأنه كان جو تـو سكول باي باص إيرلي إن ذا مورنينج وكان بيروح التدريب عادي في النادي.. يعني زيه زيك.. أكيد إنت كمان كنت في سنه بتروح التدريب".

ظهرت نظرات الغدر في عيني بيومي وهي نظرات عرفتها ذات يوم عندما رفض زبون أن يأخذ منه علبة كبريت بدل الربع جنيه الباقي له أيام كانت الجرائد بخمسة وسبعين قرشا، ولم يكتف الزبون يومها بالرفض المهذب بل تطاول على مقام بيومي واتهمه في ساعة نحس بأنه حرامي، يومها أصر بيومي على أن يشعل كل علبة الكبريت في مناخير الزبون عودا تلو الآخر ولولا وساطة أولاد الحرام لكان أشعلها في أماكن أخرى أكثر تأثرا بالنار، الواقعة جعلتني أبتسم له بمودة محاولا إمتصاص غضبه قائلا "ياخسارة يابيومي أنا نسيت إنك كنت ولازلت بتروح التضريب مش التدريب.. عموما إطمئن جمال مبارك حاسس بمشاكلك إنت وأبوك لأنه زي ماقال لف كثير جدا.. وأكد المعاناة الإنسانية اللي شافها وهو رايح النادي عشان يلحق التدريب وتجاربه المريرة في ركوب الباص وحجز كرسي جنب الشباك

أنا رجل يحب أن يدلغ نفسه. ولذلك صحوت من النجمة يوم
الأربعاء الماضي لكي أستمتع بحضور المسرحية السياسية الهزلية
التي يقدمها مسرح الدولة كل عام بمناسبة عيد العمال، تلك
المسرحية التي تثبت كذب الإتهامات الموجهة للمسرح الخاص
بأنه يحتكر الهزل والضحك "السريخ"، كنت ستكتشف ذلك بنفسك
لو أتيت لك مثلي مشاهدة عرض هذا العام الذي يسبق مسرحية
الانتخابات الرئاسية بعدة أشهر والذي أثبت رئيس اتحاد العمال
السيد راشد بإخراجه له أنه أجدع ألف مرة من المخرج المخضرم
السيد راضي، بينما تفوق منتج العرض وزير القوى العاملة أحمد
العمراوي على كل ما قدمه المنتج المسرحي أحمد الإبياري في
تاريخه الطويل، أما فاكهة العرض فقد كان الراجل "العرض"
المذيع الذي قدم للسهرة الصباحية والذي كان رئيس البلاد مبسوطة
من أدائه خالص فقال له عند صعوده إلى المسرح كلمات هامة
جعلت المذيع يكاد يتدحرج من الفرحة على "الإستيدج"، لم نعلم
مالذي قاله الرئيس لمذيعه المحبب بالضبط لكن تشغيل الخيال
قليلا يجعلنا نستنتج أن الرئيس الذي يحب دائما تشجيع أولاده
السرود أبناء الإعلام المصري الرائد، بالتأكيد قال سيادته للمذيع

"انا باشوفك كل يوم في نشرة سنّة ونشرة تسعة.. خليك زي ما إنت.. اوعى أداعك يتغير".

برغم أن الأمر ليس سهلا على الإطلاق لكنني سأحاول والله المستعان أن أضعك في جو ما حدث في تلك السهرة الصباحية البهيجة التي بدأت عندما بدأ رئيس إتحاد العمال السيد راشد ينتهي ملقيا كلمة العرض الإفتتاحية أمام الرئيس، وهي كلمة يصعب تلخيصها مثلما يصعب الإستماع إليها، طيلة الكلمة كان السؤال الذي يشغلني "هو الرجل ده عامل إيه بالضبط"، ستجيبني "ياراجل ماهو قدامك أهوه عامل صينية قرع بالكسكي ماتلقاش زيبا في ألبان المالكي"، تسرعت وفهمت قصدي خطأ، أنا أقصد بسؤالني متي كان هذا الرجل عاملا، سنقول لي "ماهو كان واقف قدام مصر كلها بيعمل "عمله" ثقيله أهوه"، للأسف برضه إنت تحسبني هازلا، بينما أنا أسأل بجدية نوبة قلبية، "الراجل ده كان عامل فسي إيه بالضبط، يعني مثلا خراط.. فني لحام.. عامل نضافة، ماهي المهنة الشريفة التي بدأ حياته بها لينتهي به الحال هكذا"، أسئلة لم أجد إجابة شافية لدى كل من أعرفهم فاكتفيت بتسكينه مهنيا بوصفه "عامل دماغ نفاق جامدة" لدرجة أنه لم يأخذ باله وهو يلقي كلمته التاريخية فقام بفضح المهزلة المتفق عليها مع المخبرين التلقائيين المزروعين في قلب القاعة والذين يقوم كل منهم بتلقائية كل خمس دقائق ليخرج ورقة تلقائية من جيبه ويقرأ كلمة تلقائية تمدح الرئيس ويقول له تلقائيا "حلفتك تقعد إلا الأ.. والنبي ماتمشي إلا الأ". السيد راشد اتخفق من مقاطعة التلقائيين له

فقال لهم "يا بني الوقت محسوب عليا .. لما الرئيس يتكلم قولوا له اللي انتو عابزينه"، وطبعا التلقائيون توقفوا بشكل تلقائي عن الكلمات التلقائية التي لم يكن لها علاقة بالتلقائية سوى أنها تلقية على قفاك من فرط هزلها ونفاقها.

بالمناسبة يومها كاد صديقنا الأستاذ عبد اللطيف المناوي رئيس قطاع الأخبار بالتلفزيون المصري يميتني من الضحك وهو يجلس داخل الأستديو التحليلي المنعقد في قلب مبنى ماسبيرو لمناقشة مباراة النفاق المبتوثة على الهواء مباشرة، ليسأل زميله المذيع في قلب قاعة المؤتمرات بجدية لاتليق بهزل الموقف "محمد هل لك أن تصف لنا الهتافات والكلمات التي ألقيت في القاعة.. هل كانت هذه الكلمات مدبرة أم كانت تلقائية"، أي والله، هكذا جاء سؤاله بالنص، لحظتها صعب عليا يا عيني الواد المذيع محمد، وشعرت به في داخله يقول لنفسه "ليه بس كده يا عبدو.. إحنا فينا من كده.. ليه الفخاخ اللي على الهوا دي"، دعاء الوالدين وحده جعله يرتجل لهذا السؤال الفخ إجابة لم أجد لها مثيلا في الذكاء "عبد اللطيف .. برغم أن البعض سيقول أن هذه الكلمات مدبرة إلا أنني أستطيع أن أؤكد لك أنني وأنا في قلب القاعة أنها تلقائية جدا لدرجة أنني قرأت يافطة في قلب القاعة تقول من يقود السفينة سواك يامبارك، وهذه عبارة لا يمكن أن تصدر بشكل تلقائي".

ليسمح لي عبد اللطيف وليسمح لي محمد بكل المودة أن أقسم لهما كمشاهد قديم متعود على النفاق من خشونة أظافره بأن عيني اكتحلت منذ القدم برؤية تلك اليافطة التلقائية، ربما بالتحديد وأنا

وقسوف الهتيفة بالضبط، أرجوك لا تنقل لي أن الميكروفونات هي كمان من فرحتها بالرئيس جاءت بشكل تلقائي لكي تبايعه وتتحايل عليه أن يقعد ويانا فترة رئاسية جديدة "عشان إحنا طلعنا من عنق الزجاجة بس للأسف رجعنا في بطنها ثاني ولازم يفضل كمان ست سنين عشان نطلعنا عنق الزجاجة ثاني".

كل هذا التشكيك الذي أنفذه في عقْدك لن ينجح أبدا في إلغاء حقيقة أن السيد راشد يومها كان فرحا للغاية بنفسه وهو يعلن لسيادة الرئيس رغبة الشعب كله "نافار نافار" في بقائه علينا اقصد معنا لفترة رئاسية جديدة، وهي الرغبة التي ما إن أعلنها السيد راشد حتى وقف كل من في القاعة تلقائيا على حيلهم برغم معاناة اغلبهم من مشاكل الغضروف واللومبارجو، لكن كله يهون عشان أحلى عيون، عيون الوطن طبعاً، والرئيس بدوره كان متأثراً بشدة بكل هذا الحب والحنان لأنه لم يكن يتوقع أن يكون بداخل الحاضرين كل هذه الكميات من التلقائية فأخذ يومئ إليهم بإشارات تقة ترجمتها بلغة الإشارة "ماتخافوش ماشي حاضر خلاص هاشوف الموضوع ده فوراً".

كان الموقف كله جللاً. لدرجة أن المشاعر الأسرية الحميمة المتصاعدة منه ذكرتني بأبي عندما كان ذاهباً إلى المستشفى لكي يعمل عملية الفتاق وتركنا في البيت زغب الحواصل لأماء ولا شجر، وكلنا كنا نبتهل إلى الله أن يعيده إلينا بالسلامة لأننا لم ندفع مصاريف المدرسة بعد. كدت أبكي بفعل تصاعد مشاعر "الشكن" المنبعثة من المشهد، لولا أن قطع حبل مشاعري عامل تلقائي

طالع رابعة ابتدائي ذات عيد عمال مجيد حضره الرئيس مبارك "ماغيره" على رأى إخواننا الشوام، ومستعد أن أثبت صحة ماأقوله لو أتيح لي أن أذهب أنا ومحمد وعبد اللطيف بشكل تلقائي إلى القاعة التلقائية لنمسك بالياطرة التلقائية ونقلبها تلقائياً لنجد لامحالة على ضهرها رقم تخزينها التلقائي في مخازن إتحاد العمال التلقائيين، أما إذا لم يسمح لنا بذلك كما هو أغلب الظن فالمنطق يقول لنا لو شغلناه أن يافطة مثل هذه مستحيل أن يكون ماكتب عليها صدر بشكل تلقائي من مواطن صالح يعيش معنا في هذا البلد بتلقائية لأنه لو كان كذلك لكتب على الياطرة عبارة تلقائية وحيدة هي "من سواك سيغرق السفينة".

لايتمتع عبد اللطيف المناوي بشكوك مرضية مثلي، ربما لأن نيته صافية وليست مثل نيتي، مناوي بقى، أوروباً لأنه عاش بشكل تلقائي بعيداً عن مصر لسنوات طويلة، ولذلك فقد صدق على الفور زميله محمد وأخذ من تلقاء نفسه يتحاور مع ضيوفه الكرام بشكل تلقائي عن تحليل مضمون تلك الياطرة التلقائية وسائر الهتافات التلقائية التي ألقيت يومها، لم أكن محتاجاً لنيل ماأوتوا جميعاً من علم لكي أعتقد جازماً أن الرئيس مبارك* من خلال قراءتي لتعبيرات وجهه الكريم كان يستمع إلى تلك الهتافات بابتسامة ذات مغزى تجعله أول من يمتلك يقينا أن كل تلك الهتافات لاتلقائية ولادياولو، بدليل إن كل شخص تلقائي تكلم كان يطلع فجأة من ركن من أركان القاعة مجهز بالصدفة بميكروفون، هنا دعني أسألك لماذا كانت الميكروفونات موجودة في أماكن

راشد قد حطني فيه، أحسست إن جسمي بدأ يقشع إبان حديث العماوي عن أن القيادة السياسية لديها بوصلة خاصة لانملكها أغلب قيادات العالم، أنا والله ماكنت أعرف، فالبوصلة الوحيدة التي شفتها في حياتي جابها لنا جوز خالتي في سجادة صلاة استقدمها ذات عمرة من السعودية، لم تكن يومها لدي معلومات مؤكدة ما إذا كان لدى جاك شيرك أو مهاتير محمد أو أردوغان أو لولا دي سيلفا أو غيرهم من زعماء العالم "بواصل" هم راخرين، أم أنهم يقودون بلادهم بمعرفة اتجاهات الشمس.

لم أكد أفيق من صدمة البوصلة حتى فاجأني السيد العماوي بمعلومة خطيرة وهي حسب نص كلامه "أن الرئيس مبارك زرع في قلب كل مواطن مزرعة ثقة في الرئيس مبارك"، الحق أنني اتخذيت وقلت لنفسي " هو ده بقى سر النهجان اللي باحس بيه بقى لي فترة، أتاري جوابا مزرعة ثقة في الرئيس وأنا عمري ماباسقياها، أكيد الزرع مات وأدى الى ماأحس بيه من نهجان وكرشة نفس"، أخذت على الفور أفشش في صدري عن أي آثار لمزرعة الثقة لكي أزيلها على الفور وأشتري راحة صدري، لكنني توقفت عن ذلك بعد أن شعرت بنظرات حارقة صوتيتها نحوي من المطبخ أم هند شغالة منزلنا العامر التي منعها عملها لدي من حضور إحتفالات الدولة بعيد العمال مفضلة أن تأتي يومها لممارسة عملها في بيتنا السعيد، توقفت عن العيث بصدري على الفور بعد نظرات أم هند الساخطة خوفا من أن تفهمني خطنا فنقول لزوجتي أنني كنت أحسس صدري أمامها بشكل مثير

وقف على حين غرة مخرجا ورقة تلقائية ليصرخ وهو يقرأ منها "مش كفاية مش كفاية .. معاك ياريس للنهاية"، طالبا بإشارة من يده من كل التلقائيين المجاورين أن يهتفوا معه، دعاهم للهتاف فلبوا، بينما اكفهرت وجوه جميع المسئولين، الذين أزعم أن هناك بينهم من سأل فورا مرؤوسيه عن "الحيوان اللي كتب الهتاف ده وأدخل إسم حركة كفاية إلى محفل بهيج كهذا لكي يلوث نقاء ويفسد صفاءه"، خرجت من شجني وفرحت لحركة كفاية التي لم تكن تتصور أن يكون لديها هذا التأثير الذي يجعلها تتط كعفريت العلبة في قلب قعدة حظ وفرشة زي دي.

أخذت أتأمل ذلك العامل وهو يحزق بهتافه ظنا منه أنه سينال بفضل حزقه علاوة لعله سيعالج بها أحد أقاربه من ضحايا الأمراض المتوطنة المباركة، أو ربما سيخصص مبلغ العلاوة كاملا لإعطاء إبنته شيماء درسا في الكيمياء "عشان ماتسقطش في الأحياء"، أو ربما كان يخطط لنيل أسبوع زيادة في مصيف الشركة بجمصة، تعاطفي الحار معه جعلني على استعداد لأن أنفق معه على إنه مش كفاية، لكنني كنت أريد أن أسأله سؤالا واحدا "بذمتك ياراجل هو في نهاية أكثر من كده".

سكت العامل أو أسكتوه، وذهب السيد راشد وطلع السيد العماوي، وعصفور النفاق صوصو صوصو. من جهته أحب السيد العماوي أن تكون له نكهة خاصة فرفض أن يتحدث بالعامية مع أنه عماوي، وطفق يتحدث بلسان عربي يليق ببرنامج "كتاب عربي علم العالم"، مما جعلني أفقد المود الهزلي الذي كان السيد

للربية، وبالتأكيد لن تصدق زوجتي أبدا أنني كنت أتسوس صدري للبحث عن مزرعة الثقة، خاصة أن زوجتي ليس لديها مزرعة ثقة في أنا أساسا، توقفت عن البحث اليومي مستبدلا إياه ببحث ذهني عن تاريخ اليوم الذي تم افتتاح هذه المزرعة بداخلي وكيف لم أشعر بها، وإذا كان بداخلي مزرعة ثقة فلماذا أشعر بكل هذا اليأس في إصلاح أحوال الوطن، هل أكل الجراد مزرعة تقني عندما جاء إلى مصر، أم قتلتها مبيدات يوسف والتي المحظورة والتي أتناولها ضمن الخضار الذي أكله، أم أن هذه الثقة التي بداخلي ثقة عميا مادام السيد العماوي هو الذي أعلن عن وجودها وهو على عمامه.

لم أكن قد انتهيت من تفقدي الذهني لمزرعة تقني حتى كان العماوي قد انتهى من كلمته، ليقف مكانه المذيع القمور قائلا لنا أن الرئيس مبارك جعل كل مواطن يعيش في داخله بهجة التعمير، استغربت كيف سمحت له الرقابة بهذا التعبير الذي يلقي ظللا "بنية" خبيثة في بلاد لم يجبها إلى الوراء سوى إنتشار بهجة التعمير بها أكثر من اللازم. حوقلت خارجا من أفكاري الخبيثة عندما أعلن المذيع بصوت مهيب أن "موعدنا الآن مع خير المقال"، استغربت ان الرئيس لن يلقي كلمته زهدا منه في الكلام، وأنهم سيختمون الحفل فجأة بأيات من الذكر الحكيم، أملت ألا يختاروا منها على طريقة سمير رجب الشهيرة الآية الكريمة "والله يعصمك من الناس"، لكنني فجأة وجدت المذيع يعلن عن كلمة السيد رئيس الجمهورية، فاستغربت الله لي لأنني ظننت كغيري أن

خير المقال هو كلام الله عزوجل. بدأ الرئيس كلمته التاريخية بصعوبة غير متوقعة فقد انقض الثلقانيون عليه بهتافاتهم ثلقانيا ثلو الآخر لدرجة أن علامات الغضب ظهرت عليه، حتى خشيت أن يقول لهم "والله لو ماسكتو لآكون مش مرشح نفسي خالص"، وطبعا لأنهم ثلقانيون لم يلتقطوا غضب الرئيس أبدا بل رفضوا أن يستجيبوا له وأصروا على مقاطعته بهتافاتهم المحبة طيلة حديثه، حاولت أن أمارس عادتي المرذولة كمواطن غير صالح فأقوم بالثعلق بيني وبين نفسي على خطاب الرئيس لكن اكتشافني المباغت العماوي الذي غيرني للثو وهو أن بداخلي مزرعة ثقة في سيادته منعتي لأول مرة من تلك العادة اللعينة.

أخذت أستمع إليه بزريقي وثقني، إلى أن وصل سيادته إلى فقرة في خطابه أخذ يتكلم فيها عن خطته لتأمين المعاشات لكل مستحق من أبناء الوطن، وهنا وإذ فجأتني اندفعت الشغالة (بلاش، خليها مديرة المنزل كما تحب أن ندعوها) أم هند من المطبخ صارخة لتتجه إلى الثلقزيون وتأخذ في الصراخ في وجه سيادته الذي يملأ جنبات الثلقزيون قائلة له بحرقة لم أعهد لها مثيلا "حرام عليكو.. بقى لي سنتين باجري ورا معاش مبارك اللي بيقولوا عليه.. مش عارفه أجيبه.. كل ماروح يقولوا لنا ماجاش.. وهم سئين جنبه مش عارفه هنعمل بيهم إيه أساسا..".

أنتم لاتعرفون أم هند وأنا لست ساذجا لكي أقول لكم من هي أم هند، ولا إلى أي أب تنسب إبنها هند، لكي لا يأتي الثلقانيون بهند من قفاها فيقوموا بتركيب مزرعتي ثقة لها ولأمها وربما لأم

أنني "باشتغل في السينما"، ولذلك فقد سألت عني كثيرا قبل أن تعمل لأن المعروف أن الذين يعملون في السينما فلاتيه وهلاسين ولذلك فأم هند تخاف على نفسها من فتنتي برغم أن "عندها إبتين وستين سنة"، لكن من قال أن العمر يهيم كثيرا مع سيدة عفيفة "زوجها ميت والست ماحيلتهاش غير سمعتها"، ولذلك فهي لاتحدثني إلا وهي تنظر في الأرض خوفا من سهم النظرة المسموم "برضه هتاكل مكرونة اسباكته ياسناذ.. الغيارات فين إنشاء الله.. ياه لحقوا يتوسخوا زبي".

لذلك ولذلك كله فقد كان حدثا حقيقيا بالنسبة لي أن اشهد بأم عيني مواجهة أم هند مع سيادة الرئيس في التلفزيون بشكل تلقائي وهي تقول له كأنه يراها فإن لم يكن يراها فإنها تراه "ده حتى جه الباحث الاجتماعي لقي عندنا تلفزيون وكاسيت قال لنا انتو مبسوطين مش محتاجين معاش.. قلت له ياعم الحاجات دي انا جايبها والراجل عايش.. ماصدقنيش.. رحت مرة عيطت لهم وقلت لهم الواحد لو قعد يشحت هياخد فلوس اكر من المعاش بتاعكو.. ده هدير لو حدها بتاخذ دروس بمية جنية وفي باقي المواد المدرسين مايرضوش ياخدوا فلوس عشان ابوها ميت". كانت تلك مفاجأتي التالية، أم هند لديها هدير كمان، المرحوم على مايندو كان صاحب مزاج في اختيار اسماء بناته، المفاجأة الأولى لو كنت نسيت هي أنني أمتلك مزرعة تقة في صدري للرئيس دون أن يخبرني أحد ببدء تشغيلها.

أخذ الرئيس يواصل حديثه عن التزام الدولة، دولته، بتقديم

اللي جابت أمها، للعلم والتوثيق فقط أو بصراحة لكي يخرس المتشككون الذين يظنون أن أم هند اشتغالة من اشتغالاتي لمجرد أنهم تعودوا على أن الإسم الحركي للشغالة ينبغي أن يكون أم محمد أو أم عبده، على هؤلاء أن يعلموا أن أم هند ابنتها الكبير اسمه محمد لكنها قررت أن تكون أم هند ليس لأنها بتعز هند قوي عشان هند نسخة تيببكال منها"، بل لأن هند هي الوحيدة "اللي بترضى من بين إخوانها تقف مكاني" عند حدوث أي عطل فني في أم هند.

عملت أم هند شغالة لدينا أو مديرة لمنزلنا لكي لاتغضب منذ عامين ونيف، بدأ عملها في البيوت بعد رحيل زوجها قبل ثلاثة أعوام ونيف، لكي تصرف على أربعة أولاد وثلاث بنات وأزواجهن العاطلين عن العمل، كانت تفعل ذلك بكفاءة منقطعة النظير من وجهة نظرها مع إنها كلها على بعضها مجرد ثلاثين كيلو، وحاجة واربعين سانتى، وحولاء كمان، لدرجة إنه من ظواهر بيتنا السعيد إنها كلما جاءت لتضع الحلال على نار البوتاجاز أوقعت الحلال في الأرض بسبب عدم ضبط المسافة بين عينها وعين البوتاجاز، وطبعا لإنها قصيرة فهي مايتطولش تمسح القزاز ولاتنفض الدوايب ولا ترعف الحيطه ولابتطول حبال الغسيل فهي تأخذ نص أجر لأننا نقوم عنها بكل هذه المهام الجسيمة.

لغاية إفتحامها المباعث لخطاب السيد الرئيس لم تكن أم هند قد تبادلت معي خلال عملها لدينا كلمتين على بعض لأنها تعلم

تساعدك لازم تبقى معفن، رحنت لبست لبس مقطوع من ورا العيال ونزلت، قالوا لي الباحث لسه ماجاش، ليه هو مسافر يعني، طب لاهدوم عدلة نافع ولا هدم مقطعة نافع".

توقفت أم هند فجأة عن الكلام المباح بعد أن بدا أنها قالت كلمتها وصار واجبا أن تمشي كأبي مواطن صالح، اتجهت نحو المطبخ وقد عادت إلى صمتها الأثير ثم قررت أن تقول كلمة أخيرة كانت واقفة في زورها، وتساألني سؤالا مباشرا لأول وريما آخر مرة، "إنما إنت بنتفرج على الكلام ده ليه بأستاذ"، قلت لها "عشان عندي مزرعة"، قالت لي "مزرعة إيه"، قلت لها "مزرعة ثقة.. هو إنتي ماعندكيش مزرعة ثقة"، قالت لي وهي تدلف إلى المطبخ "أ.. بس من اسبوع كنت تعبانة شوية رحنت المعمن بتاع مصطفى محمود الله يبارك له، وعملت مزرعة بول".

سيادة الرئيس.. أم هند تنتظر منكم أحد أمرين.. ياتدوها معاش ياتركبوا لها مزرعة ثقة".

العون لمن لا يستطيع تأمين عيشه، وحمائنها لغير القادرين من أبناء الوطن، دون أن تعطيه أم هند فرصة لإكمال حديثه، مواصلة هلفطتها بكلام يؤكد أنه ليس في قلبها ذرة من إيمان بسيادته فضلا عن وجود مزرعة ثقة فيه، كان جليا أن الدور لم يصبها في إفتتاح مزرعة الثقة، هزني حماسها الباكي المفاجئ فقلت لها " لا والنبي بلاش تعطلي ليه يأم هند"، فقالت لي وهي تنظر في الأرض كعادتها " وهو عاد في دموع بأستاذ .. ده البصل ابن الوسخة".

استدارت أم هند مباشرة لتواصل مواجهتها مع الرئيس وهي تلوح له بسكينة صغيرة خرجت بها من المطبخ، حمدت الله لأن البث لم يكن تفاعليا لكي لا ألبس أنا وأم هند قضية أمن دولة لاتحقيق فيها ولا محاكمة، بل مشرحة على الفور، أخذت أم هند تقول ساخطة سخطا تلقانيا لم أر له مثيلا " معاش إيه بس.. ده أنا رحنت بنك فيصل عشان آخذ المعاش اللي بيدوه للفقرا قالت لي واحدة اقلعي الخاتم الذهب ده عشان هيقولوا عليك مبسوطه قلت لها ده قشرة بقى له خمس سنين وهو اللي فاضل من ريحة المرحوم .. قالت لي اقلعيه وبس .. لقيت طوابير وستات بتضرب من العساكر وزعيق وقلة أدب وتجربة .. وياخدوا الورق من الناس ويرموه.. وكل ده عشان تلاتين جنيه أخذهم كل موسم .. وانا وحظي .. لقيت نفسي هاموت تحت الرجلين قلت بلاش العيال عابزيني. لا وإيه وعابزينك لما تروح تقدم تبقى لابس مقطوع وشيشب مقطوع مش تروح نضيف، الحكومة عشان

صباح اليوم التالي لإعلان الرئيس مبارك للتغيير الوزاري المحدود الذي أطيح فيه بعدد قليل من الوزراء على رأسهم أقدم وأضخم وزراء مصر السيد كمال الشاذلي، سألني بتاع عربية الفول المتلقة أسفل بيتي سؤالاً اعتبره أهم وأجراً وأذكى تعليق سياسي على التغيير الوزاري "لامواخذه باباشمهندس.. هو يعني كمال الشاذلي اللي كان خارب البلاد؟"، ردي هو الآخر جاء على نفس المستوى من الذكاء والجرأة والأهمية 'كثر الطحينة ياريس'. بعدها بدقائق قال لي بياح الجرائد بالمعية ليست عربية على مهنته "عارف يابيه ياريتهم كانوا جابوا مرتضى منصور رئيس حكومة على الأقل كنا نتسلى حبتين" قلت له "أنا سامع إنهم هيعملوا له هو وكمال الشاذلي برنامج توك شوك في التلفزيون عشان الشعب مايحسش بالغرابة بعد رحيل كمال الشاذلي"، وبينما نحن نتهاذر ونتهازر دخل إلى نطاق فرشة الجرائد موظف قديم في وزارة الصحة القريبة منا ليقوم بعادته اليومية وهي أخذ جميع الصحف اليومية السيارة على إختلاف ميولها السياسية لتصوير أبواب الكلمات المتقاطعة والقيام بحلها أثناء ساعات العمل، ضايقه انشغال بياح الجرائد بالحديث معي فقال له "والنبي بسرعة عشان

الرئيسين معاً يرحلوا يوماً

الإمضاء"، رد عليه البائع متهمًا "ياعم مستعجل ليه ماشالوا الوزير خلاص"، قال له الموظف بقلق "والنبي بلاش هزار"، قال له البائع "زعلان ليه هو كان من بقية أهلك"، قال له الموظف "ياعم اتسيل هم دول بيثيلوا حد"، أشار له البائع إلى مانشيتات الصحف فجرى بعينه باحثًا عن إسم وزيره وهو يقلب رأسه حيرة، قال له البائع "ياالله شد حيلك"، قال له "ياعم وأنا مالي هو يعني أنا كنت خدت منه حاجة عشان أزعل عليه.. بس ده مين ده الوزير اللي جابوه مكانه"، قلت له "ده دكتور إسمه حاتم الجبلي كان بيشتغل مدير دار الفؤاد كليفلاند كلينيك"، سرح الموظف قليلا ثم قال لي وهو يلوي شفثيه باشمتراز "البلد خربت.. بقي يمسكوا وزارة الصحة لرئيس بنك"، هلكت من الضحك وسط دهشته هو وبائع الجرائد، سأل الموظف بائع الجرائد مشيرا إلي "وهو الأخ تبع أنهي وزارة"، قال له "ده مسكف تبع وزارة السكافة.. الوزير بتاعهم قاعد"، نظر الموظف لي نظرة غير بريئة فهمت مغزاها وابتعد وهو يبسمل ويحوقل، وبعد أن انصرف قال لي البائع "عارف ليه طلوعوا الدكتور عوض تاج الدين من وزارة الصحة.. قلت له عشان البلد بقت بعافية قال لي لأ ماهي طول عمرها كده.. دول طلوعوه من الوزارة عشان في المدة اللي قعد فيها في الوزارة طول حبتين وبقي أطول من نظيف وده مايصحش"، قلت له "بس غريبة مامشوش فاروق حسني عشان التلاتين واحد اللي اتحرقوا"، قال لي "ماهم شالوا المسئول عن الدكائرة اللي ماعرفوش يطفوهم.. مش المهم اللي حرق باباشا المهم اللي ماعرفش

يداوي". أعجبني منطقته فسألته "طيب والنبي وزير الزراعة ازاي يمشوه.. تفكر عشان جاب سيرة الفساد بتاع يوسف والي ورجالته" قال لي "لأ بابيه.. طلوعوه عشان الجراد فضحنا في الدنيا كلها عشان لما جه مصر مالقاش حاجة ياكلها"، سألته "طب تفكر سابوا وزير الداخلية حبيب العادلي ليه"، لبس على الفور وجها خشيبا ناظرا إلي بحياء ولاكأننا كنا نتحدث على مدى نص ساعة قبل أن يشخط في وهو يمد المائة جنيه التي أعطيتها له منذ قليل "والنبي فك لي المية دي من البنزينة.. ياالله عشان نشوف أكل عشنا بابيه"، قدرت ظروفه وضحكت ثم عبرت الشارع إلى بنزينة التعاون، باركت لعامل البنزينة على بقاء وزير البترول في منصبه فقال لي "بس على الله نادي إني يعمل حاجة السنة دي في الدوري".

عندما عدت إلى بائع الجرائد وجدته يقول لأمين شرطة "والله ما حد عرف يمسك البلد ديه ويشكم أهلها زي الباباشا العادلي"، أخذ فلوسه متحاشيا أن تقع عينه في عيني. وأنا قدرت ظروفه، وعدت إلى البيت، في الطريق مررت على المكوجي فوجدته منتشيا للغاية سألته "إيه ياسطى شكلك فرحان إن في رجال أعمال جداد دخلوا الوزارة"، قال لي "لا الحمد لله ربنا أظهر الحق طلع التايير بتاع مدام سناء واقع في البلكونة اللي تحت.. كانوا متهميني فيه غلط.. ظهر الحق وزهك الباطل". وأنا أشتري الزبادي من محل ألبان عمر المجاور قال لي عامل المحل الحاصل على بكالوريوس تجارة "إيه كل الجرايد دي باباشا.. إنت

عملها في تخريب المنزل باركت لها بحرارة على رحيل وزيرة التأمينات التي داخت أم هند السبع دوخات فيها لكي تصرف من وزارتها معاش السرنيس مبارك "اللي بيقولوا عليه"، قالت لي بذهول وقد صدمها الخبر الذي لم تكن قد سمعت به "بانهار اسود لا يكونوا مشوا معاها الموظفين.. الورق معاهم؟"، قلت لها محترما ذكاءها "ماتخافيش هم مشوا الوزيرة بس ولغوا الوزارة كمان.. فتحوها على وزارة التموين وسموها وزارة الضمان الإجتماعي"، أخذت تلطم وتبكي وتقول لي 'ضاع المعاش ياولاد المفترية"، قلت لها "ماتخافيش ورق المعاش اللي معاكي بإسم الرئيس والرئيس قاعد لسه ست سنين.. يعني حقتك محفوظ"، حاولت أن تتماسك ويتمسك ببصيص الأمل الذي ألقينته إليها قبل أن تغرق في اليأس، واتجهت إلى المطبخ محاولة التماسك لكنها قبل أن تدخله استدارت وسألتني سؤالا أخطر من سؤال بتاع الفول "ألا ياباشا هي وزارة الضمان الإجتماعي دي ضمانها كام سنة". قلت لها "ست سنين شاملة قطع الغيار والتوريث". ظننت أنني أسخر منها وظهر الغضب على وجهها، حاولت ملاطفتها فقلت لها "كل سنة وإنتي طيبة يأم هند.. النهارده عيد ميلاد الرئيس"، فخطبت جبينها بكفها بقوة وقالت "ياحول الله يارب.. نسيت أصوم".

مابتزهقش"، قلت له "لا ده أنا جايهم بمناسبة تغيير الحكومة أصلهم خلاص هيوفروا ٤ ملايين ونص فرصة عمل وربنا هيتوب عليك من الغلب اللي إنت فيه"، قال لي بعد أن أصدر صوتا غير قابل للكتابة ولو كان قابلا للكتابة لما كان قابلا للنشر ثم أردف قائلا " والنبي ياباشا شوف لنا كاتبين إيه عن ماتش أوغندا.. ده شكلنا هنقطع في كأس الأمم.. عشان الكابتين حسن شحاتة فزح بإعلانات البيبسي.. طب ماكانوا خلوا اللعيبة بتوعنا عملوا إعلانات لكوكا كولا أحسن على الأقل بيبقوا زملا مع نانسي عجرم دي وشها حلو وإننت فاهمني بقي.. طابك أهوه ياباشا". قلت له وأنا أخرج من المحل مغيفا له بشعار حملة الألبان الشهير 'ياحمد صدقني صحتك في الحكومة دي"، وهو لم يتقبل الدعاية وواصل إطلاق الأصوات المستعصية على الكتابة.

عندما وصلت أسفل البيت ابتكرني أسعد البواب - إسمه أسعد مع أنني لم أر من هو أعس منه - مطالبيا بأجرة مسح السلم، أعطيته عشرة جنيهات وانتظرت الباقي فقال لي "كل سنة وإننت طيب.. حلاوة الحكومة الجديدة"، أتيت على ذكر أهله بما لايليق ثم قلت له "حد قالك إني اتعينت فيها وزير"، قال لي ياباشا نظيفة "أيوه ياباشا بس يعني هتاكل على قفاها عيش.. ماإننتو يابتوع الكتوبة اللي بتستغفوا من الحاجات دي"، أفحمني منطلقه فقلت له "طيب هات اتنين جنيه وهاديك باقي الحلاوة بعد حلف اليمين الوزاري".

بعدها بكام يوم وفور مجيئ أم هند "متيرة" المنزل لممارسة

"العاسيفة" التي ستأخذهم!

كلما حدث حدث جلال في مصر انتظر الكثيرون رأي الأستاذ محمد حسنين هيكل لكي يطل عليهم بتحليلاته الجامعة المانعة عبر شاشة قناة الجزيرة، عن نفسي أهتم كثيرا لأراء الأستاذ هيكل وأستضيئ بها لكنني أنتظر بشغف أكثر تحليلات أم هند شغالة منزلنا العامر أو مديرة منزلنا كما تحب أن تسمى نفسها بعد أن شاهدت تلك التسمية في مسلسل أصحاب المقام الرفيع الذي سامح الله كاتبته منى نور الدين لأنها عبثت بعقل أم هند فجعلتها تصر على أن تخاطبني بلقب إكسلانس.. حتى لو كان ذلك اللقب لا يتسق مع جمل من نوعية "أنا دعكت الحمام خاليته زي الفل يا إكسلانس" أو في عبارات وسخة للغسيل يا إكسلانس". وبرغم إعتراضي مرارا وتكرارا على ما استحدثته أم هند في لغة الخطاب إلا أن أيا من هذه الإعتراضات لم يكن له أي جدوى، ليس فقط لأن زوجتي سعدت بتلك التغييرات التي اعتبرت أنها أوجدت "إسبيس" ضروريا بيننا وبين أم هند خاصة أن زوجتي ورتتها مكرهه من أيام عزوبيتي، وإنما لأن أم هند ترى أن الأصول تقضي أن تعاملنا بما نستحقه كأصحاب مقام رفيع لا ينقصنا من وجهة نظري إلا امتلاك فائزة ضخمة كالتي يمتلكها حسين فهمي في مسلسل

أصحاب المقام الرفيع والتي صارت لدي علامة على كون أي مسلسل به فازات ضخمة بالضرورة من تأليف منى نور الدين.

أنتم الآن تعلمون أن هناك ضديات سياسية بائت تربط أم هند بالرئيس مبارك الذي ترى أم هند أنه يتخذ منها موقفا شخصيا بسبب عدم حصولها حتى الآن على المعاش الذي وعد به شعبه منذ أكثر من عامين، ياما قلت لها أن الرئيس مبارك برئ مما جرى وأن اللوم يقع على الباحثين الاجتماعيين الأشرار الذين يعرقلون حصولها على معاش سيادة الرئيس لأنهم يرون أن أم هند غنية لأنها تملك تلفزيونا، بينما أم هند تحتاجهم بقولها أنه "دا حتى الجرابيع عندهم تلفزيونات"، لم أهتم ولو لمرة أن أسأل أم هند: من هم الذين تقصدهم بالجرابيع وما هو المستوى الاجتماعي لهم، فأنا بحكم تاريخي ونشأتي ضليع في علوم الفقر، وأعرف عن ضهر فقر أن هناك حول أم هند من هم أفقر بكثير من أم هند ويعتبرونها هي وأمثالها من أهل الخطوة فهم على الأقل يأخذون من حياة العز لحسة، تماما كما تتعامل أم هند معي بوصفي من عليه القوم لأنها رأنتني في التلفزيون أكثر من مرة وهو مأغراها أن تقول لي "ما تكلم لنا والنبى جمال باشا مبارك يخلص لنا موضوع المعاش الله يبارك لك.. قول له والله بادعي له ربنا ينوله اللي في باله"، لم أسألها عن الذي في بال جمال فأنا أعلمه، لكنني حاولت أن أقول لها ببساطة أنني لأعرفه شخصيا، توقفت عن الكنس واعتدلت ناظرة إليّ بعينين هجرهما الحول الإختياري لتقول لي "عيب كده ياكسلانس.. ده أنا شايفاك في التلفزيون في

لوتانا سينما وإنت مع هالة سرحان وثامر حسني". حاولت أن أشرح لها أن طبيعة البرنامج الفنية لم تتح لي أن أنثبت من صلات الإثنين بجمال مبارك، لكنها لم تستجب لشرحي وقالت لي بحدة "عيب الكلام ده ياستاذ ماكلكو منفدين على بعض". ثم عادت لحولها وكنسها وتركتني غاضبة وهي تتمم بما فهمت من طراطيشه أنه دعاء حار على الكفرة وأولاد الحرام الذين لم تحدد في الدعاء ما إذا كانت تراني منهم صراحة، وأنا بدوري لم أشأ التصعيد بسؤالها عما إذا كانت تعندي منهم لاسمح الله.

منذ تلك اللحظة وثمة شرخ في العلاقة بيني وبين أم هند، شرخ لم يزل بمحاولة التودد إليها بأكثر من وسيلة أو علاوة فقد حرصت من جهتها على تعميق "الإسيس" القائم بيننا والذي يكون مستقرا أحيانا عندما يصبح ثممة شبه مسموعة بالدعاء والشتائم المبطنة فضلا عن حكي قصص بصوت عال لزوجتي عن الزمن اللي بيغير الناس وبيظهر قلالات الأصل على حقيقتهم، وهو ما حاولت أن أحرص دائما على تجاهله باعتبار أن أي رد عليه سينزل بي إلى مستوى أم هند وسيخلع عني استحقاقي للقب الإكسلانس الذي أصبحت زوجتي نفسها تتاديني به.

لكن كل ماجرى لم يمنع أبدا عني شغفي بمعرفة موقف أم هند السياسي إزاء كل المنعطفات التاريخية الكبرى التي تمر بها الوطن والتي يتصادف أن أم هند تتعطف علينا بالصدفة الحسنة إبان حدوث هذه المنعطفات. للأسف كنا أنا وأم هند في أوج خلافنا صبيحة خطاب الرئيس مبارك في مدرسة المساعي

في بيتنا أثناء بث الزيارة مباشرة على الهواء، وكانت راضية عني ومنجلية على الآخر لكن ماقالته يومها لا يصلح للنشر بتاتا. هاهي أم هند اليوم في بيتنا بينما مصر تشهد أزهى أعراسها - بالسين طبعا - وتحفل بأول إنتخابات رئاسية حرة في تاريخها الحديث، وتعيش قلق إمكانية خسارتها لرئيسها المبارك الذي حكمها منذ نعومة أظافرها. فور أن دخلت أم هند إلى البيت بادرتها بسؤالتي: "إيه.. أتأخرتي ليه يأم هند.. كنتي بتصوتي"، نظرت إلي مرتبكة وقالت لي " بسم الله الرحمن الرحيم.. عرفت إزاي يااكسلانس"، قلت لها دون أن أفهم ارتباكها " مش عايزه فكاكه يعني.. كل الناس المفروض تصوت النهارده"، فهدأت قليلا ثم قالت "آه والله ده الحارة كلها هرت نفسها صويط النهارده أصل السبت انشراح دي كانت نواره الحارة، ماحدث مصدق إنها ولعت في نفسها كده وعشان جوزها الواطي، قال إيه بيعرف واحدة عليها، طب ده حافي ماتسيبيه يولع معاها ليه تموتي روحك عشان نجس زي ده".

غرقت في كريمة ضحك بينما هي تنظر إلي مستغربة، قالت لي وقد عاودها الإندهاش "إنت بتضحك ليه يااكسلانس هو إنت كنت تعرف انشراح"، قلت لها بحميمية "يأم هند انشراح أخت عزيزة علينا كلنا وخسارتها كبيرة قوي بس أنا باتكلم عن التصويت في الإنتخابات الرئاسية". ظننت أنها لم تسمع عنها شيئا ربما لأن أم هند مركزة في البيزنس الذي أخذها من السياسة في الفترة الماضية. لكنها خيبت ظني وقالت لي بمرارة وهي

المشكورة في مسقط رأسه بالمنوفية حيث أعلن من هناك عن رغبته في ترشيح نفسه رئيسا للبلاد لفترة رئاسية خامسة أو سادسة، والله ماعدت فاكرك، يومها قلت لها "ماتيجي تتفرجي يأم هند.. ده خطاب تاريخي بلاش يفوتك"، فقالت بشم تعرفه من رفعة مناخيرها إلى السماء "أنا مش فاضية للكلام ده.. ده للناس الرايقة اللي ماوراهاش حاجة"، جرحني التعليق لكنني قررت أن أسعى لمصالححتها حديثا قبل أن ينتهي موسم الإنتخابات الرئاسية الذي خشيت أن ينقضي وأنا محروم من العيش بدون آرائها السياسية التي لايجود الزمان بمثله، توجهت إلى المطبخ مباشرة وأعطيتها خمسين جنيهها مرة واحدة على أساس أنها علاوة قائلا لتوضيح دهشتها " معلش بقى اعتبريني بديل عن مبارك الشهر ده وباديكي المعاش بشاعه". فقالت لي وهي تأخذ الفلوس ونبض عروقها كبرياء "بس هو أجدع منك هيديهم لي كل شهر". تجاهلت التعليق وقررت أن أصبر عليها حتى يمر موسم احتياجي لتحليلاتها وبعد كده تبقى تقابلني لو شافت هي ولا غيرها معاش مبارك أو علاوتي.

نتي لم تكن صافية ولذلك يوم أن ألقى الرئيس مبارك خطاب حملته الإنتخابية من داخل الأزهر بارك كان الوقت مساء فلم تكن أم هند موجودة في بيتنا، وحرمت من سماع تحليلاتها. على العكس تماما يوم أن قام الرئيس مبارك بزيارته المفاجئة لخص أحد المواطنين في المنيا وشرب معه الشاي قبل أن يتضح أن المواطن مخبر مربوط على الدرجة الرابعة، كانت أم هند يومها

تمصص شفاهها متجهة إلى المطبخ إنتخابات إيه بس يا اكسلانس.. دول بيضحكو اعلى الناس.. كل واحد بيدور على مصلحته.. ولاد (... دايرين على الناس في كل حته اللي يقولك هاديكو شقة وعربية واللي يقولك هاديكو فلوس في ايديكو.. ده أنا داخه بقى لي سنتين على المعاش بتاع مبارك من ساعة ماالراجل مات وكلهم خمسين جنيه لاراحو ولاجم ومش عارفه آخدهم.. هسيديهم لي يعني دلوقتي". قلت لها وأنا أنكشها "بس هو الرئيس مش غلطان يأم هند.. انتي اللي غلطانة.. يعني لو كان عندك خص كان الرئيس جالك فيه.. إنما إنتي ساكنة في شقة محدقة في امبابه إنتي نفسك مابتعرفيش تروحي لها". قالت باستعلاء "وأنا إيه اللي يوديني أنا وبنتي وبناتها تقعد في خص وإحنا ولايا.. ليه هو إحنا شحاتين"، مرة أخرى تظهر أمارات الإستعلاء الطبقي التي تستفزني لدى أم هند فقالت لها "لا العفو يأم هند هو إنتو وش ذلك.. بس لعلمك إنتو لو قعدتو في خص هتقابلوا الرئيس.. عارفه يعني إيه هتقابلي الرئيس يعني هتطلعي في نشرة سنة ونشرة تسعة ويمكن كمان في أحداث اربعة وعشرين ساعة ومش بعيد تطلعي في ملف خاص وحالة حوار" قالت لي وهي تشوح بيديها "ياسيدي يعني هيطلعوني أحج"، استغربت وقلت لها "هو إنتي عايزه معاش ولا عايزه تحجي.. ماتحددي طلباتك بالضبط"، قالت وهي تسحب تنهيدة عميقة "أ.. نفسي أطلع أحج عشان أدعي ربنا ياخدني وأستريح من غلي". قلت لها "طب ماتدعي ربنا ياخدك وانتي في مصر من غير ماتشحططي روحك.. على الأقل لما ربنا ياخذك

تبقى وسطينا"، قالت لي مخرجة حزنها الدفين الذي لا يظهر بسهولة "مأنا من يوم ماوعيت على الدنيا وأنا بادعي ربنا ياخدني مافيش فايدة.. ثم صممت قليلا وعادت إلى عدوانيتها قائلة "هو يعني ربنا هستجيب لي إزاي وسط النجاسة اللي إحنا فيها دي". قلت لها "الله يكرم أصلك يأم هند.. بادرت مستدركة "والنبي ماتزعل يا اكسلانس ده انت مافيش زيك.. أنا قصدي النسوان العريانة اللي في التلفزيون والبانجو اللي العيال بتشربه في الشوارع والخمرة اللي بتتباع في الفئاتي". قلت لها "وانتي مالك إنتي ومال الفئاتي يأم هند.. قالت لي "إزاي مش دي في بلدنا ويوم ماربنا يخفس بينا الأرض هياخدنا كلنا".

ياجلال الله.. هأنأا أكتشف أن أم هند تمتلك رؤية سياسية خاصة بها أعمق مما كنت أتصور، علامات الإهتمام التي ظهرت على وجهي جعلتها تواصل بإخلاص تحذيري مما أنا غافل عنه قائلة "انت فاكرا إن ربنا هيسيبنا كده.. ده إحنا رايحين كلنا في داهية قريب قوي"، قلت لها "إحنا قصدك يعني أنا وإنتي والدمام واللي زينا ولا اللي مرشحين أنفسهم في الإنتخابات"، فقالت لي بود ظاهر "لا إنتو ناس أمرا أنا قصدي على الظلمة اللي ياكلوا مال النبي إن شاء الله ربنا هياخدكم كلهم وهيجيب لهم عاسيفة تاخدكم". والعاسيفة التي تتحدث عنها أم هند لمن لايعلم مفردات قاموس أم هند اللغوي تعني في لغتنا الجميلة العاصفة أو الإعصار، وهي كانت تتحدث تحديدا عن الإعصار الذي اجتاح أيامها بعض الولايات الأمريكية والذي كانت النشرة تعرض وقتها

الانتخابات.. شايغاه بينجح أهوه قدامك وساعتها هيو في بوعوده وهيدي الناس كلها فلوس ومش هيجلي حد إلا لما يديله اللي في نفسه"، نظرت نحو بيثشكك، وربما لأن علامات الجدية لم تكن قد فارقتني ولذلك صدقتني فقالت مباحثة لي بموقفها البراجماتي " والله السراج ده أصيل وقلبي انفتح له من ساعة مامسك البلد ده حتى بي فكرني بالمرحوم جوزي.. كان عشري كده ولسانه حلو وإبن بلد"، قلت لها 'يعني هتخلصي الشغل وتروحي نتخبه يأم هند"، فصمتت برهة ثم قالت لي بدهاء "أنتخبه المرة الجاية.. لما أشوف هيديني الخمسين جنيه ولا إيه في سنتنا اللي مش فايته دي"، قلت لها 'ماهو احتمال مايقاش في مرة جاية واحتمال مايقاش في خمسين جنيه'.

كان ماقلته اختبارا لموقف أم هند المباركي الذي لم يتماسك أمام ماقلته فغرقت في حيرة بانث جلية في تحببها في أرجاء الشقة، قبل أن تعود لتقول لي بصوت يملؤه العشم "باقولك إيه ياإكسلانس.. إنت شايغني أهوه نضافة وأمانة ودين.. مش هاشكر في نفسي يعني"، لأول وهلة ظننت أن أم هند تريد أن ترشح نفسها في الانتخابات القادمة فهي تتحدث عن نفسها كأنها مرشح عابر للمستقبل، لكنها كالعادة خيبت ظني وقالت لي "ماتشوقليش مكان أشتغل فيه تاني غير عندك، أصل انت بصراحة بغزاة، وكل شوية تأجل مجيتي لعندكو وتقولي بلاش النهارده أصلي باكتب، طب ماتكتب وأنا باشتغل هو أنا يعني هاعش اللي بتكتبه"، قلت لها "لأ يأم هند ماتفهمنيش غلط أصل الكتابة دي مود

مشاهد لأثاره المدمرة. قلت لأم هند محاولا أن أعيدها إلى جادة الصواب " لكن العاسيفة دي يأم هند يوم ماتيجي هتاخذنا كلنا معاها وإنتي أولنا، ده إنتي أساسا قصيرة مش هتاخدي غلوة في العاسيفة". قالت لي بيقّة شديدة "ماهو ربنا هيرحم اللي زينا ومش هيموتوا في العاسيفة هنبقى ضحايا بس وساعتها هيدونا مساعدات ويمكن نطلع بأي مصلحة.. شوية دوا حبة أكل حبة بطاطين". ثم تنهدت بعمق وواصلت قولها " إنت عارف ده بيقولوا اللي اتحرقوا في المسرح بتاع بني سويف ياعيني الله يرحمهم إنوا كل واحد فيهم عشرين ألف جنيه .. عشان إحنا في موسم انتخابات.. إنما اللي اتحرقوا في قطر الصعيد ادوهم خمستلاف بس عشان ماكانش في انتخابات.. ماتعرفليش حنة أتحرق فيها اليومين دول والنبي عشان أنفع الولاد".

اعتصر كلامها قلبي فقلت لها "أعوذ بالله إنتي بتتكلمي جد يأم هند.. هو في حاجة تعوض الإنسان عن حياته أو تعوض ولاده عنه"، قالت لي بمرارة "الكلام ده للناس اللي زيك ياإكسلانس.. طب ماعندك انشراح أهو اتحرقت ببلاش وكل يوم في كثير زيبا بيتحرقوا وهم عايشين.. طب انت إتشيل بهند بنتي كده وقولها إنك هتديها خمستلاف جنيه.. خليه عشرة.. وهي هتولع لك فيا وفي روحها، إحنا مش عايشين ياإكسلانس.. إحنا مدفونين بالحيا".

حاولت الخروج من كآبة حديثها مسرعا فقلت لها "بس أنا عايزك تطمئني خالص.. أهوه الريس مبارك بينجح أهوه في

وما أحبش حد يطلعنسي منه"، قالت لي "مالحنا طالع عين التي خلفونا في العيشة أهوه وعايشين، فيها إيه لما تطلع منه شوية عشان إحنا نعرف نعيش.. ماتشوف لي حد أشتغل عنده مايقاش عنده اللي بتقول عليه ده، الموض".

كانت قناة الجزيرة تذيع تنويهات عن لقائنا الخاص مع الأستاذ هيكل مساء اليوم فقلت لأم هند مداعبا "طيب هاشوف لك الأستاذ هيكل لو محتاج حد يشتغل عنده"، قالت لي "أقولك عيالي تعبانيين تقولي هيكل هي ناقصة عضم.. نفسنا في الزفر شوية"، قلت لها "يا عبيطة وهو إنتي تطولي تشتغلي عنده.. ده اللي بيشتغلوا عنده بيلبسوا بابيونات وفساتين سهرة"، قالت لي "يا سيدي ألبس بالونات بس يشغلني ويديني فلوس كثيرة"، قلت لها "والله بمنظرك ده صعب يشغلك عنده غير في البيت الصيفي في برقاش"، قالت لي بإباء "لا أنا ماياباتش عند حد"، فقلت لها "لا إنتسي بتقفلها على روكك.. ماتزعلش مني يعني شحات ومشارط". نظرت لي بقرق وقالت لي "طبعا يا اكسلانس ليك حق نذلنا بالقرشين اللي بستديهم لنا.. ربنا يتوب علينا من خدمة البيوت". ابتعدت عني بعودها القصير وهي تتمتم بما أنا متأكد أنه دعوات حارة صريحة علي بأن يشملني الله ضمن الذين سنأخذهم "عاسيفة" أم هند. اللهم لاستجب.

وهكذا سقطت أم هند!

سألني عامل الكاشير في محل لعب الأطفال: "هي أم هند حقيقية؟". فاجأني السؤال ففكرت في الإجابة للحظات، ثم قلت له: مش عارف إستنى لما أسألها وأرد عليك. امتعض الشاب الجميل المكافح الذي يقرأ ماأكتبه في صحيفة الدستور "شركة" مع زملائه في المحل، ظن أنني أسخر منه، عز علي زعله فحاولت أن أشرح له "هي أم هند موجودة فعلا لكن حقيقية دي فيها كلام فأنا أميل إلى أنها شخصية أسطورية"، توقفت عن الشرح عندما بدأ بمتعاضه من كلامي يتحول إلى إحتقار.

بعدها بكم يوم سألت أم هند "ألا يأم هند هو إنتي حقيقية؟"، نظرت لي بعينها السليمة نظرة ذات مغزى مريض وقالت لي "اللي تشوفه ياسعادة البيه"، عندما تكون أم هند غاضبة مني تتأدبني بهذا اللقب الكريه، أما عندما تكون راضية عني تتأدبني بإكسلانس أو بأستاذ، ولأنني لست قد غضب أم هند التي يمكن ببساطة أن تتف في حلة البامية أو تضع إفرزا أنفيا وسط المكرونة الفواقع أو تكوم التراب تحت الكنب أو توقع أنمن قطعة غسيل عند الجار الذي أكرهه أو ماإلى ذلك من وسائل الإنتقام التي لا قبل لي بدرئها حتى لو كنت أمتلك قمرا صناعيا يراقبها في

قلب الشقة. لذلك بادرت فوراً لمصالحة أم هند فأتت لها "أصل أنا لما بافكر في قصة كفاحك باحسن إن إنتي عاملة زي ماتكوني حكاية بطولية لازم يتعمل عنها مسلسل أو سيرة شعبية زي الأميرة زينا وناعسة وعلية العيوطي"، أضاء وجهها الأسمر بإبتسامة وخفت مؤقتاً من حولها وقالت لي "طب البركة فيك مائتد حياك وتكتب قصة حياتي مسلسلة بس فلوسها تبقى أبو قسم"، قلت لها "من عينيا يأم هند وهاخلي عيلة كامل تعمله كمان"، قالت لي بالأطمة وكأنها تنفق في مكتب رئيس شركة صوت القاهرة تنفق على عقد المسلسل "هي عيلة حبيبتي بس ياريت تخلي يسرا هي اللي تعمله عشان يعرضوه في الكناة الأولى"، حبك الإفيه قلت لها "تفتكري يسرا توافق تعمل عملية تجميل عشان تقرب منك في الشكل"، فنظرت إلي شزراً من جديد، وبعد أن سمعت سيل اعتذاراتي قالت لي "إنت ماشفتيش قبل ماأخلف هند.. كنت فرسة.. هو أبو هند مات من شوية"، لو كنت أستمع إلى أم هند في التليفون لصدقتها لكن المشكلة أنني كنت أشاهدها وهي تقول هذا الكلام وهو ماجعلني لامحالة أدرك أنها تقصد أنها كانت فرس النبي قبل أن تتجب هند، لأعيب على خلقه الله لكن محمد هندي يعتبر عملاقاً مقارنة بأم هند، هذا من حيث البنية الجسدية أما من حيث الجمال فالفنانة عائشة الكيلاني تعتبر جريتا جاربو لو قارنتها بأم هند، لكن أم هند ربك والحق تمتلك كعائشة الكيلاني وجريتا جاربو أيضاً إبتسامة تملأ وجهها بنور رباني ليس له حل. إذن ياسادة هكذا فشلت محاولة الإجابة على السؤال العلمي

الذي طرحه صديقنا الكاشيرجي "هل أم هند حقيقية". لكنني لم أعرف أنني سأجد إجابة هذا السؤال بعد أسابيع من محاولة طرحه على أم هند. وباليتمني ما عرفت.

آآآ. أم هند حقيقية أيها الناس. ليست أسطورة كما ظننتها. فالأسطورة لاتصاب بالشلل. الأسطورة لاتطق من جنبها وتقع من طولها بعد أن تعبت من شيل الهم وحمل الأحزان وخدمة البيوت، الأسطورة لاتفقد القدرة على تحريك جنبها الأيمن. أم هند حقيقية، ترقد في مستشفى الهرم طريحة الفراش، في عينيها بكاء محبوس تحاول أن ترسم إبتسامة تعلن فيها أنها كانت يوماً ما فرسة، كانت يوماً ما سيدة تحلم بأن تتست وتندلع على زوجها وتشخط في ولادها وتفرح بهداياهم في عيد الأم ويتقطم وسطها من شغل البيت، بيتها هي، لالخمسة بيوت التي تعمل فيها لكي تصرف على أولادها اليتامى وبناتها وأزواجهن العاطلين. "ليه يأم هند.. حصل ده من إيه"، ترفع إصبعها السبابة إلى السماء وهي تبتسم إبتسامة رضا، أستغفر الله العظيم يأم هند، رضينا بقضاء الله، نقول لسي إينتها "حملها ثقيل ياأستاذ"، أعرف، رأيت رجالاً بشنيات وطول وعرض لايحتملون ربع مااحتملته، خروا وسقطوا وندهلوا ومشوا في الشوارع مهلهلين بسبب أزمة عاطفية أو معاش مبكر أو خذلان عائلي أو فقدان ثقة في الحياة، أعرف الحمل الثقيل ياهند، لكنني ظننت أمك تعايشت معه، وعرفت كيف تعض عليه بالنواجذ كأي ست مصرية جدعة تسير في ذات مدينة أو ذات قرية حاملة على رأسها مايفوق وزنها بمعلمة لأنها تعرف

كيف تحمل حملها ومن أين تحمله حتى لو لم تكن تعرف متى ستضعه.

يدخل الدكتور إلى العنبر الذي ترقد فيه أم هند ليقول كلاما يغم النفس عن حالة أم هند وما تتطلبه، تقول له هند أنهم ماقدروش يلموا فلوس الرنيم المغناطيسي والسومار، هكذا تقولها فأفهم الرسالة، أقول لأم هند "ماتحمليش هم"، لكن نظرتيها إلى أحفادها المتحلقين حولها بذهول حملت لي الرد البليغ. إزاي ماأحملش هم.

سقطت أم هند في نفس اليوم الذي غرقت فيه العبارة السلام ٩٨ في عرض البحر الأحمر الذي لايف عن ابتلاع فقراء المصريين، كما سقطت أم هند سقطت العبارة حاملة معها آباء هند وأمهاات هند كثيرين ليستقروا في قاع البحر ويطون الأسماك الضارية، حاملين معهم أحلامهم بهداوة السر وراحة البال وشقة مهندقة ولمة العيال وعدم الحوجة للناس، كان يمكن أن تكون أم هند معهم فقد سافرت على عبارة كهذه في العام الماضي وذهبت إلى العمرة بعد أن ظلت تحوش ثمنها لمدة عشر سنوات، يومها دخلت إلى مقام حضرة النبي واستقلت حتى تضع يدها على شبابه كما قالت، دون أن أعرف هل كان هذا ماحدث لها أم أنها كانت تروي حلمها الذي لم يتحقق، قلت له يا رسول الله إنت داري بحالنا.. إحنا متمرطين ياسيدنا النبي.. والنبي خلي ولاد بنتي يلاقوا شغل عشان أنا تعب.. ونفسي أرتاح.. وحياة غلاوتك ياأبو سبتا فاطمة أنا ماباقوت ركعة.. بادعي دائما إن ربنا يريح سري ويتوب عليا من خدمة البيوت بس ربنا لسه مش كاتبها لي..

والنبي يارب إكتبها لي"، وأنا أنظر إليها وهي رافدة على سريرها تذكرت حكايتها فمنعت نفسي من البكاء بصعوبة، "مكتوبه لك يأم هند أهي الراحة من خدمة البيوت بس غصبا عنك"، تقول هند أنها مستعدة لكي تسد مكان أمها، تحرك أم هند يدها بعصبية كأنها ترفض أن تتزلق إينتها إلى المصير الأسود الذي عاشت فيه عمرها كله.

أنظر إلى صورة الرئيس المعلقة على أحد جدران المستشفى، أتذكر اليوم الذي اندفعت فيه أم هند خارجة من المطبخ وهو يخطب في إحتفال عيد العمال وأخذت تصرخ في وجهه وهي تشوح بسكين المطبخ الصغيرة وهي لاتكاد تطول ارتفاع التلفزيون "حرام عليك.. حرام عليك"، وأخذت تحكي له معاناتها من أجل الحصول على معاشه الموعود الذي لم يأت حتى تاريخ سقوطها مشولة عاجزة عن تحريك جنبها الأيمن الذي أثقله المسح والكنس والتسييق والتنظيف والغسيل والنشر والعصر والمرش والتلميع والتطويق، كان سيادته يوم دخول أم هند إلى المستشفى مشغولا بزيارة أبنائه أبطال المنتخب القومي أشاوس مصر وأسود أفريقيا الذين تقول الصحافة أنهم أدخلوا الفرحة على قلوب الملايين، الملايين الذين لم يكن من بينهم بالتأكيد أم هند ولا أسرته ولا الآلاف أمثالها من نزلاء المستشفيات ولا الآلاف أمثالها من أهالي ضحايا عبارات الغارقة وأهالي ضحايا الطرق الممينة والقطارات المحروقة وضحايا الفقر المستديم وضحايا الفكر الجديد، هؤلاء لايسعدهم استئصال أحمد حسن في الملعب ولا

www.alkottob.com

يا أهل الله ياللي فوق!

بصفتي "مشجع درجة ثالثة قديم" استفزني وأحزنني كثيرا
مانشر في جميع الصحف والمجلات التي غطت بطولة كأس الأمم
الأفريقية ٢٠٠٦ التي أقيمت بالقاهرة، والتي أجمعت الصحف
والمجلات قاطبة على أنها شهدت ارتفاعا وتحسنا في مستوى
مشجعي المنتخب المصري، حيث غزت البنات الجميلات الرافيات
مدرجات استاد القاهرة بدلا من المشجعين الإعتيادين الذين
اعتبرت الصحافة أن المدرجات استراحت من شكلهم الوحش
وريحنتهم الوحشة وأخلاقهم الوحشة وكلامهم اللي مش حلو،
لدرجة أن صحيفة محترمة كالمصري اليوم نشرت صورة لشباب
قميرات وبنات مزات يظهر عليهم وعليهن آثار العز وأكل الوز،
ثم وضعت على الصورة عنوانا موحيا "هي دي مصر"، وهو
عنوان تكرر معناه في كتابات وتعليقات الكثيرين الذين قالوها
بملاء الفم "أيوه هو ده الجمهور المصري الحقيقي".
بالطبع كنت أتمنى أن يكون هذا الجمهور هو الجمهور
المصري الحقيقي وتكون هي دي مصر فعلا، فهذا مانصبو إليه
جميعا، حد يكره النضافة والوجاهة، لكن الحقيقة المرة التي
لا تحتاج لكي تدركها سوى أن تسير في تسعين في المائة من

شوارع مصر، هي أن مصر ليست كذلك وأبناؤها ليسوا كذلك، فقد جعلهم الفساد والظلم شعنا غربا عليهم وعناء السفر والفقر والقهر ولا يعرفهم منا أحد.

في الحقيقة لم أكن أعرف أن رؤية هؤلاء الفقراء في مدرجات الأستاذ أمر قاس على النفس إلى هذا الحد بحيث يحدث غيابهم كل هذه الفرحة لدى الكاتب والمذيعين الذين لم يستفز أيا منهم أبدا أن يحرم آلاف الغلابة من عشقهم للتشجيع لأن اللجنة المنظمة للبطولة قررت أن ترفع سعر تذكرة الدرجة الثالثة إلى خمسين جنيها ده إن لقيتها أساسا، وعلى الفقير أن يخبط دماغه في الحيط ويتفرج في وصلة بيتهم المقرصنة أو على القهوة مع اللي زيه ومن مستواه، فالمستقبل الآن للناس الشيك المودبة المهدبة، والذي يريد أن يكون وسطهم عليه أن يتعلم الأدب والشياكة والنضافة قبل أن يذهب إلى الأستاذ، ليس مهما كيف يحصل على الفلوس اللازمة لعمل كل هذا ولا كيف يتمكن بمفرده من عمل إنتعاشة طبقية مفاجئة دون أن يسرق أو ينصب أو يخرج على القانون، وإذا لم يتمكن من عمل هذا فعليه أن يرضى بما قسم الله له ويضع حذاء في فمه ولا يحتج عندما يشاهد صور الناس المستريحة تملأ الأستاذ دون أن يفكر أحد في أن يوفر له مكانا وسطهم، وعليه أن يطنش خالص مايقال ويكتب عن أن الأستاذ أصبح مكانا محترما يليق بالأسر والعائلات والناس النضيفة، فنحن في زمن ترفع الحكومة فيه شعار "اللي مامعوش مايلزموش"، وإذا كانت الدولة ترفع أيديها شيئا فشيئا عن المواطن

محدود الدخل في الصحة والتعليم والتأمينات والمعاشات فهل ستفكر في متعته الكروية أساسا.

بالمناسبة ولكي لا يفهمني أحد خطنا أنا فرحان للغاية بظاهرة ذهاب الأسر والعائلات إلى الأستاذ، فبال تأكيد مشاهدة فتيات جميلات يرسمن أعلام مصر على خدودهن الحمراء أمر يفتح النفس، لكن الذي يسد النفس هو أن نستمر جميعا في التضييق على السكان الأصليين لمصر الذين كان حضور الأستاذ للتشجيع واحدا من منافذ فرحتهم المحدودة، وإذا كان شكهم لا يعجبنا وكلامهم وهتافاتهم لا تريحنا فهم لم يولدوا جاهلين بأصول اللبس أو بآداب الكلام، بل أصبحوا كذلك بسبب سياسات حكام مصر المتعاقبين الذين نهبوا خيرات البلاد وجعلوا العيش فيها متاحا فقط لمن يدفع أكثر.

أعرف أن ماكتب أو قيل عن هذا الموضوع تم من قبل الكثيرين بحسن نية، لكنه لسوء الحظ كشف عن ظاهرة مؤسفة أتمنى أن نناقشها جميعا، هي ظاهرة الإستعلاء الموجود لدى أهل الله اللي فوق على حد تعبير عدوية من أبناء الطبقتين العليا والوسطى تجاه أهل الله اللي تحت من أبناء الطبقة المسحوقة الذين يشكلون الغالبية العظمى من أبناء مصر، حاول أن تواجه نفسك بصراحة وتذكر كيف تتعامل معهم على أساس أنهم قدر مفروض نحاول أن نتحاشاه طيلة الوقت، نصفهم بأنهم بيئة أو أخلاقهم زبالة أو بلدي أو تصرفاتهم غريبة، يزعجنا صوتهم العالي وتصرفاتهم الفطرية، نسخر من طريقته في اللبس والأكل

والصوت الذي يحدثونه أثناء الشرب، ونرفض ذوقهم في الغناء والفن والبناء والعفش، لأنهم لماذا يلجأون للبداءة كسلاح لفش الغل، ولا لماذا يتخذون من الصوت العالي والتطجين والتريقة عمال على بطال وسائل لإثبات الوجود، لاندرك أن تضيق الخناق عليهم شيئا فشيئا يمكن أن يودي بهذه البلاد والعياذ بأش إلى جحيم لا يمكن تصور لهيبه. أعلم أن كل ذلك لم يخطر ببال السيد العبقري الذي رفع أسعار التذاكر إلى هذا الحد الجنوني، تماما كما لا يخطر ببال أي منا نحن السكان المنتفعين بمصر سواء من ولد منهم هكذا أو كان مثلي واحدا من السكان الأصليين وعدى ليصبح منتفعا بمصر كغيره، الطيب فينا هو الذي يتعامل معهم بوصفهم مستحقين للصدقة أو الشفقة، لأحد يتحدث باسمهم ولا يكي عليهم ولا يسأل فيهم. هنا يحضرنى استشهاد مؤلم ومهم للمكتبر الأ أكبر الأديب الكبير أساذي علاء الديب - في تذييله لروايته السديعة "أيام وردية" - يكشف عن روح شفافة تكترت بالأم الآخرين، يقول عم علاء "يحصل الواحد منا نحن أبناء الطبقة المتوسطة على أكثر من حقه، أنظر إلى الكادحين العارفين حولك، هل تعرف كم يقبضون في آخر النهار، وكيف ينامون، وكيف تمام أنت، فكر في المزايا المجانية الجسيمة التي تحصل عليها بجهد قليل أو بلا جهد على الإطلاق، شعور ساذج بالذنب مستمر ولكنه يكفي لكي يثير دائما نقاشا نظريا لم يحسم عن دور الطبقة المتوسطة في بلادنا وماذا أخذت وماذا أعطت وعن مصيرها الذي انتهت إليه... وكيف تكون هي الوحيدة التي تملك القدرة

على التواصل والتعبير، لكنها هي نفسها مضطربة متناقضة تعطي اشارات متباينة لاتزيد حياة الناس إلا ارتباكًا. على من يبحث عن هوية لمصر أو عن فن لمصر أن يبحث عنه خارج نطاق الطبقة المتوسطة بكل الأشكال التي أخذتها سابقا وحتى الآن.

الآن وهنا، أرجو أن يكون كلام عم علاء ردا مبدئيا على من يظن أنني محبها، مع إعرافي بأنني أشعر بذنب أكبر لأنني انتقلت من هذه الطبقة بحكم النجاح المهني والمادي الذي تحقق - وبالسخرية الأقدار - بسبب تعبيري عن هذه الطبقة، وربما كان هذا الإحساس كما قلت قبلا هو الذي دفعني لكتابة مشروع السكان الأصليين لمصر لأروي فيه ماشهدته وعشته عن هؤلاء البشر الذين لا يكثر بهم أحد، البشر الذين يجمعون بين كل متناقضات الدنيا ويعيشون على أمل مصير أفضل في الآخرة، البشر الذين فرحنا كثيرا لأنهم لم يعودوا يقدررون على الذهاب إلى الإستاذ فيجرحوا مشاعرنا ويخدشوا حيائنا، البشر الذين نتناسى أنهم لو لم يصيروا الشغل الشاغل لكل منا فقل على هذه البلاد يارحمن يارحيم.

يارحمن يارحيم.

فرختين وشوية مكرونة!

كنت أجلس على مقهى بالكيت كات أرفو جورب الوقت،
عندما شدني حديث بعض الجالسين خلفي، فرميت على الفور ودنا
لهم بحكم المهنة وبالييتي مارميت. كان أحدهم يحدث أصدقاءه زاعما ظهور حالات كثيرة
لأنفلونزا الطيور في منطقة إمبابه يحاول مسئولو مستشفى
الحميات أن يتكتموا عليها ويخفوها عن عيون الصحفيين ووسائل
الإعلام، على الفور اتهمه صديقه بالمبالغة قائلا له أن الحكومة
ليس لها مصلحة في إنكار وجود أنفلونزا الطيور لأنها ليست
مسئولة عنه بدليل أنه ظهر في أكثر دول العالم تقديما، أصدر
صديق ثالث صوتا غير مستحب ردا على صديقه العقلاني ثم قال
له أن حكومتنا - وصفها بلفظ خادش لحياء الحكومة - دونا عن
كل حكومات الأرض هي السبب في كل البلاوي التي أصابتنا
وتصيبنا، ففي كل بلاد الدنيا يصاب الإنسان بأنفلونزا الطيور لأن
ربنا كاتبها له، إلا في مصر يصاب المواطن بأنفلونزا الطيور
بسبب الفقر الذي كتبته عليه الحكومة المباركة، هممت أن
أسأله توضيحا لوجهة نظره لكي لا يكون مقاله مجرد نغفات
مصدور حاقدا، لكنه كفاني مؤونة ذلك فاندفع بحكي - والعهدة

عليه هو ومن أيده في تلك الجلسة - كيف أن عددا من أصحاب مزارع الدواجن في محافظات مختلفة قاموا بإخفاء آلاف من الدجاجات المصابة بالأنفلونزا بعيدا عن أعين جهات الضبط أو بعد أن قام والله أعلم بتحلية أعينها لكي لا ترى الرشح ينساب من مناقير الفراخ، ثم تم تهريب هذه الفراخ بين المحافظات بالمخالفة لكل القرارات الوزارية خاصة وقد بات المواطن للمواطن كالبنيان المرصوص يرشي بعضه بعضا، وعندما وصلت الفراخ الداخل عليها دور البرد إلى الأحياء الفقيرة تم بيع الفرخة منها بأسعار تتراوح بين جنبيين وثلاث جنبيات فتخاطفتها أيدي الفقراء الذين لطالما وقفت عليهم الفرخة المعضمة السليمة بعشرة واثنا عشر جنيه، قال أحد الجالسين حائفا بالله أن الموضوع تحول إلى سبوبة مضمونة الريح طيلة الأسابيع الماضية خاصة أن البعض كان يشتري كمية من الفراخ أم اثنين جنيه الفرخة وبييعها في أحياء شعبية بمسعر ستة جنيه للفرخة، وعلى عينك ياتاجر وسلامات بأجهزة رقابية والعواف ياصحة المواطن محدود الدخل الذي تضعه الدولة نصب أعينها بفتح النون طبعاً.

بالطبع كان الغلبة يضحكون على أنفسهم وهم يشترون الفراخ المشبوهة بدعوى أن الحكومة ذات نفسها قالت لهم أن يأكلوا الفراخ هنيئا مريئا طالما تم طهيها أو غليها في درجة حرارة سبعين مئوية، إذن فلنشتري الفراخ ونهريها سوا وندلق الشورية ونغسل أيدينا قبل الغلي وبعده، وعلى رأي السيد المعارض طلعت السادات نسمي وناكل، خاصة وأن الذي جعلنا

قبل ذلك نأكل الطيور الجارحة والطيور الفاسدة والطيور المهاجرة وحماسة السلام وطيور الظلام وطيور الوروار سيعيننا على أكل طيور عندها شوية رشح. لكن المأساة في أن المتاجرين بالفراخ المشبوهة كانوا يبيعونها حية غير متحملين مسؤولية ذبحها تاركين ذلك للناس كل على مسؤوليته، والله أعلم هل راعى أولئك الذين ذبحوا الإشرطاطات الصحية أم لا، هذا إذا كانوا قد راعوا في حياتهم البائسة التي يمشون فيها بالزق أي اشتراطات من أي نوع، لذلك ولذلك كله لم يستبعد جميع الحاضرين على المقهى وأنا معهم بتبعية رمي الودان أن يكون مذكره صديقهم عن تزايد حالات المرض في عدد من الأحياء الشعبية صحيحا، قد يكون مأسافه عن محاولة التعتميم على حالات المرض أمرا حقيقيا وقد يكون من بنات أفكاره، لكنك لايمكن أن تعزوه إلى توظيف لخيال خصب أو موقف عدائني من الحكومة الشفافة أو رغبة في الإرجاف في الأرض عمال على بطل، بقدر مايمكن أن تعزوه إلى إيمانهم بأن " اللي اتلسع من الريادة ينفخ في الشفافية".

عن نفسي سأصدق الحكومة إذا أقسمت أنها لن تكتم حالة إصابة بشرية مهما حدث، لأنه لم يعد شئ يستخبا، لكنني أصدق أيضا أن الناس أكلت فراخا فاسدة، لاشك عندي في ذلك، حكى لي سائق أحد أصدقائي حكاية مريرة أبكتني وأبكت من سمعها من الذين يعرفون فيه الصدق والأمانة وطيبة القلب، كان صاحبنا المواطن المبتلئ بالعيش في أزهى عصور الإنجازات قد شاهد وهو عائد إلى بيته في الحي الفقير الذي يسكن فيه عربية نقل تباع

حلما لم يكتب له أن يتحقق، فجأة بكت ابنته وقالت له "ربنا هيحاسبنا عشان بنبظر بالنعمة وبنرمي الفراخ في الزبالة وفي ناس مش لاقيينها"، أخذ الجميع بما فيهم زوجته يؤيدونها ويؤكدون حرصهم على أكل الفراخ ليس حبا لها ولكن خوفا من عذاب الله، شعر صديقنا أن الله قد يعذبه ليس لأنه رمى الفراخ في الزبالة بل لأنه كسر بخاطر أولاده، فقرر أن يخرج الفرختين من حيث استقرتا، قامت الأم بإعادة طهيمهما حتى اتبرا لحمهما وأصبحتا بلغة المطاعم الراقية " فيري ويل دون" حرصا على قتل الفيروسات الكامنة، خرجت الصينية موهوجة من الفرن إلى الطبلية، تحلق الجميع حولها وقرأوا الفاتحة وآية الكرسي والمعوذتين ودعت الإبنة الكبرى بدعاء حفظته في المدرسة بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، وأكل الجميع الفرختين فلم يغادرا منهما نسيرة أو زلمة، وبعد أن حبسوا بالشاي ناموا ليلتها سعداء لأن الله لن يعذبهم على بطرهم بنعمته. وأنا يقيني بالله أنه لن يعذبهم أبدا فرحمته موفورة بالغلابة والمساكين لكن يقيني أن عذابه جد واقع على الذين أكلوا هذه البلاد "ويل دان".

فراخا بسعر خمسة جنيه للفرخة، تذكر أن أولاده لم يذوقوا الزفر منذ مدة، ليس لموقف من الزفر، بل لأنهم ينكاسلون عن الذهاب إلى مترو أو ألفا ماركت لشراء اللحمة الفريش، في لحظة تجلي قرر أن يشتري فرختين ويخلي العيال تاكل، عاد إلى أم العيال التي كتمت الزغرودة بالعافية خوفا من حسد أم حسين ساكنة الشقة "الملازقة" فقامت في صمت بعمل الفراخ صينية عقبال أمالك بالبطيخ والطماطم والقلل الأخضر وسائر البهارات، تغاضى الجميع عن أي ألوان ظاهرة في الفراخ أثناء ذبحها وتقطيعها مستحرمين السؤال عنها لكي لا تبتد لهم فتسوءهم، عملت الأم مكرونة معتبرة وسلطة مية مية، وجلس الجميع ينتظرون طلوع الصينية من ثنيات الفرن، كان ثمة صراع شرس يدور في خاطر الأب وهو يرى أولاده يتندرون ويضحكون بانتظار إلتهام الفراخ، أخذ يتساءل ما الذي يمكن أن يحدث لو أكل أولاده الفراخ وكان بها شئ ضار، قرر حسم الصراع قبل أن تستوي الفرختان، فانقض عليهما ليرميها في صفيحة الزبالة، طالبا من أولاده أن يقنعوا بالمكرونة والسلطة، فلاز الا مضمونين حتى الآن، بعد بكاء هذا وصخب ذاك وقلم على وش تلك، رضي الجميع بالأمر الواقع، تحلقوا حول الطبلية في المطبخ، ليس لأنهم لا يحبون الأكل في أودة السفارة بل لأن الشقة أودتين بمضارهم - فهم لم يتسلموا المنافع مع الشقة - .. أخذ صديقنا يصف وهو يمنع نفسه من البكاء كيف رأى أولاده يأكلون المكرونة والسلطة وأعينهم متعلقة بصفيحة الزبالة حيث تستقر الفرختان اللتين كانتا

وإنت طيب ياسيدي!

صديقي اللبناني الذي جاء هذا العام ليقتضي شهر رمضان في مصر بعد أن سمع كثيرا عن خصوصية شهر رمضان في مصر، غضب مني بشدة لأنه قال لي "كل سنة وانت طيب" فرددت عليه بشكل لاإرادي "ربنا يسهل لك".

حاولت أن أقنعه أنني كنت أمزح لكنه لم يقتنع مدعيا أن وجهي كان جادا وأنا أرد عليه بذلك الرد المهين. اضطررت لأن أشرح له موقفي دون أن أسيئ إلى سمعة مصر في نفس الوقت، وأعتقد أنني لم أوفق في ذلك. فلم يكن من اللائق أن أشرح للرجل ماسي شاهده بنفسه بمجرد نزوله إلى الشارع، على الأقل ماتجيش مني. أعتقد أنك عزيزي القارئ تفهم موقفي جيدا إن لم تكن قد تعرضت له، بعد أن دخلت جملة (كل سنة وانت طيب) في عداد الجمل سيئة السمعة بفضل الحكومة المباركة التي تحول التسول في عهدنا إلى الصناعة القومية الأكثر انتشارا وربحا في مصر، بل الأدهى أنه صار بمباركة الدولة وبتنظيمها وعلى عينها وقلبهازي العسل.

وقبل أن يتقاذز أحد من أنصار حزب (مصريتنا وطنيتنا حماها الله) ليتهمني بالإساءة إلى سمعة مصر أو بأني ثري حاقد

أعماه ثراؤه عن التعاطف مع الناس، أتمنى أن لا تتاح له أو لكم الفرصة لكي تذهبوا قبل الإفطار إلى أحد شوارع المهندسين أو الدقي أو المعادي أو مصر الجديدة أو الزمالك فتشاهدوا ذلك الجيش الجرار من عمال النظافة الذين لا ينصفون شيئا سوى جيوب المارة، يقف الواحد منهم مرتديا اليونيفورم المتسخ ممسكا بالمقشة وحاملا في يده كيس نايلون، لا يفعل شيئا سوى إلقاء التهينات الطريبات على الركاب والمترجلين، يتقرس في ملامح الزبون الذي يستحق أن يلقي عليه تهنتته بشهر رمضان أو بأي عيد من الأعياد الدينية أو الوطنية أو حتى تهنتته في المطلق بدون حاجة لأي مناسبة لعل اليوم يكون بالصدفة عيد ميلاده، أو ربما لأنه مصري يعيش في عهد الرئيس مبارك الذي جعل أيامنا كلها أعيادا. وربما لو كنت حديث عهد بطقس التهنة هذا لرددتها بأفضل منها ظنا منك أن حالة من السمو الروحي قد عمت أفراد الشعب غنيهم وفقيرهم فأدركوا خطأ ما كانوا عليه من جفاء في السلوك وتقطع في الصلوات. وعندها ستجتاز التصفيات الأولى وتدخل مع المهني إلى المرحلة الثانية التي تتمثل بوقوفه أمامك أو إلى جوار شباك سيارتك مصدرا جتته وإبتسامته لك مكررا التهنة ومائلا نحوك ميل من ينتظر ما هو أكثر من رد التهنة بأحسن منها. عندها إما أن ترق لحاله فتعطيها مما أعطاك الله، وإما أن تدرك أنك كنت أمام طقس مقنع من طقوس التسول فتصبر خذك له معرضا عنه وأنت تعجب كيف يلجأ للتسول من كان مثله غالبا صحيح البدن به قوة تكفي لحرث حقل كامل بمفرده أو أحيانا به

ضعف نابع من سوء التغذية يعاني منه الملايين في مصر لكنه ليس منبرا للتسول وأحيانا به قوة يتصنع لها ضعفا يرسمه على وجهه بجدارة تليق بممثل تلفزيوني عتيذ. لكن إعراضك هذا لن يمنعه عن مطاردتك ممعا في التذال فيظهر لمن لا يعرف حقيقة الأمر أنك من الذين قست قلوبهم فهي كالحجارة، بل وربما حدثتك نفسك لائمة لك كيف تستكثر على من هو أفقر منك بضع جنيهات يقمن صلبه حتى لو كان صلبه قائما أمامك يخزي العين، المهم أن تعطى أو تمنع من غير أن تحدثك نفسك بتغيير المنكر الذي يرنكبه ذلك الشحط وزملاؤه في حق بلادهم وحق أنفسهم، لأنك لو فكرت أن تفعل ذلك ولو حتى بتوجيه نظرة استنكار ساخطة إليه لوجدت نظرة المسكنة قد اختفت من عينيه وحلت مكانها نظرة شر تكشف عن قدرة على الفكك بك لو سحيت وعملت فيها حامي سمعة مصر، أو فكرت أن تلقي عليه درسا في الأخلاق تنهيه فيه بأنه شذ عن أعراف الشخصية المصرية التي تقبل العمى ولا تقبل مد اليد، وأنه يمكن له أن يبحث عن أي شغلانة شريفة حتى لو كان الوطن من حولها مليئا بالكاسيين بغير ما شرف أو شغل. وكان فساد حال البلاد ميرر لكي يفقد المواطن المصري آخر ماتبقى لديه من شرف كان يفخر بأنه ماحيلتوش غيره.

كان المؤلف حتى سنوات قليلة مضت أن يتجمع عمال النظافة حول من يرغب من المحسنين في توزيع حسنة قليلة أو كثيرة، كما كان من المؤلف أن يقوم أصحاب الدكاكين والمحلات والبسوت بإعطاء مبلغ رمزي شهري للعمال الذين يقومون

بتتضيف الشارع، ولم يكن على ذلك أي غبار، بل على العكس كان دليلا على قوة التكافل الإجتماعي بين المصريين، لكن ما يحدث الآن لاعلاقة له بالتكافل الإجتماعي من قريب أو من بعيد بل له علاقة بتربية جيش جرار من المسؤولين الذين يرتدون زيا رسميا، جيش سيدمن الحصول على المال السهل الذي لو منع عنه لكان جاهزا للفتك من أجل الحصول عليه لكي لا يعود ثانية لبذل مجهود من أجل الرزق.

الخطير وهو ما علمته من أحد هؤلاء العمال الذين لاحظت أنه يقف ليتسول بينما لا يملك مقشة أساسا، أعطيته عشرة جنيهات مرة واحدة وقبل أن يقول لي كل سنة وانت طيب عشر مرات، قلت له أنني أقوم بعمل فيلم سينمائي بطله عامل نضافة وأريد أن أعرف منه الصعوبات التي تواجهه في عمله لكي أقوم بتخليد مهنته على الشاشة، ضحك وسألني عن صدر أحد الممثلات هل هو طبيعي ولا معمول زي مايقولوا، فاستغربت سعة مداركه، وقلت له "مش هأجاوبك إلا لما تحكي لي ليه مش شايل مقشة"، عندها أفضى به التباس لإذاعة سره الخطير وهو أنه ليس عامل نضافة أساسا، بل إنه يقوم بتأجير البدلة من صاحبها الذي يعمل في هيئة نظافة القاهرة مقابل عشرين جنيها في اليوم يأخذها صاحب البدلة دون أن يطمع فيما يناله المؤجر حتى لو جمع آلاف الجنيهات، ولكي يبرهن لي على أن لديه ضميرا قال لي أنه عندما تزيد غلته أحيانا ويبارك الله له في الرزق يقوم بزيادة صاحب البدلة قليلا عشان ربنا يبارك له فيها، وقال لي أن صاحب البدلة

غليان ومعدور لأن "الحكومة موظفاه بمية جنية بس ولما هو وزماليه قالوا للحكومة إن مية جنية شوية قالوا لهم انتو وشطارتكو.. اللي تاخذوه من الناس حلال عليكم" - أقسم بالله أنني أنقل هذا الكلام حرفيا دون تدخل مني - . سأنته هل يفعل ذلك الكثير من زملائه فقال لي "بص لما تلاقى حد ماشي لابس البدلة دي - لاحظ أنه يسميها البدلة - وماسك في إيدته كيس إعرف إنه زي حالتي، عشان الكيس بيبقى جواه هدومه اللي بيبلسها أول ما يرجع البدلة ويحاسب صاحبها"، حاولت السيطرة على دهشتي خاصة بعد أن فهمت سر الكيس الذي كان يثير دهشتي دائما. أخرجني سؤاله من ذهولي "هه قول باباشا صدرها طبيعي ولا معمول"، قلت له "لا صدرها ده زي البدلة بتاعتك.. مأجراه".

أخيرا عزيزي القارئ كنت سأقول لك كل سنة وأنت طيب ومبارك، لكني لأريد أن ترد علي ردا لإراديا فنخسر بعض.

مما شكّ فيه!

www.alkottob.com

مما شك فيه أن يكون انتشار رائحة البول المشهورة شعبيا
باسم "الصنّان" في الكثير من شوارع مدن بلادنا والتي تعد للأسف
من أفقر شوارع العالم أمرا مرتبطا بالإنفجار السكاني وأخلاقيات
الزحام كما يدعي دائما أهل الحكم ومن لف لفهم من الكتاب
والباحثين، بدليل أن الصين أم المنفجرين سكانيا في العالم لا يوجد
بها ما يوجد في بلادنا من مناظر مؤسفة لاتسر الناظرين.
في الأسبوع الماضي قابلت صحفيا صينيا جاء في مهمة
صحفية للقاهرة، ولمد حبل الود سألته عن إنطباعه عن القاهرة
التي اتضح أنه مقيم فيها منذ عدة أسابيع، لم يكن لدى الرجل
ما يجبره على النفاق أو المجاملة، قالها بدون مواربة "كان يمكن
لبلدكم أن تكون جميلة لكني لاحظت أن عمال النظافة لا يريدون
تنظيف الشوارع، هل هم في حالة إضراب؟" قلت له " لا هم في
حالة إستقطاع"، لم يفهم قصدي وأضاف أنه لاحظ أنهم يطبلون
نقودا من المارة بكثرة، قلت له ساخرا وأنا لأدري كيف أقول له
الحقيقة "هؤلاء ليسوا عمال نظافة بل هم مسئولون قررت الحكومة
أن تقوم بعمل يونيفورم رسمي لهم لكي يتمكن المواطن والسائح
من تحديدهم"، قال لي " لكن هناك آخرين يتسولون بدون أن

يرتدوا اليونيفورم"، قالت له " هؤلاء لم يحصلوا على تراخيص بالتسول وهو ما يعرضهم لعقوبات قاسية"، هز رأسه كأنه معجب بالفكرة ثم قال " لكن لا بد أن تبحثوا عن أحد ينظف القاهرة خصوصا أن كثيرا من الشوارع الجانبية التي دخلتها تقوح منها رائحة البول"، لم أعرف كيف أرد، فكرت أن أمضي في سحريتي فأقول له أن تلك عادة مصرية قديمة لزيادة الارتباط بالأرض، وأن الأبحاث أثبتت أن تبولنا في أرضنا يعني تزيقنا بالأملاح فيزيد من تماسكها ويحمينا شر التجريف والإنهيارات الأرضية الشائعة في الصين، لكنني اتخفت من رائحة الشوارع التي ذكرني بها كلامه فتمنيت له إقامة طيبة في القاهرة ونصحته بأن يركز خلال الفترة الباقية مع الشوارع الرئيسية.

تركت أختنا الصيني ذا الأنف الحساس وخواطر كثيرة تتصارع في ذهني، أهمها أن من السهل بعد محادثة كهذه أن تلقي باللوم على الساكن الأصلي لمصر الذي يجيب لبده الكلام بإيمانه الطرطرة على أرضها، لكن معرفتك الوثيقة بالسكان الأصليين لمصر لا يجب أن توقعك في حكم خاطئ كهذا، فأنت تعلم أن الناس في بلادنا يفعلون ذلك لأنهم لم يجدوا من يحترم آدميتهم وينشئ لهم مراحيض عامة في كل مكان، كما يوجد في كل بلاد الدنيا المتحضرة، فلا يمكن أن أتصور أن هناك مواطنا مهما بلغ فقره أو ازدادت وطأته سيقف ليبتول تحت كوبري بينما يمكن أن يكون إلى جواره مرحاض عام نظيف ومتاح له ولغيره مجانا أو بسعر رمزي كما هو الحال في كل بلاد الدنيا المتحضرة.

ببساطة هذا المواطن الذي تلقي على عاتقه مسئولية رائحة شوارعنا الكريهة، لم يفكر أحد من حكام مصر في كيف سيقضي حاجته فانشغلوا بالتسابق لإفتتاح الكباري والأنفاق دون تزويدها بأهم المرافق الصحية، ولذلك فقد قرر أن يحتفل معهم بتلك الكباري والأنفاق على طريفته ليقوم بتحويلها إلى مراحيض عامة تعيق بأحط روائح الصنان.

مما شك فيه يقوم أن المواطن المصري يوسخ بلاده لأنه يشعر بالإستبداد حكامها وفسادهم، فثمة بلاد عربية كثيرة تحفل بالإستبداد والفساد، وشوارعها من أنظف ما يمكن ولا يمكن أن تجد فيها أحدا يتبول في الشارع، سوريا على سبيل المثال أو حتى الصين نفسها، فوطأة الإستبداد في تلك الدول جعلت للدولة سلطانا يخشاه من يريد مخالفة القانون أو تشويهه، العكس تماما ستجده في الدول المتحضرة حيث يشعر المواطن بروح المسئولية عن بلاد هو شريك في صنع تقدمها وهي لاتحرمه من خير ذلك التقدم، أما في بلادنا فقد فكت الحكومة الارتباط بينها وبين المواطن، ولذلك فهي تتركه يفعل ما يريد مقابل أن يطرمخ على فعلها بالبلاد ماتريد، لم تعد معنية بحل مشاكل المواطن لا في الأكل ولا في تصريف الأكل، وصار مطلوبا منه أن يسلك نفسه ويتصرف بمعرفته، المهم أن يحدث ذلك بعيدا عن عينها، محاولة أن تخضع عينها وتتجاهل رائحة الصنان التي تتعالى يوما بعد يوم في أرجاء الوطن.

هنا أتذكر أنني قرأت قصة للكاتب التركي الساخر مظفر

بلادهم لتصبح جنة حقيقية تحتل المركز السادس في العالم من حيث الجذب السياحي، وهو درس ينبغي أن نتعلم منه أن "صناننا" ليس قدرا مفروضا علينا، بل هو نتيجة طبيعية لسياسة ترك المواطنين يصارعون أمواج الحياة دون أن يشعروا أن هناك من هو يكثر بهم أو يأسى عليهم. ومما شك فيه أن يتغير هذا الحال المزري طالما ظل السكان الأصليون لمصر يرفعون ذلك الشعر الذي قالته لي جدتي رحمها الله وأنا ذاهب إلى الجامعة "ياابني البلد بلادهم ويعملوا مابدا لهم"، وهو شعار تجد فيه وحده تفسيراً لظاهرة عمل المواطنين مابدا لهم تحت كباري بلادهم.

أوزغو في مجموعته طاقم البانكو عنوانها "من يتبول هنا فهو حمار" كانت تعالج مشكلة يتبول المواطنين على الحوائط وكيف حاول صاحب إحدى الحوائط أن يغير ذلك بكتابة عبارة من يتبول هنا فهو حمار فأدى ذلك إلى استفزاز الناس ودفعهم لإغاضته أكثر ليس بإدمان التبول على حائطه بل وبكتابة عبارات مستفزة له وإضافة كلمة لا إلى الجملة التي كتبها لتصبح "من لا يتبول هنا فهو حمار"، قرر الرجل أن يشتكي إلى المحافظة ففوجئ بها تغرمه مائة ليرة لأنه لا يحافظ على الصحة العامة وفتح مبوله دون ترخيص، وبعد أن وجد أن الأمر لن يجدي قرر الرجل أن يقف إلى جوار الحائط ويبيع مناديل للراغبين في التبول مقابل أجر، فتمكن من القضاء على المشكلة تماما. ولأنني كنت قد قرأت قبل قصة أوزغو قصة للكاتب الكبير عزيز نيسين عن نفس الموضوع وبمعالجة قريبة جدا، فقد ظننت أنني سأرى في شوارع إستانبول وأحيائها الشعبية وتحت كباريها ما أجده في مصر تماما، لكنني لم أجد ذلك أبدا عند زيارتي لها، لماذا، ليس لأن مظفر أوزغو ومن قبله عزيز نيسين كانا يتبليان على بلادهما، بل لأن بلادهما تغيرت وصار بها حزبية سياسية إلى حد كبير، وحدثت بها تحولات إقتصادية وإجتماعية جعلت المواطن التركي يشعر أنه شريك في بناء بلده وأيقظ كل ذلك الروح القومية التي لطالما اشتهر بها الأتراك، وبرغم وجود مشاكل إقتصادية كبيرة في البلاد وعدم قضاء الحكومات المتعاقبة على البطالة والتضخم والفساد، إلا أن شيوع مناخ التغيير في البلاد انعكس على سلوك أهلها فعادت

صُعِقت المذبةعة البهاء عندما قلت لها على بلاطة أنني أكره
موائد الرحمن.

هي طلبت الإجابة صريحة وأنا كنت سأجيب بصراحة حتى
لو لم يكن هناك بلاطة.

أنا فعلا لأحب موائد الرحمن. لاتتعجل الحكم علي وتتهمني
بقسوة القلب وإنعدام الضمير وكراهية الخير لفقراء الناس. فأنا
أكره موائد الرحمن لأنني لأطيق أبدا وتحت أي ظروف وفي ظل
أي محسنات بديعية حقيقة أن يكون هناك في بلد هي في رأيي من
أغنى بلاد العالم فقراء يضطرون لإنتظار شهر رمضان من السنة
إلى السنة لكي يكون بمقدورهم شم رائحة اللحمه وهم موقنون أن
بعضا منها سينزل لهم على طبق من رز ليأكلوا حتى الإمتلاء
دون أن يكون ذهنهم مشغولا ولو للحظة بدفع الحساب أو التفكير
في الهروب من دفع الحساب بمعنى أصح. سامحوني فأنا أجد من
المخزي أن نفرح بأن لدينا مئات الآلاف من البشر لا يأكلون
الفراخ كل يوم إلا لمدة شهر واحد في العام وهم يعيشون في بلد
الطيور الأول في القارة، قلت للمذبةعة مستطردا أنني أتحدث عن
الفراخ بمعناها الحقيقي صدر وورك وجناح وليست الفراخ

طعم أكل والدته الساحر تفجر في ربقي كأنه نبع ثجاج فرقق قلبي عليه وعلى المذبة البلاء، لممت نفسي وعدت إلى التسجيل محاولاً تسنيد كبريائي على حيله بالدمدمة بعبارات من نوعية " لما إنتو مش قد الكلام الجري جيتوني ليه.. ماللي ممكن يقولوا كلام يبسطكو كثير.. عموماً لو عايزين نقلبها هجايبص وماله.. اتفضلي بأستاذة إسألني السؤال ثاني"، أخذت نفساً عميقاً لأهدأ تماماً متشجعاً بفعل نظرات الإمتنان المنبعثة من عيني صديقي والتي عكّرها دون قصد تأثير واضح منبعث من جملة " الله يرحم زمانك يا واطي" التي سمعتها تتردد في وجدانه بقوة الآن، أو إن جئت للحق منذ اتصل بي لحضور الحلقة وتحجبت بضيق الوقت. هي أعادت سؤال عن رأيي في مشهد موائد الرحمن المنتشرة في شوارع مصر وأنا انطلقت كتوك توك يطوي الفلاطياً، "الحقيقة إن العين لتدمع والقلب ليحزن وإنا على فراق رمضان محزونون لأنه سيحرمنا من مشهد موائد الرحمن الفطيع، إنتي عارفه سيادتك إني بأنزل ساعة الفطار مخصوص وأسيب بيتنا ومابه من أكل يسر الناظرين لكي أستلذ بالنظر إلى أيدي أبناء مصر المعطاءة وهي تتسابق على خطف أطباق الرز بالشعرية الذي تزينه حنة لحمه أو حنة ونص في أحسن الأحوال، ياسلام إيه العظمة دي، في بلد في الدنيا فيها الكم ده من الناس اللي ماعندهاش بيوت تفرط فيها، الله، ده شئ بجد يفرح، فعلاً مصر بخير طالما فيها كل الفقراء دول اللي بيزيدوا يوم عن يوم، أصل الفقراء ملح الأرض زي مالحننا عارقين، وأنا خايف على مصر

المبدولة لفقراء مصر من رقاب ورجلين ومناكير وماللي ذلك من فرش الفرخة التي لم يعد ينجو منها لذي فقرائنا إلا الريش بعد أن فشلت حتى الآن كل محاولات توظيفه كنوع من الحلويات أو المحاشي، وطلبت منها أن تبادر بزيارة أي سوق للفقراء في أي منطقة عشوائية لترى كيف يتهافت الناس على شراء سقط متاع الفراه فتفهم حقيقة سخطي.

كل هذا قلته للمذبة التي بدأت عيناها تنهمر في بكاء اضطرنا لوقف التسجيل حتى تتمالك نفسها، قلت لها وقد صعبت عليّ أنني أسف لأنني طسست وجهها بالحقيقة المرة، قالت لي بعد تنهيدة عميقة أنها تبكي لأن هذه الحلقة لن تداع بسبب ما أقوله وسيكون واجباً عليها أن تبحث عن ضيف جديد للتسجيل معه قبل الوقفة، نظرت إلى معد البرنامج إبن دفعتي في الكلية شزراً ثم نهضت غاضباً وأنا أبرطم بالدعاء على تلك المذبة أن تلقى يوماً مصير الدكتوراة عيلة بطلة مسلسل قضية رأي عام على يد مغتصبها سيد شكمان، لكنه ابتلع غضبي عندما وضع يده على رأسه مقلداً طريقة صديقنا الممثل أشرف مصيلحي في المسلسل وقائلاً لي " على راسي باباشا"، ضحكت من قلبي، فاستغل زميلي ضحكي ليوجه لي جملة أكثر من شتيمة حارقة خارقة تذكرني بالذي مضى دون أن يفقد أصله ويذكرني به تفصيلاً، ربما لأن منظرنا كان سيكون وحشاً جداً لو ذكرني صراحة أمام الناس أنني تعرفت على اليفتيك والنجرسكو والجمبري الجامبو في بيتهم وعلى يد المرحومة والدته.

الشرر الذي يوقد معظم النار، فجأة انتابتي موجة عارمة من الشجن بعد أن أعادني سؤالها إلى يوم رمضاني لم يكن مباركا بالنسبة لي مع أنه كان كذلك على العالم أجمع، فهمت صمتي خطئنا فقالت لي " مش لازم فكرة فيلم كامل يعني.. ممكن حتى فكرة مشهد درامي لو حبيت"، فجأة وجدتي أقول لها وأنا أغالب رغبة عارمة في البكاء "الحقيقة أنا مضطر أصارحك بإنني مش هاقدر أبدا أكتب مشهد زي ده لإنني في الحقيقة على المستوى الشخصي باكره موائد الرحمن.. أنا عارف إنها شيء عظيم ورائع ويبدل على قد إيه بلدنا في خير.. بس أنا باكرها لسبب شخصي جدا.. أصلها مرتبطة بموقف حصل معايا سنة ٩٢ يعني من يجي خمستاشر ستاشر سنة"، كادت توقف التسجيل من إرتباكها لولا أن أشار إليها صديقي بإصبعه السبابة والوسطى لكي تكمل التسجيل منتظرا حكاية حرافة تملأ فراغ الكلام الذي قلته أنفا والذي يعلم خبرته أنه لن يذاع أبدا.

" أيامها كنت ساكن في غرفة حقيرة في شقة أحقر في شارع ليس حقيرا متفرع من شارع المحطة في الجزيرة.. كنت طالبا في سنة ثانية من كلية إعلام يكره شهر السنين الدراسية كلها لكنه يخص شهر رمضان والعياد بالله بكرهية عميقة لأن جلوسه وحيدا فقيرا غريبا ساعة الإفطار كان يهشم قلبه تهشما.. كان ساكن معايا شيف سندوتشات من الفيوم بس كان المحظوظ بيفطر في المطعم اللي بيشتغل فيه في وسط البلد وساعات يسافر لبلدهم القريبة من الجزيرة.. أنا بقى ماكنتش أقدر أسافر اسكندرية غير

عشان كده بقى ملحها زيادة وده ممكن يرفع لها الضغط لاسمح الله.. طبعا إحنا عارفين الفقراء موجودين في كل العالم زي ما إحنا عارفين وده شئ مايعيناش، حتى البلاد الصناعية الكبرى فيها متشردين في الشوارع وفقراء مدقعين، لكن هناك لإن في صقيع يسود القلوب الحكومة بتديهم إعانة فقر، إنما حكومتنا بتديهم على قفاهم عشان مايدمنوش المعونة، بس قلبها بيرق عليهم في رمضان فتبسيبهم يطحنوا بعض بالبواني واللكميات عشان يلحقوا معونات المحسنين.. ويتوفر للمحسنين الكرام قطع الأرض اللازمة لرص الكراسي والترابيزات والغرف في الأطباق والكوبايات.. دون أن تفرض على هؤلاء الفقراء رسوم ولا غرامات ولا ضرائب لأنهم على عكس المفترض في مجتمع لم يعد اشتراكيا بعد تعديل الدستور يأكلون بدون أي مجهود".

حال المذبة أثناء كلامي كان يصعب على الكافر، فقد كانت مضطرة للتفكير ألف مرة بين نزع الإبتسامة البلهاء من على وجهها واستبدالها بتقطيبة عدم فهم، لكن زغرات زميلي المعد لها من وراء الكاميرا وإشارته بإصبعه إشارة كادت تكون بذينة بأن تنتقل إلى سؤال آخر، نظرت إلى الورقة مرتبكة ثم قالت لي " عايزه أسألك - شالت كلمة حضرتك من ساعة ماأعدنا التسجيل.. عادي - مشهد موائد الرحمن الجميل اللي بيفكرنا بإن الدنيا لسه بخير مش ممكن يوحي لك كسيناريسيت بفكرة فيلم؟"، كدت للحظات أوصل نهجي التهجيسي حتى يعدي البرنامج على خير، لكن سؤالها الأبله كان وسبحان العاطي الوهاب، كمستصغر

يومين في الأسبوع.. وميزانية السفر كانت بتبهدل الدنيا فكان الامر بينتهي بيا.. متبيل على عيني في الأودة الحقيرة في الشقة الأحقر.. مجبرا بحكم قانون ألا يزيد مأسرفه في اليوم عن أربعة جنيهات على أن يكون مينيو الأكل متنوعا ما بين الفول والبيض والطعمية والزبادي وشوية بطاطس ومخلل ويتجان مع تغيير البيض يومين في الأسبوع بعلبتين تونة مفتنة لأن علية التونة القطعة الواحدة أعلى.. تخيلي كانت الأربعة جنيهات تحيب كل ده ساعتها.. كنت باحاول أدلع نفسي بإضافة القوطة والبصل والخضرة إلى الفول عشان يبقى فول بالخلطة وإلى البيض عشان يبقى شكشوكة.. كان كل ده بيخلي الأكل محتمل ولذيذ خصوصا مع برامج إذاعتي البرنامج العام والشرق الأوسط اللي كانت في إعتقادي هي اللي بتبلع الأكل وساعات بتخليه ويتعمل مع كوباية الشاي الكشري العظيمة تفاعل كيميائي يحدث نفس مفعول الخارج سوا من مطعم أبو شقرة فرع مصطفى محمود.. هتقولي لي وإيه اللي يخليك تقطر لوحك أساسا.. بصراحة عمري ماكنت باقتنع بفكرة إني أروح موائد الرحمن عشان أكل أكل سخن.. إذا كنت بارفض عزومات صحابي أساسا عشان عندي عقدة فقر بتخليني أحسن إن الكون كله حاسس بفقري وإياه عايز يققش عليا أو يهين كرامتي اللي ما حيلتتش غيرها.. في اليوم اللي باحكي لك عنه أنبوبة البوتاجاز خلصت فجأة.. قعدت مذلول ساعتين في مايفترض أنه بلكونة.. إن أي حد يعدي من بتوع الأنابيب اللي بيصموني كل يوم برزعههم وخبطهم.. مافيش فائدة.. فجأة كبس

عليا الفطار.. إستحالة أكل الأكل ساقع كده.. بدأت أحاول منع نفسي من البكا.. فجأة خدت قرار ثوري إني النهارده مش هاكل لوحدي واضطر أكل أكل ساقع.. أنا النهارده هاكل أكل سخن على مائدة رحمن واللي يحصل يحصل.. العشر دقائق اللي كانت فاضلة كانت يادوبك تكفي إني آخذ الشوارع فزح لغاية ما أوصل جامع الجمعية الشرعية اللي في ميدان الجزيرة.. لإني ياما سمعت من أصدقاء رفيق سكني الفيومي سمع خير عن أكل مائدة الرحمن الفاخرة التي تقيهما الجمعية.. زائد إن ميزتها إنها بتتعمل جوه الجامع.. يعني لن أكون مضطرا لمكابدة مشاعر أحمد زكي في أنا لا أكذب ولكني أتجمل أو تمثل آلام سعاد حسني في خلي بالك من زوزو لو مر أحد زملائي وشاهدني أجلس مع العامة والدهماء في مائدة رحمن.. ألا يكفي ما أكابده من تعليقات على مظهري الرث وملابسي المبهذلة غير المتناسقة ورائحتي التي تفوح أحيانا بفعل إنقطاع المياه المتكرر.. قبل أذان المغرب بدقائق وصلت وإلى جامع الجمعية الشرعية الكبير دخلت.. اخترت موقعا استراتيجيا قريبا من الباب الذي علقت عليه لافتة بخط أنيق كتب عليها (مائدة الرحمن ترحب بضيوف الرحمن الكرام)، ياه ياربي.. قد إيه هزنتي فكرة إني النهارده من ضيوف الرحمن.. كل اللي كان جوايا من مشاعر تتأرجح بين الإهانة والحرص راح وحسيت بدفء فطبع وقعدت الدقائق الفاضلة لحد معاد إنطلاق مدفع الإفطار استعجبي نفسي وأتهمها بأنها معقدة ومليانة كلاكيع.. وإنها حرمتني من خيرات الرحمن اللي أنعم بيها على ضيوفه..

الحقيقة روائح الأكل الخلابه الفتانه التي كانت مختلطه بزفر حقيقي من الذي افتقدته منذ سنوات.. خللتي أفسى على نفسي أكثر وأكثر لدرجة أنني بدأت أستمها بصوت عال.. لكنني توقفت لما حسيت من نظرات بعض الإخوة المشايخ اللي جنبني إنهم ممكن يفتكروني ملبوس وساعتها ممكن يطرحوني أرضا.. ويتف أدهم في ودني ويصرخ فيها لغايه مايققع طبله ودني "أخرج يا عدو الله" .. سألت الله لنفسي الهداية وأن يجعلني أدرك حقا لأصدقا أن الفقر ليس عيبا خصوصا لو كان من أجل تحقيق هدف وغايه.. فجأة اختفى كل ما بي من ذلة وانكسار وأصبحت أشعر كأني عفاف شعيب تقف بكل صلابه الدنيا في مواجهة يوسف شعبان في الشهيد والدموع مسلسل الفقراء الأكثر تفضيلا في تاريخ مصر.. أدركني أذان المغرب فحمدت الله أن قرب البعيد.. دار علينا غلمان غير مخلدون من أبناء الجمعيه الشرعيه بتمرات يقمن صلبنا وأكواب ميه وتمر هندي من النوع الفاخر.. كنت حاسس إنني باشرب من نهر من أنهار الجنة من شدة عطشي المادي والروحي في نفس الوقت.. كنت أظن أن الصلاة ستقام على الفور بعد إنتهاء الأذان لكي يتمكن الجميع من المسارعة إلى الإفطار.. لكنني اكتشفت أن الجميع قام لأداء صلاة سنة المغرب.. بيني وبينك كنت هفتان جدا.. فكرت إنني أريح شويه وأطلب كوباية تمر هندي ثانية.. لكن خبطة تلقيتها في رجلي من رجل رجل ملتحي سبقتي للقيام ألغت الفكرة.. قاومت بصلابه مقاتل من حزب الله تأثير قصف الروائح المنبعثة من مؤخره المسجد وأنهيت

ركعتي السنة وأنا أحاول ألا تزهد روحى الجائعه ثقتي في حرص أهل الجمعيه على السنة المطهرة.. أعطاني أملا أن صلاة المغرب هتخلص قوام قوام كما أوصى سيدنا النبي في حديثه إذا أم أحدكم الناس فليخفف فإن منهم الضعيف والمريض وذا الحاجة، لكنني لم أكن أعلم أن إمام الجامع يومها لم يكن قد سمع على ما يبدو بهذا الحديث أو ربما قال له أحد إنه حديث ضعيف، ولذلك فقد صلى بنا صلاة مودع حتى كدنا نودع فعلا من فرط الجوع، الحقيقة أنا صليت قبل كده وأنا بأحاول أقاوم النوم، واصلت قبل كده وأنا بأحاول أقاوم الإستماع إلى كاسيت يبذيع أغاني بأحبها وأنا بأصلي، واصلت قبل كده وأنا بأغض البصر وإحنا بأصلي في الشارع في إسكندرية، لكن كانت أول مرة أصلي وأنا بأحاول أغض الشم، لدرجة أنني كنت في الركعة الأولى بأصلي وأنا بأسد مناخيري عشان ماأشمش روائح الأكل، لولا إنني رفعت أصابعي عن أنفي بعد زغدة من جاري الذي ربما تخيل أنني غير معجب برائحة المسك التي "دهن" بها أيدي قسرا قبل الصلاة، لأعتقد أبدا إن ربنا قبل صلاتي في ذلك اليوم الكئيب إنني بجد كنت عايز أشق الصفوف وأنقض على الإمام وأنهال عليه ضربا لأنه بجد فاهم الإسلام غلط.. الإسلام دين الرحمة ومش من الرحمة بتاتا إنك تذل كذا مائة جائع من ضيوف الرحمن يقفون خلفك بعد أن أكلوا لحم بطونهم من شدة الجوع.. مش عايز أقول كل الأفكار اللي كانت في خيالي وقتها عشان ماحدث يفهمني غلط.. مع إن ربنا أرحم بي من عبده وعارف بحالي وقتها.. المهم وبعد طول

الذي لا يكفي لدخول ربع المتدافعين عليه بأي حال من الأحوال.. فجأة وبدون أي مقدمات طلع علينا من ثنيات المسجد وجنابته عشرة من الشحوطة.. لولا ملابسهم الناصعة البياض لظننتهم عساكر أمن مركزي مخضرمين.. في يد كل منهم عصاية مكنسة لاتخطئ غلظتها العين.. وابتدوا ينهالوا ضربا علينا نحن ضيوف الرحمن.. ربك والحق أنا للحظات تجمدت مش من الرعب والهلع.. لا من عدم الفهم.. سألت نفسي.. هو أنا فين بالضبط.. هل أنا في مائدة فيفي عبده اللي كانت سمعتها وقتها إنها مائدة فيها سيكيوريتي.. ولا أنا واقف على باب سينما يوم العيد وباتضرب بإحزمة العساكر.. ولا أنا في مظاهرة بتهتف ياحرية فينك وفينك أمن الدولة بيننا وبينك.. فوقني على حقيقة إني في جامع.. في بيت من بيوت الله.. صوت الإمام في الميكروفون وهو بيهتف ياإخواني النظام لو سمحتم عشان كده مش هينفع.. اتقوا الله في أنفسكم.. كنت فاهم إن الضرب هيقف بعد طلبه بتقوى الله لكن اتضح أنه زاد شراسة لأنه طلع بيطلب التقوى من الجعانيين اللي بيضربوا مش من اللي بيضربوا.. بصيت في عينين اللي حواليا شفت تعاسة ويوس وإستسلام مريز خلوني أحس إني على كل ماأظن أنني فيه أعتبر محمد الفايذ بعد خمس دقائق من تسجيله محلات هارودز بإسمه في شهر لندن العقاري.. فجأة لقيتني بأعيط عياط هستيري.. عياط عمري ماغيطه في حياتي لا قبل ولا بعد.. كرهت العلم والأحلام والطموح والمجد المتخيل.. لو كنت قعدت ثواني أكثر.. كنت كرهت نفسي كمان.. وأنا عمري

انتظار وبعد بلاد تشيلنا وبلاد تحطنا.. وصلنا أخيرا إلى التشهد الذي أعتقد أن الإمام قرأه سبع مرات.. ده التفسير الوحيد للمدة الطويلة اللي استغرقها وهو بيقرا.. لدرجة إن صباحي اتلوح من كثر التلويح بيه أثناء التشهد.. المهم وصلنا إلى لحظة الحقيقة وسلم الإمام.. لم يكد يكمل السلام عليكم الثانية حتى كنت وأغلب من في المسجد قد وثبنا من أماكننا كنمور أفريقية جائعة تتدافع بإتجاه باب مائدة مضيفنا الذي هو بالتأكيد أرحم بنا من هذا الإمام الجائر.. فجأة وجدت يدا تمسك بي بغلظة لتعيدني إلى مكاني.. وهو أمر مش سهل لو أدركت أنني وقتها كنت أتخن من دلوقتي مرتين.. كانت تلك اليد تخصص جاري الزاغد لي مرتين.. مرة برجله لكسي أصلي السنة ومرة بيده لكي أرفع يدي من على مناخيري.. قال لي والشرر يطق من عينيه "بأخي اتق الله واختم صلاتك لكي لاتفقد الأجر"، قلت له باستغراب "مانا مصلي معاك ثلاث ركعات وخاتم الصلاة.. مش المغرب ثلاث ركعات"، تحول الشرر في عينيه إلى لهب وقال لي "إنت هتهزر في بيت الله.. مش كفاية صباغك اللي عمال تلف بيه وخايلتنا طول التشهد.. بأخي دي بدعة مستفزة مش عارف خدتها منين"، كنت أستمع إليه وأنا أرى باب مائدة ضيوف الرحمن وقد سدته الكتل البشرية حتى أصبح لا يكاد يبين من الزحام، قبلت رأسه وقلت له "أوعك لو ربنا جمعنا وصلينا جنب بعض سوا.. لو شفت صباحي بيتحرك بعد كده في التشهد اكسره ولا تثريب عليك"، ثم اندفعت جاريا لألتحم بالكتلة البشرية الزاحفة دون وعي نحو باب المائدة

ماكرهت نفسي.. ابتديت أزق بايديا زي المجنون في كل حنة وأنا
 باصرخ صرخات هستيرية مش مفهومة يمكن لاني ماكنتش لاقى
 كلام يتقال.. ضربة عصاية نزلت على كوعي شعلت ناري أكثر
 وطلعت من جوايا طاقة مجنونة خلنتي أطيح في كل اللي حواليا..
 وأنا شايف قدامي باب الجامع من بعيد وبالحلم إني أوصل له
 بسرعة وأخرج من بيت الرحمن اللي استولى عليه البشر بغلظتهم
 وقسوتهم.. كل اللي كنت عايزه يحصل وقتها إني أرجع عيل
 صغير بيتزاحم مع إخواته على الطبلية وأمي بتوزع علينا حتت
 اللحمة المعودة سلفا.. وينشخط فينا إن كل واحد ياكل مثابه
 وبس.. لولا الملامة كنت وقفت في ميدان الجيزة اللي كان ساعتها
 فاضي قوي وموحش قوي زي قلبي، وصرخت بجنون "أنا عايز
 أروح لأمي.. روحوني لأمي أبوس إيديكو".. ساعتها حسيت إن
 كل الحاجات اللي كنت فاكرك نفسي متأكد منها ساعتها شكيت
 فيها.. ساعتها بس فهمت ليه سيدنا علي كان يقول لو كان الفقر
 رجلا لقتلته.. أنا بيني وبينك كنت عملت فيه حاجة ألعن من
 القتل.. مش هينفع أقولها.. يمكن الشيء الوحيد اللي خرجني من
 حزني وسكت بكايا هو صوت ترزيع بتاع أنابيب على أنبويته
 جنب البيت الذي وصلت إليه بعد ساعتين من المشي هاتما على
 وجهي مع إنه زي ماقلت لايبعد أكثر من عشر دقائق عن ميدان
 الجيزة.. هو صوت ترزيع بتاع أنابيب.. كان بالنسبة لي صوت
 الأمل يعيد إلى من جديد إحساس أنني يمكن أن أعيش شعبانا
 ومحافظا بكرامتي في نفس الوقت.. ومن يومها وأنا أكره مواند

الرحمن كراهية العمى.. تفكيري ممكن الرقابة تعدي المشهد ده..
 فجأة أخذت بالي أن المذبة منهجرة في بكاء كاد يتحول إلى
 نشيج حاد، وأن التسجيل توقف على مايبدا منذ فترة دون أن أخذ
 بالي، لأن صديقي المعد كان داخل الكادر يحاول تهدئة المذبة، لم
 أفهم مالذي حدث، هل كانت حكايتي ثقيلة الوطأة عليهم إلى هذا
 الحد؟، كنت على وشك أن أبدأ في الحلفان لصديقي أنني لم أكن
 أقصد أن أنكد على أحد وأن تداعي الحديث هو الذي جعلني ذاهلا
 عن نفسي وعمما حولي، لكنني فوجئت به يقول لي مبسما إبتساما
 ظفر لم أفهمها أبدا وهو يقول " حلو قوي ياقرم بس هنضطر نعيد
 تاني عشان نحدف حنة في النص عشان الحكاية الفظيعة دي
 تتداع.. إنت إزاي عمرك ماحكيتها لنا ياأخي.. إوعى تكون مألها
 على الهوا"، فجأة علا صوت المذبة وهي تقول باكية " مش
 معقول يعني كل ده هيتعاد.. هاستحمل الكلام ده كله من تاني..
 ماكنتو توقفونا من بدري، زاغت نظراتي حائرة بين المذبة
 والمعد الذي محوته للتو من قائمة أصدقائي وإلى الأبد، ظننت أن
 ذكر إسم الجمعية الشرعية هو الذي يمكن أن يثير المتاعب
 للبرنامج، فقلت بحماس " ذبعوا الكلام ده على مسئوليتي وأنا
 مستعد إني أحلف ميت يمين إن كل اللي باحكيه ده حصل..
 وبعدين مش معنى إنه حصل في جامع تابع ليهم إنهم كلهم يبقوا
 وحشين.. إحنا ممكن نزود الجملة دي عشان مانظلمش الكل
 معانا، فوجئت بصديقي يبتسم إبتساما من لقي التايهة قائلا " حلو
 قسوي.. الله ينور عليك.. لحقتنا.. ولو إننا كنا عايزين نعيد لسبب

تاني.. عابزين نشيل الجملة اللي اتكلمت فيها عن ابو شقرة..
عشان ده يعتبر إعلان".

فى السابع من ابريل عام ٢٠٠٨ تناقلت وكالات الأنباء صوراً حزينة
التقطها مصور جريدة السبيل المستقلة لشباب من مدينة المحلة الكبرى
تعرضوا للإصابة خلال المظاهرات التي اندلعت فى المحلة يوم السادس من
ايريل الذي كانت القوى المعارضة قد دعت لإعلانه يوم إضراب عن العمل..
رأى العالم بأسره فى الصور المفزعة كيف يرقد الشباب المصاب على أسرة
المستشفيات مغمى عليه من الإعياء والفرع والأسى.. وبرغم ذلك كان أولئك
الشباب وباللعجب مقيدون بكلايشات إلى الأسرة كأنهم من عتاة المجرمين..
هزنتسى الصور من الأعماق فكتبت من وحيها هذا الخطاب الإقتراضى من
مواطن محلاوي كئيش حب الوطن فى قلبه وكلايشات الوطنى فى يده إلى
رئيس البلاد وحاكم العباد:

سيادة الرئيس ..

أريد أن أهرش

سيادة الرئيس..
أكتب لسيادتك بالقلم الرصاص.. عنوان المحبة والإخلاص.
الكذب خيبة سيادتك. صحيح أن هذه الرسالة مكتوبة بقلم
رصاص دفعتنا رشوة لعم حسنين عامل النضافة لكي يدخله إلينا
من وراء ظهر الحراسة، لكن الحقيقة أنني لست أنا الذي أكتب، بل
أنا أملي هذه الرسالة على مريض يزاملنا في العنبر طلب عدم
ذكر إسمه، برغم أن الدكتورة قالوا أن أمامه بالكثير أسبوعين لكي
يسريح ويستريح، أي أنه ليس لديه مايشأه، لكنه يخشى أن يطلع
تشخيص الدكتورة خطأ ويكتب له عمر جديد فيكمل جلسات
العلاج في السجن. والحقيقة أيضا أن حكاية القلم الرصاص كانت
من بنات أفكاره هو ليس استرخا صا وإنما لأنه يرى أن ذلك سهل
التخلص مما كتبناه إذا حدثت كبسة على العنبر.

كنت أتمنى أن أخط لسيادتك هذه الرسالة بيدي لكي تشعر
بنيبض مشاعري مباشرة، كان نفسي والله، لكن المشكلة أن يدي
اليمنى غرزوا فيها إبرة المحلول الذي تقطنني الممرضة بأنه
خسارة في جنتي كلما قامت بتغييره، ويدي اليسرى كما تعلم
سيادتك قيدها بالكلابش إلى ظهر السرير المعدني، أنا أسف

لأنني افترضت أن سيادتك تعلم بأن هذا حدث، فقلبي يحدثني أنك لا تعلم بأن هذا يحدث لأحد أبنائك، لكن لساني لم يطاوعني أن أقول أنك لا تعلم، لأن المفروض أن سيادتك تعلم بكل كبيرة وصغيرة في هذا الوطن، الحقيقة أن لساني طاوعني، لكن زميلي الذي يكتب ماألميه عليه هو الذي نصحني بالأفترض أن سيادتك لا تعلم بهذه الحال، لأن ذلك من الممكن أن يوقعني تحت طائلة القانون، وأنا اللي فيا مكفيني.

زملائنا المرضى الذين لم يحدد لهم الأطباء بعد موعدا لمغادرة الحياة، يقولون لي أنهم سمعوا طبيباً شاباً ابن حلال يقول لزملائه الذين ليسوا كذلك أن صورتي وأنا نائم وبدي مقيدة في السرير تمكن مصور صحفي ماكر من التقاطها ونشرت في كل أنحاء الدنيا، ومع أنني فرحت عندما سمعت ذلك لأن صورتي وأنا متبهدل كل هذه البهدة متصل إلى سيادتك وستأمر بمعاينة الذين كانوا وراء هذه البهدة، إلا أن زميلي الكنيب الذي يستعد لمغادرة عهد سيادتكم إلى رحاب الله قال لي أن هذه الصورة ستجر لي مزيداً من الخراب والبهدة، وأنه مش بعيد أن يقيدوا بدي الأخرى إلى الناحية الأخرى من ضهر السرير، فضلاً عن تقييد قدمي الإثنين إلى رجل السرير، وذلك لأنني تعاونت في صناعة صورة كهذه يمكن أن تظهر عهد سيادتكم على غير حقيقته، عهد يقيد المرضى إلى أسرته كما لم يحدث من قبل في العالم كله، هكذا قال زميلي الكنيب محذراً إياي، فجعل الخوف يكاد يجعلني أفلها على روعي، لكنني امتنعت عندما تذكرت

مايمكن أن تفعله بي الممرضات لو حدث ذلك، أخذت أحلف بالله لسيادتك كأنك أمامي أنني لم أر جنس مصور منذ دخلت إلى هنا، وأنني كنت رايح في سبعين نومة لأن جسمي كله كان بينقح عليا من كتر الضرب، ظلمت أرتجف من الخوف وأسح في الدموع حتى صعبت على كل من معي في العنبر، ولم يجعلني أتوقف عن الإرتجاف والبكاء سوى نزيل آخر طلب ذكر اسمه هو الحاج عبد البديع الذي دخل ليكشف على الكلي فاكشف أن لديه كلية واحدة فقط والأخرى سرفت عندما دخل إلى المستشفى منذ سنتين لكي يستأصل المرارة، الذكائرة قالوا له أن كليته لم تسرق بل ذابت، وعندما اعترض قالوا له أن الله قادر على كل شيء، فخاف أن يعترض لكي لاطلع عليه سمعة أنه دانماركي مسيئ للإسلام، عم عبد البديع طمأنني قائلاً أن ظهوري في الصورة نائماً يمكن أن يطلعني من القضية صاغ سليم، فإذا كان الله عز وجل يسامح الذي يتسرك صلاة الجمعة إذا كان نائماً، فكيف يؤاخذ عباده من كان نائماً على تصويره أثناء النوم، زميلنا الكنيب سكت ممتعضاً وهو ينظر إلي وأنا أحتضن عم عبد البديع وأدعو له الله أن يخرج من المستشفى ببقية أعضائه سالمة، وقاطع فرحتنا بقوله " طيب لو طلعت من قضية التصوير.. هتطلع إزاي من قضية الشغب ياخفيف"، عدت لأرتجف وأبكي فيما اتقض عم عبد البديع عليه وطلب منه أن يعود ليتلقح في سريريه متطوعاً بمواصلة كتابة هذه الرسالة، ومقررراً أن ينقح من زميلنا الكنيب بذكر اسمه صراحة في هذا الخطاب لكي ينال جزاءه العادل، لكنني استحرمت وطلبت

المستشفى ذات يوم، لذلك لكي لا يدخل الشيطان بيننا أبدا، قررنا أن نسأل سيادتك السؤال بشكل غير مباشر، هل يمكن أن يتعرض لما أنا فيه الآن من كلبشة في ضهر السرير ابن أحد الوزراء أو الكبراء أو اللوآات أو المحافظين أو رجال الأعمال؟

كنا فرحين أنا وعم عبد البديع بهذه الصيغة للسؤال التي تخرجنا من أي مساعلة قانونية، وتوصل في نفس الوقت لسيادتك مانريد أن نقوله، لولا أن جاعنا من آخر العنبر صوت الكتيب ابن الكلبشة لكي يقول لنا " وهو في حد من دول ولا ولادهم ولا قرابيهم هيتعالج في مصر أساسا.. دول بيطلعوا من بره بره يتعالجوا بره.. وبره مافيش كلابشات أساسا في الإقسام عشان يبقى في كلابشات في المستشفيات". لم نستطع أن نرد عليه الصراحة، ولذلك قررنا أن نبلغ عن اسمه، سيادتك إسمه عدلي عبد الشهيد، زملاؤنا المسيحيون يقولون أنه مسلم، ونحن نقول أنه مسيحي، وعندما نجتمع سويا نقول أنه زي الفقر مالوش ملة.

عم عبد البديع يرى أن لانضيع وقت سيادتك في أي مقدمات عشية وأن ندخل في الموضوع مباشرة، بعيدا عن محاولة تقريب صورة مأنسا فيه لسيادتك، لأنه متأكد أن سيادتك لو شاهدت صورتي أو سمعت عنها لن يرضيك أبدا ماحدث لي وستأمر فوراً بمحاسبة المسئول عنه. الحقيقة أن عم عبد البديع متفائل بطبعه، بدليل أنه صدق أن كليته ذابت ونزلت وهو يقضي الحاجة، عندما لمسته قال لي "يا بني العيشة اللي إحنا عايشينها دي تدوب الصخر مش هتدوب كيتي".

منه أن يتركه يموت في سلام على رجاء القيامة.

سيدي الرئيس.. أنا أسف لأنني لم أنقل لك تحيات عم عبد البديع وكسل المرضى المجاورين لنا في العنبر، وعددهم عشرة فمثل كلوي وانتاشر فشل كبد وأربعناشر أورام متفرقة، جميعهم حملوني أنا وعم عبد البديع السلام أمانة لسيادتك، وجميعهم ينقلون لسيادتك رغباتهم الحارة في أن تنظر إلى بعين العطف والحنان الذين تعودوه دائما كمواطنين في عهد سيادتك الذي تشاؤوا وترعرعوا وشبوا ومرضوا في ظلهم.

سأفترض أن سيادتك شاهدت الصورة التي يقولون أنها التقطت لي وأنا نائم، وعهد الله كنت نائما، وسأسأل سيادتك، أستعفر الله العظيم، تخيل سيادتك أن الشيطان وسوس لي أن أقول لسيادتك أن تضع نفسك مكاني وأنا في هذا الحال، بل وسوس لعم عبد البديع أن يكتب ماقلته، والله سيادتك لو كانت يدي حرة طلبقة لنهضت من فوري وضربت نفسي وعم عبد البديع والشيطان بالحذاء لكي لاينفث في العقد بخيالات مريضة مثل هذه، لكن يدي مقيدة ويد عم عبد البديع مشغولة بالكتابة، ولذلك اكتفيت أنا وعم عبد البديع بأن استعدنا بالله من الوسواس الخناس، فنحن لانحب أبدا أن نتصور سيادتك مكاننا أبدا، متعك الله بالصحة والعافية لأن مصر تحتاجك، أما نحن فلديها منا الكثير.

المشكلة أن الشيطان يجري فينا مجرى فيروس سي في الدم، ولذلك نعلم أنه سيعود إلينا طالبا أن نسأل سيادتك هل يرضيك أن يتعرض لما أتعرض له أحد أبنائك أو أقاربك، لو لا قدر الله دخل

أنا لست عبد البديع، طموحاتي بسيطة، أنا لأريد أن أحاسب
أحدا، لا الذين اعتقلوني ولا الذين ضربوني بالرصاص المطاطي
ولا الذين ضربوني على قفايا ولا الذين سبوني بالأب والأم ولا
الذين قيدوني إلى ضهر السرير كأنني خطر داهم على هذا
الوطن، خطر لا يحتمل حتى حراسة إضافية بل يتطلب تقييدي
كذبحة، لأريد أن أحاسب الذين حكموا علي قبل أن يحاكموني،
ولا حتى الذين يأتون إلي كل يوم ليطلبوا مني بحزم أن أشد حيلي
عشان يطلعوا عين أهلي لما أخرج.

سيدي. أنا لذي مشكلتان لاثالث لهما، الأولى مع الذباب
الشرس الحقير الغنيت الذي يحاصرني في هذه المستشفى الكئيبة،
ذباب واعي سافل يتعمد أن يحط على الجهة اليسرى من وجهي
كأنه يعلم أنني لن أتمكن من هشه بيدي المفيدة، والله العظيم
ياسيدي أنا مستعد أن أدلي باعترافات تفصيلية عن دوري
المزعوم في المؤامرة التخريبية كما وصفها الضباط الذين
عكشوني، مقابل أن يفكوا الكلابش فقط لكي أهش الذباب
المتوحش عني.

مشكلاتي الثانية هي أنني أشعر بأكلان فظيع في ضهري،
لأدري هل سببه الحشرات التي يقسم زملائي أنها أقدم في
المستشفى من بهيرة كبيرة الممرضات، أم سببه رقودي على
السرير على وضع واحد كل هذا الوقت، مع أن التغيير سنة
الحياة، نيهني عم عبد البديع إلى التباس الجملة الأخيرة وكونها
يمكن أن تسوء موقفي في القضية، لكنني أقسم لسيادتك أنني

لأقصد منها شيئا سوى أنني فعلا أريد أن أمارس حقي الدستوري
في الهرش وتغيير وضع رقودي على السرير، فأنا لست دولة
تستحمل أن تعيش ربع قرن على وضع واحد دون أي تغيير، أنا
بشر ضعيف خلقت من تراب وسففت التراب ويلزمني بين الحين
والآخر أن أتقلب على جنبين، فهل هذا كثير علي سيادتك.

سيدي الرئيس. والله العظيم وليس لسيادتك على شعبيك
حلفان، هل تعلم أنني أحلم كثيرا بأن كل ما أنا فيه سينتهي فجأة
عندما تدخل سيادتك علينا فجأة في زيارة مفاجئة، لكي تقول لنا
أنه لايرضيك أبدا أن يعامل مواطن في عهدك هكذا، حتى لو كان
مخطئا أو مشتبها في خطئه، وأن سيادتك تؤمن بأن المتهم بريء
حتى تثبت إدانته عندها فقط تصح كلبشته.

عارف سيادتك. طيلة عمري كنت أحلم بأن أصاب يوما ما
بكسور ورضوض في حادثة قطار أو أصاب بحروق من الدرجة
الأولى في حريق مسرح أو أنجو من الغرق في عبارة أو أتعرض
لجروح قطعية في إنقلاب بيجو سبعة راكب، فقط لكي أحظى
بذلك المشهد المهيب الذي حظي به الألاف قبلي، أعني مشهد
دخول سيادتك إلى عنبر المستشفى لكي تتفقد المصابين، وتتحنى
عليهم ودودا حتونا تلاففهم وتطمئن عليهم وتطبطن عليهم
وتوصيهم بأن يبطلوا دلغ ويشدوا حيلهم، ياالله، هل من الممكن أن
أحظى بشرف كهذا، وأرى صورتي مع سيادتك في الجرنان وأنت
تمسك بمفتاح الكلابش وتفكه بيدك الكريمة وقد كتب تحت الصورة
"سيادة الرئيس الأب يتفقد أحد أبنائه المصابين".

أنا آسف سيادتك. عدلي مش ناوي يجيبها لبر. من جديد
أخرجني صوته من أحلامي، عم عبد البديع نفسه كان قد بدأ يحلم
بأن يتصور مع سيادتك وأنت تعده بأن كليته الباقية لن تنوب بأي
شكل، " هو إنت فاكرك نفسك ناجي من الغرق أو الحريق أو
الموت.. إنت يابني ممسوك في قضية شغب.. فكيف تحظى
بشرف كهذا لايناله إلا المغدور بهم أو المصابون بشرف".

خرجت في المظاهرات.. نعم.. أعترف سيادتك.
لن ألف ولن أدور. لن أحلف بالله كذبا أنني كنت رايح درس
أو جاي من مجموعة.. لن أقول أنني خرجت لكي أتفرج وفوجئت
بأنني ممسوك.. عم عبد البديع يطلب مني أن أمسح كل ماقلته
الآن.. لكنني عاهدت نفسي أن أكون صادقا وأنا أكتب إليك.. قد
أكون مخطئا لأنني خرجت في المظاهرة. بلاش أنا فعلا أخطأت..
لكن ماذا أفعل وأنا على آخري ككل الذين أعرفهم.. خرجنا لكي
نفش غلنا ونصرخ لعل أصواتنا تصل إلى سيادتك فترحمنا من
الغلاء والكواء والخواء واليبلاء والغش حتى في الدواء.. خرجنا
لكي نسأل سيادتك كيف يمكن لأهالينا أن يضمموا لنا حياة كريمة
بمرتبات لثيمة.. كيف يمكن لنا أن نحلم بالمستقبل ونحن ندرس
في مدارس وجامعات لا نتعلم منها شيئا ينفعنا في الدنيا أو
الأخرة.. نعم ياسيدي خرجت في المظاهرات كغيري.. لكن لأننا
ولا أحد من الذين أعرفهم أحرقنا مدرسة أو نهبنا محلا أو اقتحمنا
مطعما أو كسرنا جهاز كمبيوتر.. سمعت أنهم أحرقوا المدرسة
فحزنت.. صحيح أنني لم أتعلم فيها شيئا ذا بال لكنني حزنت

لأنني قضيت فيها أياما جميلة وضحكت فيها من قلبي أنا وزملائي
كما لم أضحك من قبل وكما لن أضحك من بعد.

سيدي الرئيس.. أنا حزين على كل طوبة رميت بوجه
عسكري أمن مركزي أمره أن يقمعا فقمعنا وهو يرتعد خوفا..
حزين على كل شجرة أحرقت فوق شريط القطار.. حزين على
كل محل نهبه.. على كل مطعم لم يأكلوا فيه فأكلوه.. على كل
فصل اقتحموه وأشعلوا فيه النار.. حزين على أن نصل جميعا إلى
هذه الحال.. لكنني حزين أيضا على حياتي وحياة كل الذين
أعرفهم.. هل تتصور سيادتك أننا نعشق التظاهر ونهوى
الإضراب وندمن الوقفات الاحتجاجية.. هل تظن سيادتك أننا كنا
سنخرج من بيوتنا أساسا لو كنا نشعر بالرضا عن اليوم أو الأمل
في بكره.. أعلم أنه لا يوجد أبدا مايرر خروجنا لكي نولع في
مدينتنا.. في شوارعنا.. في مدارسنا.. لكن ماذا نفعل إذا كانت
الحياة في بلادنا جعلتنا نرغب في أن نولع في أنفسنا.

سيدي الرئيس أنا جاهز لكي أتحمّل المسؤولية عن كل
ماينسب إلي.. مستعد لكي أمثل أمام القضاء.. مستعد لأن تقيد كل
أطرافي إلى جميع أرجاء السرير.. لكن فقط بعد أن تثبت إدانتي..
مستعد لأن أحاكم ولكن بعد أن يحاكم معي كل الذين سرقوا مني
الأمل وحرمونني من أن أحلم بغد أقل سوءا.. بعد أن يحاكم معي
كل الذين عرفوا من خيرات هذه البلاد دون أن يعطونا منايبنا..
بعد أن يحاكم معي كل الذين أشعلوا النيران في آدميتنا وانتماءنا
وحبنا لهذه البلاد التي عشنا فيها سنين راضيين بقليلنا لأننا نؤمن

أن القليل من الحبيب كثير .
سيدي.. أنا مضطر أن أتوقف الآن لكي أترك عم عبد البديع
يرتاح من نوبة البكاء التي أصابته.. لكي أطمئن على عدلي الذي
أعطانا ضميره وأخذ يرتجف.. لكي أطلب من الجميع أن يكفوا عن
النشيج الحاد لكي ننجو من غضب الحراس الذين اقترب موعد
تفتيشهم المفاجئ لنا.

سيدي الرئيس.. أنا الآن أعرف ما أريد
أنا لم أعد أريد لاحبا ولاحنانا .. ولاحلا..
لم أعد أريد لا الخبز ولا الحرية..
لم أعد أريد لا الحراك السياسي ولا العدالة الإجتماعية.. لم
أعد أريد تكافؤ الفرص ولا فرص التكافؤ.. لا التنمية الشاملة ولا
الخروج من عنق الزجاجة.
كل ما أريده أن تأمرهم سيادتك بأن يفكوا قيودي.. فأنا حقا
أريد أن أهرش.

قاطعوا الحصبة الألمانية!

لايمكنك أبدا أن تفهم كيف يفكر بعض الناس.
عندما سمعنا نبأ المصاب الذي ألم بابن عم شافعي القهوجي
ذهبنا على الفور لمواساته خلف النصب، لنفاجأ بالرجل العاقل
الكامل أو الذي كان كذلك يندفع صارخا في وجوهنا 'عاجبك
ياباشا اللي بيحصل لنا في البلد دي اللي مايعلم بيها إلا رينا..
يعني يوم ما حاجة مستوردة تخش بيتي تبقى الحصبة الألماني'.
حاولنا استيعاب الموقف فذكره الشيخ سيد السباك بأن الله
تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه، لكن عم شافعي لم يستقبل كلام الشيخ
سيد على النحو الأمثل، ربما لأنه فكر أنه بعد انضمام ابنه إلى
قائمة المرضى التي تملأ البيت " إثنين كلى وواحد كبد وواحدة
داخله في مرارة" يكون شافعي قد وصل إلى درجة تزله لمنافسة
رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي.

حاولت لم النظرات الحائرة التي صوبها شافعي إلى الشيخ
سيد لكي لا يدخل الشيطان بينهما فسألت عم شافعي مغبرا
الموضوع " إنت خدته لدكتور بيفهم كويس في الحصبة الألماني"،
تسند الرجل قائلا " مش عارف والله ياباشا بس الراجل كشفه
غالى.. أكيد بيفهم في العيا الألماني"، فجأة انفجر الموقف عندما

سأل عم أنور فجأة "هو مين واخذ توكيل الحصبة الألماني في مصر"، بصعوبة منعنا عم شافعي من دلق براد الميه المغلي على رأسه بعد أن ذكرناه بأنه لا يمكن أن يقصد الإستهزاء بمعاناته خاصة وهو راجل حاج وشايل القرنية.

عندما جاءت الجرائد وقرأنا أنباء التقرير الذي نشره موقع سي إن إن عن أحوال الصحة في مصر وعودة أمراض قديمة كانت الحكومة قد أعلنت القضاء عليها مثل الحصبة والسل، دوى صوت الأستاذ كامل مدرس أول عربي وهو يترحم بصوت عال على العبقرى مصطفى لطفى المنفلوطى، شاركناه الترحم ثم سألنا عن المناسبة فقال أن الأيام أثبتت نظرتة المبعدية وخلود رواياته التي كان يترجمها عن روايات القرن الثامن عشر والتي تموت البطللة فيها بالسل قبل أن يغتصبها حبيبها. لم يضحك أحد عندما قلت ساخرا أن الرئيس مبارك رجل يتميز بالأصالة والعراقة بدليل أن حكمه المبارك أعاد إلينا السل والحصبة من جديد، وأنه لن تنقضي فترته السادسة قيل أن نشهد عودة مرض الفالج الذي كنا نقرأ عنه في كتب التاريخ.

لما كح عم أنور كحة ختمها بصوت يشبه كركرة الديك، هرع الكل طالبا الحساب بعد أن خيم شبح السعال الديكى على القهوة. بعدها وعند ركوبي التاكسي كان الراديو يذيع أغنية نثر البرنامج الشهير "عشانك يامصر"، بعد إنقضاء التيتر بدأ المذيع جهير الصوت في إستضافة دكتور كبير يدير مشروعا قال أنه مجاني لعلاج الفقراء من مرضى القلب، فجأة أصدر السائق

صوتا لايليق بجلال البرنامج، وأغلق الراديو قائلا لي "معلش مش هاقدر أستحمل الـ (..) دي"، قلت له مواصلا حديث المرض - الحديث الأكثر شعبية في مصر مبارك بعد إلغاء برنامج حديث الروح - "شكلك مبقوق ياسطى من مستشفيات الحكومة"، قال لي وهو يشير بإصبع غير مستحب إلى الراديو "اللي عمال يتكلم عن علاج القلب ببلاش نفسي أقوله ياريت تعالجوا اللي يتكسروا الأول ببلاش.. تصدق من يومين ركب معايا واحد رجله مكسورة بعد نص الليل وقالي أوديه القصر العينى.. عالسواد اللي شافه هناك.. صحينا الدكتور بالعافية شخط فينا وقال إن العيان لازم يطلع يعمل أشعة.. مشينا ممر أطول من نفق الشهيد أحمد حمدي والراجل مكسور ومافيش كرسى.. ظبطنا بتاع الأشعة عشان مايرجعناش نقطع تذكرة.. وفي الآخر بعنوه يشتري رباط من بره على حسابه.. من ساعتها كلما حد يركب معايا ويقول القصر العينى أنصحه يعدي على الأجزاخانه الأول يجيب حاجته.. بس الشهادة لله في دكاترة ولاد ناس.. تصدق إن في دكتور الأسبوع اللي فات عالجنى من الكوليرا على حسابه".

"على جنب ياسطى.. أنا خلاص وصلت".

تراجع الإقبال على السيرك القومي عندما تحولت مصر كلها إلى سيرك قومي. وتكررت الشكوى من فقر الخيال لدى كتاب الأدب والدراما لأن الواقع المصري في عصر مبارك أصبح يفوق الخيال. لو ظهر بين ظهرائنا اليوم أديب يقوم بنقل أخبار صفحات الحوادث، مجرد نقل لا يضيف إليه شيئا ثم تمت ترجمة كتابه لاعتبر العالم كتابه فتحا جديدا في الواقعية السحرية يفوق ما كتبه ماركيز وإخوانه اللاتينيون الذين يكتبون الواقعية السحرية أدبا بينما نحن نعيشها قلة أدب.

تطمئن على حال الخيال في مصر عندما تقرأ أن ضباط الأمن في إحدى المحافظات قاموا بتخدير مرشح للإخوان المسلمين حضر إليهم لتقديم أوراق ترشيحه لإنتخابات مجلس الشورى فوضعوا له حاجة أصفرة في كوباية الشاي، وصحا الرجل ليجد نفسه الله أكبر على قارعة الطريق، بملابسه والله الحمد، وقد فاتته موعد الترشيح. للأسف لم تتعب الصحف في شغلها فتعطينا فرصة لزيارة عقل رجل الأمن العبقري الذي قام بتوظيف جديد لحيلة استهلاكها كتاب السينما المصرية والهندية معا، ولم نقل لنا الصحف هل تنوي الداخلية تعميم التجربة في

الانتخابات القادمة بدلا من اللجوء إلى البلطجة والتزوير وضرب القضاة وغيرها من الحلول المكلفة، وكيف نتقي في حالات كهذه شر ضعاف النفوس والمكبوتين من العساكر فلا يصح المرشح على آلام مروعة أسفل البطن وصوت يقول له "مبروك جيب سوسن وعبد الرحمن".

هناك خيال جديد يسري في البلاد ولا محالة، بين حكامها وأهاليها معا. الحكومة تسرب أهالي قلعة الكيش في الصحراء حتى تهدم بيوتهم. بينما سائق في هيئة الصرف الصحي يسرق سيارة مديره ويحولها إلى تاكسي يعمل عليه ٣ سنوات ثم يكتشف صدفة بعد أن خافه الميكانيكي، وربما ركب المدير التاكسي مرارا دون أن يأخذ باله. جنائني اسمه عم فناوي يزرع البانجو لسنوات داخل حديقة المستشفى التي يعمل بها فنقمه أخيرا لماذا كان المرضى يرفضون الخروج من المستشفى. مسافر زاده الخيال يحاول تهريب ٣٠٠ ثعبان حي على خطوط مصر للطيران اللي مش ناقصة بينما صناع فيلم ثعابين على الطائرة "سنيكس أون ذي بلين" في هوليوود يتصورون أنهم جابوا التايبة. تتكرر حوادث القطارات بعد ظهور تنظيم غير معلن لأطفال الحجارة يستهدف كبائن سائقي القطارات، أحدهم قتل سائق قطار بحجر محكم التصويب ثم قال للمحققين "قتلته عشان صوت القطر بتاعه بيضايقني"، لو اهتدى تنظيم القاعدة إلى تكنيك كهذا لعاث في قطارات أوروبا وأمريكا فسادا وبدون اللجوء إلى مواويل خطف الطائرات التي لم تعد تجيب همها. قبض الشرطة على مسجل

خطر دأب على سرقة عين القط من الطرق السريعة والإفيه أنه يسرقه من سنين وماحدث واخذ باله، الصحف لا تقول لمن كان يبيع عين القط، مما يكشف أن هناك سوقا سريا قد ظهر لمسروقات الطرق السريعة فقط. النيابة تحول مسئولين بكثيرة زراعة الأزهر قاموا بسرقة جديدة من نوعها هي سرقة أشجار الكافور في الكلية وبيعها بـ ٢٣ ألف جنيه والمدعش أن أحدا لم يأخذ باله أبدا من اختفاء الشجر بل اكتشفت السرقة بعد إختلاف الشركاء على الحصيلة. الأعلى في دنيا الخيال الجديد تلك الحادثة التي جرت في هيئة النقل النهري عندما قام موظفان بالإبلاغ عن غرق الأتوبيس النهري الذي يعملان عليه ثم اتضح أنهما باعاه خردة ولسان حالهما يقول "ماحدث هينزل النيل يدور على أتوبيس نهري أو حتى بري، لو بيهمهم كانوا نزلوا يدوروا على العبارة العرقانة، تعال تبيع أم الأتوبيس إحنا أولى بفلوسه".

هل أنا غيور من هذا الخيال الذي يهدد مهنتي ككاتب سيناريو؟ حاشا لله، أنا فقط خائف على مصر لأن الخيال يعدي، ولا أنا ولأنست نحب أن نرى الحرامية الكبار وقد قرروا سرقة مصر مرة واحدة بدلا من فكها على حنت ثم يذهبوا إلى الأمم المتحدة لتحرير محضر باختفاء مصر. أو لا قدر الله نصحو كشعب من النوم فنجد أنفسنا مرميين في الصحراء نعاني من آلام مروعة أسفل البطن وعندما نذهب إلى القسم لعمل محضر نجد صورة الرئيس جمال مبارك معلقة خلف مكتب الضابط.

القراءة للجميع.. أما الكتابة فإلى

معاة فلوس

كنا نجلس أمام الرائي نحسني كنوس البهجة التي قدمها لنا
أبو تريكة ورفاقه أشاوس الأهلي في الشوط الأول من مباراة كأس
مصر المظفرة أمام الإسماعيلي اللدود، فجأة ارتجت الكنبه والشقة
والعمارة والمننتة كلها بدوي انفجارات أطارت أحلام النصر من
رؤوسنا.

إلى الشبايبك هرعنا فزاد من روعنا تواصل الانفجارات التي
صاحبها فجأة صوت رزع على الباب، بادرت لإنقاذ الباب
فوجدت جاري محمود يتصيب عرقا وقلقا ويسألني "سمعت
أصوات الانفجارات"، قلت بجفاء يليق بجارين لم يتحابا في الله
أبدا "اللي خلاني أسمع صوت ترزيع الباب أكيد هخليني أسمع
الإنفجارات"، التفت إلى باب شقته الموارب ثم قال هامسا
مُعلّش أصل المدام والعيال مارضيوش يغيروا الماتش ويجيبوا
الجزيرة عشان أشوف حكاية الانفجارات.. أصلهم أهلاوية زبال..
قصدي أهلاوية زيك وفاكريني عايز أقل فرحتهم عشان
زملكاوي.. قلت آجي لك.. ماأنا عارف إن المدام مش هنا وعندك
صحابك، دوي إنفجار جديد منعني من إلقاء محاضرتي المعتادة
عن حرمانية التجميس على الجيران، في ثوان كان محمود

بتوسطنا على حافة البلكونة محلقا في السماء ليستطلع مصدر الانفجار، قبل أن يندفع إلى الداخل فيسبقني إلى الريموت جايبا الجزيرة التي كانت تذيع صور ضحايا إنفجار معتاد في الرمادي بالعراق، قلوبنا انقبضت من الفال الوحش فسارعنا بتغيير القناة إلى قناة ميلودي لكي نهدأ أعصابنا قليلا، وجدناها مغلقة لوفاة والد مالكها بعد دفعه من شرفة لندنية، كدنا نحول إلى مزيكا أطال الله عمر أهلها، لكن صوت إنفجار جديد ذكرنا بالله، فاستجبنا لإقتراح أحدنا أن نحول على القنوات الأولى أو الثانية لنختبر الريادة الإعلامية في حدث جلل كهذا، فجأة وجدنا أمامنا ليل القاهرة تضيئه الألعاب النارية والشاشة مكتوب عليها " إحتفالات إنطلاق الحملة القومية لمهرجان القراءة للجميع".

لولا أنني صاحب التلفزيون لكانا كسرنا التلفزيون على صاحبه، المذبة قالت لنا ولعموم أبناء الشعب أن الإحتفال مقام بدار الأوبرا القريبة من منطقتنا ففسرت لنا قوة صوت ماظنناه إنفجارات، ثم قالت لنا أيضا أن المهرجان أتم اليوم سبعة عشر سنة، صديقنا شوقي لم يفرح للمهرجان كما هو مفترض فقال برخامة " هانت بكره يبلغ ويطلع باسبور ويهيج من البلد"، تركنا المذبة وهي تحاول تضخيم صوتها ليطلق بجلال الحدث، وعدنا إلى الماتش الذي كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة على يد المعلق الغنتيت، الأستاذ محمود أطلق كعادته ملاحظة ثابتة هي أن ثمة معارضا مندسا في إدارة مهرجان القراءة للجميع الذي تشمله السيدة الأولى بعين رعايتها، بحيث اختار إطلاق المهرجان في نفس توقيت

إذاعة ماتش الأهلي والإسماعيلي لكي لايشاهد وقائع إطلاقه أحد سواها والسوفد المراقق لها في دار الأوبرا فيغيب فضل سيادتها عن عموم جميع الشعب المحب لها وللقراءة، على الفور طلبت منه أن ينجر على بيته داعيا الله ألا يكون لدى أحد من عليه القوم دماغه السم فيضار الغلبان الذي اختار التوقيت لأن أحدا لن يصدق أنه مالوش في الكورة.

نزلنا بعد الماتش لكي نستمتع بتحليله سويا على القهوة بعيدا عن سخافة الأستديوهات التحليلية التي صارت على قفا من يذيع، على ناصية شارعنا امتدت إلينا يد المتسولة التي توجر الناصية من رمضان زجر البلطجي، أحب صديقنا رضا أن يستظرف فأخرج كتابا من شنطته ووضعها في يدها قائلا لها " كل سنة وإنت طيبة.. النهارده عيد ميلاد مهرجان القراءة للجميع"، ماأستطيع أن أنشره من رد فعلها قولها وهي تلوح بنسخة الكتاب " قريوا عليك ساعة وسكتوا ياإبن النسخة".

على طول طريقنا إلى القهوة رأينا بشرا أكثر من الهم على القلب ولم نلمح أحدهم يحمل سوى هممه، لاجود لكتاب مع أي أحد أيا كان جنس جلدته، سألنا بعضنا "طب أدي الجميع .. أمال فين القراءة".

في القهوة كان "الجميع" منشغلا بقراءة أوراق الدمنة والكوتشينة وزهر الطاولة بينما مافتي خبير ثقافي في التلفزيون يحكي كيف تغيرت حياة المصريين في عهد مبارك بفضل مهرجان القراءة للجميع، كلامه كان مؤثرا لدرجة أن المصريين

الذين في القهوة غيروا القناة. وأنا عائد إلى البيت انبعث من راديو التاكسي صوت مذيعة تستضيف رئيس "تحرير" احتل منصبه قريبا، كان يتحدث بحماس عن الثورة الثقافية التي تشهدها مصر على يد الرئيس مبارك، وأن الكتاب في عهده تمكن من هزيمة كل وسائل الإعلام وتربع على العرش، انبعث صوت مريب من حنجرة السائق، ظننته صوت الكاربراتيير، فقلت متنبئا "إيه رأيك يا اسطى في كلام السراجل ده.. إنت فعلا شايف إن الكتاب تربع على العرش؟"، أجابني بهدوء شديد "مش عارف بس أنا حاسس من كلام السراجل ده إنه فعلا عرش".

لقاء في شارع الثورة!

• مساء الخير عزيزي المواطن.. تحب حضرتك تشترك معنا في البرنامج

- على حسب الإشتراك بكلام؟

• أه ده شكله عسل وهيتعبنا.. يافندم أنا قصدي تشترك معنا برأيك؟

- والله يافندم أنا لو كان عندي رأي أحب أحتفظ بيه لنفسي..

• حضرتك مكبر الموضوع ليه.. ده برنامج إذاعي بنحتفل فيه بذكرى الثورة

- يافرج الله.. هي الثورة قامت؟.. والله ماحد قال لي

• لاحول الله يارب.. عزيزي المواطن إحنا بنتكلم عن ثورة يوليو بتاعة الزعيم جمال عبد الناصر

- أيوه عارفه.. جمال عبد الناصر مبارك.. شاب أمير وربنا هينصره علينا بإنشاء الله

• لا مش هينفع كده خالص.. شوفوا لنا مواطن ثاني والنبى.. عشان اليوم المجيد ده يعدي

المعد: باقولك إيه ياهانم.. ده المواطن المتاح دلوقتي.. مشي حالك بيه لحد ماانلاقي غيره

- يافندم حضرتك متعصبه ليه.. أنا باهزر معاكى.. حد مايعرفش ثورة يوليو.. مش دي اللي ثورة أطلقها جمال.. وإحنا حفرنا القنال وبعدين حررناه وبنفكر نبيعه دلوقتي.. أنا راكب معاكى في البرنامج.. اتفضلني

• الصبر من عندك يارب.. حضرتك ممكن نبتدي نسجل بس أستسمحك الإجابة تبقى على قد السؤال

- والنبي البرنامج ده هيبقى عمل.. إنتي بس شوطي وربنا هيكرمنا

• أعزائي المشاهدين كل عام وأنتم بخير.. في هذا اليوم المجيد نزلنا إلى شارع الثورة لننقل فرحة المواطنين بهذا اليوم التاريخي الذي غير وجه مصر.. التقينا بأحد المواطنين وسألناه عن رأيه في مبادئ ثورة يوليو؟

- هي ثورة يوليو عندها مبادئ، والله ماكنت أعرف.

• أيوه يافندم ثورة يوليو عندها ست مبادئ

- يا عيني.. ده الواحد مننا بيبقى عنده مبدأ ببطلع عينه في الزمن ده وهي عندها ستة.. الله يكون في عونها.

• إيه اللي حصل للناس بس يارب. ياسيد يامحترم مبادئ يعني أهداف

- والله.. يعني الثورة عندها ست أهداف زي الأهلي كده.. وجابتهم في مين؟

• ماهو ده السؤال يافندم؟ في رأيك كايين من أبناء مصر بعد مرور ٥٥ عاما على الثورة ماالذي تحقق من أهداف ثورة يوليو؟

- إنتي مش بتقولي إنها جابت ست أهداف خلاص.

• يابني آدم إفهم الثورات غير الماتشات.. الثورة بتيجي بأهداف وبعد كده بتحققها. فهمت؟

- أيوه فهمت.. يعني في الماتش بنلعب عشان نحط الهدف.. في الثورة بنحط الهدف وبعد كده بنلعب فيه.. والنبي ماتتيرفزي ياست هانم.. أصل أنا والله أول مرة أسمع حكاية أهداف الثورة دي.. حضرتك قولني لي الهدف وأنا أعلق لك عليه بعون الله

• معقول برضه.. بص ياسيدي أول هدف من أهداف الثورة القضاء على الإستعمار وأعوانه، إيه رأي حضرتك في هذا الهدف؟

- ارجوكي أعذريني أنا مأحبش أجيب سيرة الإستعمار

• ليه إنشاء الله؟

- عشان أعوانه هيزعلوا.. وزعلهم أوحش من زعل الإستعمار ذات نفسه

• إنت غريب قوي على فكرة.. بلاش الإستعمار.. عندك مثلا من أهم أهداف الثورة كان القضاء على الإحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم

- من فضلك أنا وافقت أسجل على أساس إن ده برنامج تاريخي.. ومش هتجيبوا سيرة أحمد باشا عز وحديد عز.. أنا عندي عيال وعايز أعالجهم

• إيه علاقة أحمد باشا عز وحديده بالموضوع ياأخينا

- مش بتقولي إحتكار.. عايزه تخليني أقول الكلام اللي

يقولوه عليه بتوع المعارضة إنه محتكر الحديد عشان هو صاحب جمال مبارك وأمين تنظيم الحزب الوطني.. بصي بقى أنا شكك فيكو بصراحة.. إنتو من قناة إيه.. معاكو كارنيهات

• بيه ده هيقب دماغنا.. بلاش ياسيدي الهدف ده.. خلينا في هدف غيره.. عندك مثلا هدف القضاء على الإقطاع

- حضرتك بتتكلمي عن الثورة الفرنسية ولا ثورة يوليو.. ممكن توريني كده الورقة اللي بتقري منها

• من فضلك ممكن تعلق على الهدف وإنت ساكت

- إزاي يعني.. أعلق وأنا ساكت إزاي

• قصدي تتكلم في صلب الموضوع

- ماهو معلش ياست هانم.. إنتي عماله تقولي لي قضاء على الإقطاع وتحقيق العدالة الإجتماعية بين طبقات الشعب.. إنتي مش عايشه معانا في البلد.. أنا حاسس إنك بتتبلي على ثورة يوليو وبتلزي لها أهداف من وراها.. أصل يعني لو ثورة يوليو كانت بتهدف للكلام ده ماكانتش هتقعد ٥٥ سنة من غير ماتحققه.

• طب خلاص خلاص أنا هاختار لك هدف تاني وقول تعليقك بأدب لو سمحت.. وبلاش ألفاظ تلزي وتبلي والكلام ده.. تهدف ثورة يوليو إلى إقامة حياة دستورية وديمقراطية سليمة.. حضرتك بتضحك ليه؟

- أصلي افتكرت إنها سليمة سليمة.. فاكروه لما الكافر في فيلم فجر الإسلام قال شلت يدي وبعدين ضحك عليهم وقال إنها سليمة سليمة.. آه ياكفرة.. إنها سليمة قال

• طيب نكتفي بهذا القدر مع المواطن الكريم لكي نتيح الفرصة لعشرات المواطنين الذين يتسابقون خلف الكاميرا على إبداء رأيهم في أهداف ثورة يوليو. كفاية كده أنا مش مكلمة مع الرجال ده.. أبقى ست مش كويسة ويارب أتقل القناة التامنة لو كملت معاه

- المعد: طيب خلاص هدي نفسك يا هانم.. هنمشيه.. بس إنتي إهدي والنبي

• إيه ده.. مش ممكن.. ده لسه واقف هنا.. إنت يا أخينا ماتتوكل على الله وتمشي من هنا.. ماخلصنا التسجيل.. إنت واقف هنا ليه؟

- مستني إعادة "الأهداف".

كان الأخ النجل جمال مبارك يقف أمامنا في القهوة منتصباً
قرب النصبية، يلف ويدور يمينا وشمالا على منصة المؤتمر العام
للحزب الوطني الحاكم مصدقا نفسه أنه قداما وقُدود وغير منتظر
أن نصدق، ومتحدثا بثقة تشي أنه أخذ في الأشهر الماضية
كورسات مكثفة في الإلقاء والأداء المسرحي والفوناتيكس وفنيات
التخاطب، إلى جواره جلس "الأونكلان" صفوت الشريف وعلي
الدين هلال ينظران بفخر إلى عمائل أيديهما، ويلهجان بالدعاء لله
أن يكون سيادة الرئيس مبسوطا من الشغل اللي إتعمل، بينما
القاعة تشغي بأناس يبدو عليهم أنهم منبهرون بما يسمعون من
إنجازات بينما المفروض أنهم يعلمون سلفا بهذه الإنجازات
وليفاجأون بها معنا، كلما مرت الكاميرا على أحدهم أخذ يهز
رأسه بقوة لا لكي يدخل الكلام دماغه بل ليثبت أن الكلام خبط
شغاف قلبه فأفقده القدرة على التحكم في أعضائه، بينما البعض
الأخر يستمع صامتا كأنه يفكر بعمق في ما يسمعه بينما الحقيقة أنه
يفكر في اللحظة المناسبة لبدء التصفيق.

كنت أجلس على القهوة ألاعب صديقي دور دمنة.. عادة، بعد
أن نوقفنا عن لعب الدمنة الأمريكاني لكي لانتقى مصير الدكتور

سعد الدين إبراهيم، قلت لصديقي وأنا أنظر إلى شاشة التلفزيون ثم أحاوره "تفكر مصر فين دلوقتي؟". السؤال سمع في القهوة التي لا يصح أن ينفرد الإنسان فيها بحديث، تلقيت عليه إجابات عديدة بوخت السؤال "مصر عند دكتور الأنف والأذن بعيد عنك.. مش عارفه تاخد نفسها من السحابة السوداء.. مصر بتاخذ العزا في ولادها اللي غرقوا.. تاخذ عزا مين ياعم إنت.. مصر مرتبطة مع سمسار عشان تسافر إيطاليا وتستريح من الغلب اللي شأيفاه.. والنبي سيبوا مصر في حالها.. إحترموا مشاعرها.. ألا صحيح هنجيب لمصر هدية إيه في عيد الأم؟".

صديقي الموضوعي الذي لم يعجبه ذلك الهزل في موضع الجد قال لي بعمق مشيراً إلى التلفزيون "بس ماتقدرش تنكر إن أدائه تطور؟"، تجاهلنا أنا وهو أصواتا مربية جاءت من الخلف والجناب والونجين متعاملين معها بحسن نية لامناص منها حفاظاً على وحدة الجبهة الداخلية للقهوة، حاولت أن أكون موضوعياً أنا الآخر فقلت له بهدوء وبالنحوي لكي لأنجرف وراء إغراءات العامية التي لا تخفى عليك "طيب ياعمنا عقبال مالبلاد نفسها تتطور.. ياسيدي لو كانت البلاد تحكم بالأداء لكان هتلر أعظم حاكم شهدته البشرية.. هل أصبح غاية مانتمناه كل عام أن ننتظر مؤتمر الحزب الوطني لكي نرى أن السيد جمال أصبح قد ثقة بابا فيه".

فجأة قطع حديثنا صراخ إمام القهوجي الذي لم نعد نعلم من فرط إنفراد بصناعة القرار في القهوة هل هو مجرد كبير صبيانها

أم أنه مشارك فيها كما يقول أحياناً في غياب صاحبها المعلم أبو النجاء، كان إمام القهوجي ساخطاً لأن أغلب زبائن القهوة قرروا مقاطعة الشيشة تماماً مكتفين بما خف ثمنه من المشاريب ومستقلين على كراسي القهوة لإستشاق السحابة السوداء التي تحقق لهم نفس مفعول الشيشة دون أن يكونوا مضطرين للتذلل لإمام لكي يغير الحجر أو يأتي بالولعة.

لم يجد صراخ إمام نفعاً مع زبائن القهوة الذين ارتموا على الكراسي كأنهم خشب مسندة مشرعين مناخيرهم إلى السماء، سائلين الله ألا يرزق البلاد بمطر يبوظ ماعملوه من دماغ، استدار إمام إلى التلفزيون وأخذ يصيح في وجهه، وجه التلفزيون طبعاً، فأنا لن أبلغ عن إمام فهو أخ عزيز علينا كلنا، "حرام عليكو بطلوا بقى.. وقفنوا حالنا.. لما إنتو مش قادرين على السحابة السوداء هتقدروا على الغلا والكوا إزاي"، تستطيع أن تقول أن هذه الجملة هي تلخيص منهجي لما قاله إمام لأن إمام عندما يكون غاضباً يفقد منهجيته بحيث لا يمكنه السيطرة على لغة خطابه الذي يتحول حينها إلى خليط غير متجانس من الحروف المنطوقة وأصوات الإنسان الأول ولغة الجسد مع لجونه أحياناً لوضع إصبعه.. على المشكلة.

لم يكن إمام أهوجاً كما قد تظنه، بدليل أنه عندما قام عم حسيني - أكبر زبائن القهوة سناً وأكثرهم إحتراماً لأنه عاطل منذ سنة ٨٢ وبالتحديد عقب إختتام فعاليات المؤتمر الإقتصادي الأول والأخير - بتبنيه إمام إلى أن يواصل إفراغ غضبه في إتجاه آخر

غير التلفزيونيون "عشان ماتتمسكش متلبس وتودينا كلنا في داهية يا ابن الس..."، قال له إمام مطمئنا أنه يعرف مايفعله جيدا، فالمخبرون كلهم هذه الأيام في قاعة المؤتمرات وماحولها في مدينة نصر لتأمين مؤتمر الحزب الوطني، لم يكد إمام يكمل جملة حتى كان عم حسيني قد انقض على التلفزيون فاعلاما ما لايليق بشخص قضى كل هذه السنين مع البطالة.

أنا وصديقي نحب الجلوس مع الغوغاء لكننا لسنا غوغائيين، نحن أناس موضوعيين، لذلك ظللنا نتأمل كيف أن لله جنودا من قش الرز، أفسدت كل ماصرفه قادة الحزب الوطني من ملايين لكي يقنعوا الناس بأنهم قادرين على أن يشيلوا مصر من وحلتها التي لايعرف أحد من بالضبط هو الذي رماها في هذه الوحلة، نحن موضوعيون لانربط الشأن الخاص بالعام، ولذلك تركنا الشأن العام واكتفينا بالخاص، صديقي سألني عن إبتني الكبرى التي لا تكاد الكحة تغادرها بفضل سحايات الحزب الوطني السوداء، فرددت له المجاملة بأن سألته عن خالته التي لم تعد تستطيع العيش بدون بتاع الأنابيب، أنابيب الأكسجين، فجأة اقتحم علينا ود مجاملاتنا الشاب جابر الذي تخرج من معهد الخدمة الإجتماعية قبل أن يصبح المعهد كلية وقبل أن تخدم أم جابر في البيوت لتصرف على تعليم جابر، مد جابر يده لنا بصفحة المحافظات في جورنال الأهرام، وقال لنا بصوت جهوري لايليق بفرق السن بيننا وبينه "تسموا إيه ده يأساتذة يامثقفين يا..."، تجاهلنا الشتيمة الأخيرة ونظرنا إلى الصفحة التي قصها جابر من جورنال

الأهرام، كلنا كان يعرف أن جابر تربطه علاقة خاصة بالأهرام، فهو يقرأها دون غيرها من صحف الحكومة لأن لديه دائما أمل كبير في رينا ان يعدل حاله فيصبح لديه سيولة تكفي لأن ينشر نعيه في الأهرام، "عشان أحس لما أموت إني بقيت بني آدم"، المشكلة أن جابر يشتري الأهرام كل يوم ولايقرأ العدد الذي يشتريه إلا بعد شهر كامل من تاريخ صدوره، مبررا ذلك بقوله "عشان أحس إن البلد لسه بخير"، إصبع جابر وجهتنا إلى حيث يجب أن ننظر، خير يتصدر صفحة المحافظات عنوانه (رغم الإجراءات.. بدأ مسلسل حرق قش الأرز)، تحته مباشرة خير عنوانه (للقضاء على السحابة السوداء قبل ظهورها: محافظ الشرقية يقود رؤساء المدن لمواجهة الحرائق)، لم يدع لنا جابر فرصة لتأمل الخبرين مليا، أشار إلى الخبرين بإصبعه ثم أشار بإصبع آخر إلى حيث تتجه أصابع إمام وعم حسيني ثم قال لنا بصوت أكثر جهورية وأشد عدوانية "الناس دي عايزه منا إيه.. إزاي الحرائق إبتدت وإزاي المحافظ بيقتضي عليها قبل ماتظهر.. يعني أبطل الأهرام وأرجع ثاني أشتري الشعب وأنفع حزب العمل"، لم نرد أن نصدمه بأنه لم يعد هناك عمل ولا شعب أساسا، هب فينا مجددا "ساكتين ليه يأساتذة يامثورين يامثلمين.. أنا مش عايز أعرف مين اللي حرق قش الرز.. أنا عايز أعرف مين اللي نشر الخبرين دول فوق بعض.. وعايزك تعرف لي ده حالا"، صديقي الموضوعي زاد الطين بلة عندما طلب ينسون لجابر لكي يهدئ أعصابه، فجأة أمسك جابر بخناقه صارخا "إيه ياله..

شايفني باتحرش بيك عشان تطلب لي ينسون وتهديني.. أنا بأسالك سؤال لو مش عارف إجابته قول أنا حمار ومش فاهم حاجة.. عشان أستريح وأحس إنني مش لوحدي اللي حمار"، صديقي يعرف أن الحارة سدم مع جابر، ولذلك على الفور أقر أنه حمار ومش فاهم حاجة، وأنا أمنت على كلامه بأنه فعلا حمار، هدا روع جابر الأهرامجي واتجه بخطوات ثابتة إلى التلفزيون ليزيح عن طريقه كلا من إمام وعم حسيني ويوجه إصبعه - السبابة للأمانة - نحو الشاشة، قائلا بصوت هادر "إحنا لو كنا عايشين في بلد تعرف ربنا.. كنا قلنا القاعة دي عليكو وفصلنا التكيف من مفتاح الباتشينو بتاعه.. وحرقنا لكو عشرين شوال قش رز عشان تورونا هنتقدموا بينا إزاي"، ثم اتجه من فوره إلى مَبولة القهوة، وظل بها قرابة النصف ساعة ثم خرج منها مبتسما رائق الروح ناصحا الجميع بأن يدخل إلى المَبولة فوراً لو كان يريد "شم شوية هوا نضيف".

ظلت ابتسامة جابر مرتسمة على وجهه وهو يخرج من القهوة التي لعلع فيها صوت إمام القهوجي صارخاً في المتدافعين على شم الهواء النضيف "بالدور يا جَدع منك له.. مافيش فائدة.. عمركو ماهتبقوا بني آدمين.. حلال اللي بيعملوه فيكو والله".

ملاكي قريش!

"ملاكي قريش". هكذا اختار ذلك المواطن المجهول الهوية أن يكتب على لوحة سيارته مخرجا لسانه للعالم والمجتمع والقانون قبل أن يضبطه لواء شرطة نابه على طريق الصف - إطفيح. أقول لنفسي وأنا أشاهد صورة لوحة سيارته على الصفحة الأولى في صحيفة الأخبار: يخرب بيت الدماغ العالية التي دفعته إلى تصرف كهذا، من هو وماحاكياته، هل وراء اختياره لهذه اللوحة وعي سياسي ساخر دفعه لتكثيف كل مانحياء في كلمتين فحسب "ملاكي قريش"، أم أنها جاءت معه هكذا ربما من وحي نكتة أبو العربي الشهيرة التي لو حكيتها لك اليوم لتعرضت لإهدار دمي غدا.

عندما شاهدت لوحته كنت ضيفا على الصديق الباحث أحمد المسلماني في فقرة الصحافة ببرنامج القاهرة اليوم الذي تذيعه محطة أوربت الفضائية، قررنا أن نحاول الهروب إلى النهج، خاصة أن الفقرة التي سيقفنا كانت تروي دراما الوزير السابق توفيق عبده إسماعيل بكل ما فيها من نكد وعبث جعله يقضي سنين طويلة في السجن دون أن يعرف أحد على وجه اليقين هل هو بري أم مذنب.

قررت أن أستعير مدخل صاحب لوحة ملاكي قريش متعاملا معها كموقف سياسي وجدته مناسبة بشكل مدهل لقراءة الواقع كما تعكسه الصحف، بدأت القراءة قبل أن نصبح على الهواء وباليوتي ماقرات. خذ عندك، المصري اليوم تنشر صورة لسائق ميكروباص يربط يده اليمنى بلفافة شاش غارقة في الدماء بعد أن يتر ضابط شرطة من طغاة قريش إصبعه لأنه رفض أن يشتري له كارت شحن موبايل. الوفد تنشر صورة موجعة التقطها المصور مجدي شوقي داخل عنبر بإحدى مستشفيات الشرقية، مضر يون فقراء وجوههم شتى يوحدتها البؤس، كأنهم منفيون في شعب أبي طالب، بعضهم ينام على أسرة العنبر المتهالكة التي تصلح للتعذيب أكثر من صلاحيتها للعلاج وبعضهم ينام على الأرض فوق بطاطين في إنتظار المجهول وبعضهم ينام على البلاط حيث تمزق القطن إلى جواره وقد بدت عليها علامات الرضا ربما لأنها لن تكون مضطرة للعلاج على أيدي أطباء المستشفى. صحيفة صوت الأمة تنشر صورة والد طفلة ابتلعها بالوعة مجاري في المقطم يجلس على الأرض ناظرا إلى البلاعة بذهول، على بعد أسطر في نفس الصحيفة ونفس الأمة قصة أشد مرارة لخمسة مواطنين قتلهم الغازات السامة المنبعثة من بلاعات الصرف الصحي والصحيفة تنقل عن المحافظ عبارة تليق بسيد من سادات قريش "يسأهلوا اللي جرى لهم". قبل عشرين عاما كنا نطالب بحق العودة للفلسطينيين، اليوم نطالب به لنجد سيناء وإخواننا في النوبة وأهالي قلعة الكيش فهل نطلبه قريبا لقاطني

شارع مصدق. في صفحة كاملة تنشر الأسبوع إستغاثات الفقراء وأوجاعهم مفرقة الأسر التي تطلق الإستغاثات إلى أسرة فقيرة جدا جدا واسرة فقيرة جدا وأسرة فقيرة، عليك أنت أن تختار هل تمد يد العون للفقيرة أم للجدد أم للجدد جدا، يستحسن أن تتخذ قرارك قبل أن تقرأ في العدد المقبل استغاثة أسرة فقيرة جدا جدا، تعذر الأسبوع لأن فقر الناس لم يعد قابلا للوصف سوى بإضافة جدا مع كل حالة تفوق سابقاتها فقرا وفاقة. الأهرام تنشر حكم محكمة بالسجن المشدد ١٥ عاما لعاطلين سرقا طالبا جامعا، لكنها لن تنشر أبدا أي حكم على الذي جعلهما عاطلين بيلغان من السياس مبلغا ينسيهما أن الريح لن تأخذ شيئا من البلاط سوى ١٥ سنة سجن.

تبدأ إذاعة الفقرة على الهواء فأستعرض الصحف متحاشيا النكد ما استطعت ورابط ماقرأه بلوحة ملاكي قريش، تنتهي الفقرة لأتلقى طيلة الطريق مكالمات تهنئة على فتاكتي في قراءة الواقع، قبل أن أخلد للنوم أستعرض ماقلته فأشعر بخزي شديد وأجد نفسي مجبرا على الاعتذار لقريش التي كان لدى بعض ساداتها مكارم أخلاق شهد سيدنا النبي أنه جاء ليتممها.

جبروت قريش كان خانبا لدرجة أنه سمح للصحابة أن يلتقوا في دار الأرقم سرا لسنوات، حالات القتل تحت التعذيب كانت نادرة ومستهجنة ووجدت أحيانا سيدنا حمزة ليوقفها، والصحابة تمكنوا من الهجرة إلى الحبشة والمدينة لأنهم لم يوضعوا في سجن أبدي لايعرف له الدبان الأزرق طريق جرة، زائد أن أمية بن أبي

خلف لم تكن الدناوة لتصل به إلى أن يعذب سيدنا بلال من أجل
كارت شحن.

في اليوم التالي يقابلني عند بنّاع الجرايد شاب متحمس مسيغا
علي من الثناء مالا أستحق قبل أن يتلفت حوله ويهمس " كان نفسي
تكمل جميلك في موضوع قريش وتقول لنا مين في أيامنا دي أبو
جهل ومين أبو لهب". الحقيقة ما عرفتش أرد.

حكومتك في العشة ولا طارت؟

لي صديق من كبار المثانمين والإنهزاميين أطلقت عليه منذ عرفته "المستوحس خيفة"، لأنه لا يثق إطلاقاً في أي شيء تبثه وسائل الإعلام ويعتبره مكيدة منصوبة له ولباقي أفراد الشعب المصري، يكفي لتوضيح شخصيته أن أخبرك بأنه يعتقد أننا لم ننفذ فعلاً بكأس الأمم الإفريقية العام الماضي وأن السنغال هي التي كسبتها في مباراة سرية لم تذاع، وأن الحكومة قبضت فريق كوت ديفوار لكي نكسبه كده وكده لتتسي الشعب المصري أحزانه على كارثة غرق العبارة، لاحظ أنه لا يقول رأيه هذا اعتباطاً، بل يحاول أن يدل عليه بالبحث المستمر حتى اللحظة عن أي موقع سنغالي على الإنترنت ليتأكد من شكوكه، ناهيك عن إستناده لشك منطقي في فكرة أن يقوم اللاعب الدولي دروجبا بجلالة رجله بإضاعة هدف سهل كالذي أضاعه لو لم يكن قابضاً من الحكومة، قلت له: لماذا إذن فزنا بشق الأنفس طالما كنا شاريين المانش، قال لي: سأجيبك لو قلت لي أولاً لماذا انتظرنا ١٧ ساعة لكي نبعث قوارب إنقاذ للعبارة الغارقة، ياسيدي كلها أشياء مريبة تحدث في هذا الزمن المريب.

المهم ما إن أعلنت الحكومة عن ظهور أزمة انفلونزا الطيور

الطيور"، قلت له "ومن الذي يمكن أن يصدقك"، قال لي بجديّة "قالوا في التلفزيون إن الفرخة المصابة بالحالة لا تبيض ومراتي لا تبيض، يعني تنطبق عليها مواصفات حمل الفيروس"، أخذت أضرب كفا بكف فقال لي ضاحكا "أعلم أنك تتهمني دائما بأنني موسوس ومتشكك في المسيرة وإنهزامي لكنك ستعتبرني رجل اليقين الأول عندما تستمع إلى قصة أم أحمد والدّة سائقي وهي والمصحف قصة حقيقة.. تخيل أن الست الحاجة القاطنة بمطار إمبابة رفضت رفضا باتا التخلص من فراخ عشّتها وحلفت أنها ستدعو على أولادها بالسويل والثبور لو أبلغوا الحكومة عن العشة.. مكثفية بتأكيل الفراخ غسل وليمون معصفر لزوم المناعة.. ومبررة موقفها ذلك بأنه لا يوجد أنفلونزا طيور ولا نيلة.. وأن الموضوع كله فيه ملعوب عامله تاجر لحمه وأصل جايب صفقة لحوم من بره.. ومنهية نظريتها بأن شعب مصر محمي بالأولياء وأنه كما تمكّن قبل ذلك من أكل الطيور الجارحة والطيور الفاسدة والطيور المهاجرة وحمامة السلام وطيور الظلام يستطيع أن يأكل طيور عندها شوية رشح بعون الله"، أخذت أستحلفه بالله أن يصطحبني إلى هذه السيدة لأنصحها في الله وأبصرها بالعواقب الوخيمة التي يمكن أن تنتج عن موقفها هذا، وأطمئنتها بأن الحكومة هذه المرة تتحلّى بالشفافية غير كل مرة، فأخذت نفسا عميقا وطبطب على كتفي وقال لي "لا تأخذها يا صديقي.. لأن اللي اتلّسع من الريادة ينفخ في الشفافية".

في مصر حتى بادرنى صديقي المتوجس خيفة بالإتصال قائلا "شفت.. كويس إني قاطعت الفراخ والبيض من شهور وماسمعتش كلامك وكلام الحكومة إن مافيش إنفلونزا طيور في مصر.. كان زمانى باكاكي"، قلت له "كنت أنتظر أن تحمد الله لأن الحكومة عملت بأصلها وأعلنت عن وجود أنفلونزا طيور بشفافية كاملة وأوضحت أن المشكلة تكمن فقط في عشش الفراخ والطيور الموجودة في منازل الغلابة، أما بقية الفراخ بخير لدرجة أن الحكومة أكملها توقفت عن أكل السيمون فيميه والإسكالوب والسستيك ويل دون والسستيك تي بون ولم تعد تنوق من الزاد إلا الفراخ، لدرجة أنها تستعد لتنظيم مائدة فراخ مركزية محورية يظهر الوزراء فيها في برنامج البيض بيضك ليأكلوا الفراخ ويقطعوا قول كل خطيب مرجف في الأرض"، كأني لم أقل له شيئا على الإطلاق، قال لي باستهانة الواصل "يا عم الفراخ اللي بتاكلها الحكومة دي فراخ متعينة بمرتب ثابت، وفي إدارة كاملة بتكشّف عليها وبتراعي طلباتها ده إن ماكانش في كمان ليها طبيب نفسي وأخصائي إجتماعي، إنما الفراخ اللي إحنا بناكلها يا عالم جايه من أنهى مصيبة، والنعمة مانا مصدق إلا لما أشوف وزير الصحة بيجي محل الفرارجي اللي في حنتنا ويتصور مع الفراخ ويبوسها من بقها، ساعتها بس يمكن أصدق"، قلت له "يعني تطلب طلب غير محترم زي ده ويعدين تقولي يمكن أصدق"، قال لي "وأنا إيش يضمني إن الفرارجي مايبيعناش للحكومة.. إذا كان مراتي نفسها أنا مش ضامن تأكلني فراخ فاسدة وتورثني، بيني وبينك بافكر أنتهز الفرصة وأبلغ عنها إنها مصابة بإنفلونزا

كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل بقليل، عندما شق صوت بكاء حاد هدأة الليل في شارعنا المعتم، في البدء ظننت صوت البكاء قادمًا من شقة ما بها كرب طارئ أو فاجعة مفاجئة، فسألت الله أن يلطف بنا ويعبيده، وحاولت تجاهل الأمر، لكن أصوات البكاء أخذت تملأ شينا فشينا بشكل لم يعد ممكنا أن أتجاهله، خرجت إلى البلكونة لأستطلع الأمر، لم تعد الأصوات قادمة من شقق العمارة المجاورة بل أصبحت تتبعث من أحد شقق عمارتي نفسها.

لا بد أن حدثًا جلا قد وقع في البلاد، إنتر يارب، ما الذي حدث وكيف حدث أساسا وأنا أشاهد الآن قناة الجزيرة التي لو كان هناك مصيبة لأذاعتها فورًا، أقلب قنوات الأخبار الموجودة على الدش كلها، ثمة مصائب كثيرة لكن لا يوجد مصيبة تستدعي أن يعلو البكاء من شقة الأستاذ عاطف الأهل الذي لم تجعل له زوجته شيئًا يتبكي عليه حسب تصريحه لها ذات خناقة حامية، الأمر لله، نشوف قناة النيل للأخبار جازي تكون انفردت بخبر المصيبة، كالعادة ليس بها سوى نفس المحلل الإستراتيجي الذي يترثر مع نفس المذيعين الموظفين والمذيعات ذوات المكياج

الجرنان بإفاشل"، كان الأستاذ سيد متعودا على أن يخاطب ابنه العاطل من سنين بهذا اللقب تشجيعا له، أعطاني الفاشل جرنان الأهرام مشيرا لي إلى برواز في صفحته الأولى كان مبللا بعض الشيء، لفت إنتباهي العنوان "كل سنة وإننت طيب ياريس"، بدأت في قراءة السطور الأولى وماهي إلا لحظات وفهمت سر ندم الأستاذ سيد وأسرته وبكاء أهل الشارع بل وأهل مصر كلها من قراء الأهرام، ليس ذلك فقط فها أنا أشاركهم الندم والبكاء وأجتهد في إبعاد الصحيفة عني لكي لاتغرق في دموع الندم التي سالت مني..

"من بين أستار الليل يطلع الفجر.. ومن بين حجب الغيام تشرق الشمس ومن قلب الشدائد والمحن يولد الأبطال العظام.. ومن وسط الأنواء والعواصف يظهر الريان الماهر الذي يقود بسيفه وحنكة وحكمة سفينة الوطن إلى بر الأمان والسلام" هكذا لفتحت الصحيفة العريقة بروازها، صحيح أنني لولا عنوان كل سنة وإننت طيب ياريس لظننت هذا الكلام مقتطفا من آخر ليلة محمديّة يشدو به محمود ياسين أو محمد السبع، وصحيح أيضا أنني تأخرت في البكاء الحار قليلا لم أفهم يعني إيه غيام، فأنا أعرف أن الحاجات اللي بتمر في السماء إسمها الغيوم، وصحيح برضك أنني لم أطمئن لمفردات العواصف والأنواء والريان والسلام فموضوع العبارة الغارقة جعل بيني وبين هذه المفردات قلة عمار وإستخدامه في مناسبة كعيد ميلاد الرئيس فيه قلة دراية لولا التأكد من إخلاص من كتب لظن أنه تلقح صريح، كل هذا

الرخيص، نجيب القنوات المحلية، لا يوجد أثر لأي مصيبة إذا تجاوزنا عن كون كل قناة منهن مصيبة بحد ذاتها.

لازال صوت البكاء يعلو من الشقق المجاورة، لم يعد صوت بكاء حاد بل أصبح صوت نشيج يقطع القلب مصحوبا بعبارات مثل "سامحنا.. ليه ماخذناش بالننا من كده.. يارب غفرانك"، مايدهاش بقي، لن أفك مكتوف الأيدي هكذا، سأجد الخير اليقين لدى جاري اللزم الأستاذ سيد، ربما كانت المصيبة قاصرة على شارعنا بحيث تبادل الناس أخبارها في التليفون، هرعت إليه طارقا بابه، فتح لي والدموع تهلل فأنلته الحملات، "مالك ياأستاذ سيد.. كفى الله الشر"، رد وهو يحاول مسك نفسه بالعافية "ماقيش .. ندمان شويتين"، كان يبدو من صوت بكاء ووعويل المدام والأولاد المتحلقين في الصلاة أنهم يشاركون الأستاذ سيد في ندمه، "مش عايز أفتحم ندمك.. بس في حاجة أقدر أقدمها"، لم يجب سؤالي فقد زعق في أكبر أبنائه فجأة "ماتعيطش على الجرنان ياحيوان"، كان إبنه الأوسط الشهير بحيوان ممسكا بصحيفة الأهرام يقرأ شيئا ما في صفحتها الأولى ثم يبكي ويمررها لأخيه الأصغر الذي أخذ يقرأ لأمه الأمية بعض ماهو مكتوب فيها بصوت مختنق بالدموع فتلطم الأم ويتجدد بكاء الجميع. بانث الروية إذن، هناك مصيبة في البلد وأنت أيها الغافل لاتدري عنها شيئا، "هو في إيه بإسطي سيد.. ماترموني على الحكاية جازيز أشارككم الندم"، قال الأستاذ سيد بعد أن جفف غدده الدمعية ونظف غدد مناخيره "إننت بالذات هنتدم قوي.. هات له

صحيح نكن الأصح أن الكولبيه الثاني في برواز الأهرام أعادني إلى رشدي وسان جيوفاني ولوران من جديد، وجعلني أنخرط في بكاء حاد وأنا أقرأ ماهو مكتوب " نحتفل كنا هذه الأيام بعيد مولده ونحن معه وهو يقود سفينة الوطن - هناك تصميم على حكاية السفينة لأدري لماذا نكن بالله مش إشكال - غير خائفين أو هيابين متقدمين لامتراجعين.. متفائلين لامتشائمين.. معه وبه يمضي زورقنا - فجأة من سفينة إلى زورق لأدري لماذا هل غرقت السفينة وأصبحنا في زورق النجاة لم يتم تحدي ذلك - .. لكي نرسو كنا على شاطئ بلا ألغام.. بلا أوهام.. تظلنا معا أشجار التحدي والتصدي - لم أكن أعرف أن هناك أشجار تحدي وتصدي فأخر علاقتي بالأشجار شجرة القرع - لامكان بيننا لمخازن هراب ولا لمتوجس مراتب.. ولامقعد بيننا لحاسد أو حاقد ولاكاره لوطنه ودينه وبيته - الآن فهمت سر بكاء الأستاذ سيد فهو كل يوم بعد عودته من الشغل يشتم زوجته قائلاً ملعون ابوكي كرهتيني في بيتي ويبدو أنه عرف غلطته الآن وأنه يمكن أن يفقد مقعده تحت شجرة الوطن لو ثبت أنه كاره لبيته.

لم أستطع إكمال قراءة برواز الأهرام فقد صرت خاشعا متصدعا من حب الرئيس، هرعت خارجا من شقة الأستاذ سيد لأتركه هو وأسرته يغرقون في بحار الندم لأنهم لم يوفوا الرئيس حق قدره طيلة هذه السنين، قال لي الأستاذ سيد معانبا "مش تستي لما تقرأ إنجازات الرئيس عشان تندم قوي"، قلت له "ندمان من غير ما أقراهم.. لازم أروح ألحق أجيب نسخة عشان أعيط

براحتي وألحق أعدي على بتاع الزرع أجيب شتلة تحدي وتصدي بدل الورد والكلام الفاضي اللي أنا زارعه في البلكونة.. أجيب لك معايا شتلة"، قال لي " لا أصل أنا قلت أجيب شجرة حكمة من اللي كاتبين في برواز الأهرام أن سيادته حجز مكانا لمصر تحتها.. هي مشكلة شجرة الحكمة إنها بتسحب مية كثير بس أهو الواحد يكفر عن أخطائه شوية"، قيل أن أخرج من باب شقة الأستاذ سيد جذبي من قميصي حتى كاد يقده من خلاف وقال لي بصوت متهدج "مالبتاش خارج إلا لما تديني العهد الأول"، بسطت بدي إليه وانضم إلينا أهل بيته إلا امرأته التي وضعت يدها على كتف زوجها منعا لوساوس الشيطان، وضعنا أيدينا على برواز الأهرام بما فينا الفاشل الذي لم يجد عملا من أربعة سنين، وأخذنا نهتف من أعماق قلوبنا بصوت جهير لكي نسمع من في العمارة قائلين "بنا إلى الله ورجعنا إلى الله وندمنا على إنتقادنا لسياسات السيد الرئيس وعزمنا على ألا نعود إلى ذلك حتى عيد ميلاد سيادته القادم" ثم إنخرطنا جميعا في بكاء مريز لم نتوقف عنه حتى الآن.

وتعيش لنا للممات ياريس.

ياقمرنا إنت ياسكرة!

هل أعجبتك هذه العبارة؟.

ودي عايزة كلام؟. بالتأكيد أعجبتك فأنت مواطن مصري صالح يحب رئيس بلاده كثيرا ويلهج لسانه بالدعاء له بظهر الغيب ويتمنى أن يقابله ذات جولة تفقدية مفاجئة ليقترب منه ويقول له "إني أحبك في الله"، صحيح أن من سيرد قائلا "أحبك الله الذي أحببتني فيه" هم ضباط أمن الدولة الذين سيحققون معك بكل لطف كرتونسي حول سر إقترابك المفاجئ من سيادته، لكن ذلك بالتأكيد لن يمتنعك من التعبير عن حبك وإمتنانك للرئيس العظيم الذي أفنى عمره كله من أجل شعبه ووطنه، دون أن ينال من وراء ذلك شيئا، حتى عندما حاول أعضاء الطابور الخامس المندسين في الصحف القومية أن يشوهوا صورة سيادته فيقولوا أنه تبصرع بعشرين مليون جنيه من جيبه الخاص لشراء أجهزة طبية لمستشفيات الصعيد نسي الحاكم السابق لمصر خلال الربع قرن الماضي أن يشتريها، اندفع إثر ذلك الخبير النهيغ حفنة من المعارضين يحتجون ويرغون ويزبدون دون أن يتبينوا من النبأ الذي ساقه بعض الفسقة والمرجفين في الأرض، لكن شمس الحقيقة سطعت في اليوم التالي عندما أعلن مصدر مسئول أن كل

مانشر في الصحف القومية كان تهيوأت وأن الرئيس مبارك ليس لديه عشرين مليون ليتبرع بها، وأنه أصدر تعليماته بصرف العشرين مليون هذه على وجه السرعة، وبدلاً من أن تشكر سيادته ونبوس إيدينا شعر ودقن على رأي اللمبي أخذنا نتساءل بكل جحود: من أين له هذا؟. طبعاً من حسن حظ الصحف القومية أن الحكومة لن تعاقبها بقانون الشائعات الجديد الذي أصدرته مراعاة لطول مدة الخدمة، ومن حسن حظنا أن تم التصحيح سريعاً لكي لايقوم أهل العيون المدورة بحسد جيب سيادته الخاص الذي اتضح أنه ليس مليناً بالملايين كما حاول أهل الصحف القومية أن يروجوا.

لكن ماشأن كل هذا بالعبارة السابقة؟ بالمناسبة أرجو ألا تكون متأثراً بقرار رفع التـحفظ عن أموال قرصان أواطي البحار ممدوح إسماعيل صاحب العبارة الغارقة وصاحب الدكتور زكريا عزمي رئيس ديوان رئيس الجمهورية فقراً كلمة العبارة بتشديد الباء، فلاشأن للحديث عن رئيسنا ونظام حكمه بأي عبارات غارقة أو آيلة للغرق، نحن هنا نقوم بتحليل تلك العبارة التي كانت سبباً لقسراعتك لهذه السطور "وتعيش لنا لللمات ياريس.. ياقمرنا إنت ياسكرة؟". من قائل هذه العبارة؟ إذا عرفت الإجابة فاتصل بصحيفة أخبار اليوم واطلب مكتب السيد رئيس تحريرها ممتاز القط واترك عنده الإجابة لتحصل على جائزة فوار يعالـجك من آثار قراءة مقالاته.

لن تفعل ذلك طبعاً لأنك سيستحيل عليك أن تعرف قائل هذه

الكلمات البليغات المئينات بالحب الصادق الذي كما نعرف جميعاً عمره مايحـتاج لكلام طبقاً لتأكيد السيدة أم كلثوم، لكن الحب الصادق في حالة حب السيد الرئيس يحتاج لكلام كبير مثل هذا. في الحقيقة ولكي لايحـتار حمارك أكثر من هذا، التي قالت هذه الكلمات سيدة ريفية بسيطة اعترض طريقها مصور قناة الجزيرة في أحد شوارع القاهرة أثناء تصويره لمظاهرة لبعض المارقين من معارضي الرئيس مبارك والذين كانوا يقومون بتزديد أذع الألفاظ الخارجة عن الآداب العامة مثل "كفاية.. ياقتضاة خلصونا من الطغاة.. ياحرية فينك فينك أمن الدولة بيننا وبينك.. لا للتوريث" وماإلى ذلك من العبارات التي تثبت أن أهاليهم لم يعلموهم أن الشتيمة تلف وتلف وتتـحط في الملف، كانت السيدة تمر خلف هؤلاء القبحاء - جمع أبيح - عندما تحولت الكاميرا إليها فجأة فابتسمت ملء شديفها ورفعت إحدى يديها إلى السماء، فقد كانت الأخرى ممسكة بكيس بلاستيك إسود مليئ بخيرات مصر، وأخذت تغمغم بجمال غير مفهومة ظنها البعض جملاً معارضة مشفرة لولا أنها ختمتها بقولتها التي ستصير مثلاً "وتعيش لنا لللمات ياريس.. ياقمرنا إنت ياسكرة". الله، شايقين الحب التلقائي العفوي، وأيم الله لقد اقشعر بدني وشاب شعر يدي عندما داهمتني هذه الكلمات وبدأت أفكر في كل الكلمات التي خطها يراعي في معارضة الرئيس مبارك دون أن ندرك أن حبه ضارب أطنايه في قلوب بسطاء المواطنين الذين صيرهم حب الرئيس شعراء ينطقون بما يعجز عنه فحول الشعراء.

من أين أوتيت هذه السيدة بكل هاتيك القدرة على تكثيف معاني الحب في كلمات قلائل، وكيف استطاعت أن تجمع بين الفصحى والعامية ولغة الصحافة فضلا عن لغة الجسد بهذا الشكل المعجز دون أن تلجأ لما درج العامة على ترديده من عبارات المديح المبتذلة التي لاتعلق في الأذهان والتي تقضح العيون كذبها وبهتانها؟. لاتفسير عندي لهذا سوى ما يقوله دارسو الشعر ونقاده عن كون الشعر ينبع دائما من أصالة التجربة وصدقها، وأغلب الظن أن هذه السيدة خاضت تجربة حياة حافلة، حافلة بإيه .. ورقم الحافلة كام.. مش مهم، المهم أنها حافلة وخلص، ولذلك فقد نطقت بهذا الشعر المكثف الذي سيدخلها التاريخ عن جدارة جنبنا إلى جنب مع شعراء البيت الواحد الذين قبض الله لهم الأصمعي ليحفظ مآلوه، ولعله جعلني سببا لكي أحفظ مآلته لكي يكون شهادة بليغة على عصر الرئيس مبارك، خاصة أننا لم نعد نورث للأجيال القادمة شهادات نكتبها على جدران المعابد فلم يعد دخولها في متناول المواطن العادي، أو حتى على جدران الكباري أهم منجزات عصرنا فقد جعلها الذين لايصنونون النعمة مكانا للصنان وبدلا من أن يصيروها مراكز إشعاع ثقافي تصيروا فيها والعياذ بالله.

لكن من قال أن ذلك يمكن أن يمنعنا عن تسجيل هذه العبارة الخالدة في أي مكان نقدر عليه لكي تكون شاهدا على النعيم الذي عشناه في عهد الرئيس مبارك، خاصة أنها لم تصدر عن رجل أعمال كأحمد عز من حقه أن يدعو بمثل هذا الدعاء لمن كسب

المليارات في عهده، أو عن كاتب موالس كان كبيره يمسك الخشب فمسكوه رئاسة تحرير، أو عن قَط مسكوه مفتاح كرار الوزارة. فلو صدر هذا الدعاء عن أي من هؤلاء لما وقر في قلوبنا هكذا لكنه صدر عن مواطنة بسيطة يشي مظهرها ساعة التصوير بأنها كانت عائدة من مقر عملها، ولو لم تكن أسارىها منبسطة وخلجاتها راضية بماترديده من "خلجات" وتحمله من خيرات الدنيا وأطايب الحياة لما لهجت بمثل هذا الدعاء. إنها باختصار واحدة من محدودي الدخل الذين كنا نخوض ونلعب ساخرين من قول سيادة الرئيس أنهم في عقله وقلبه، ثم جاءت هذه السيدة بدعائها لتكشف غينا وزيفنا ويتضح لنا أن القلوب عند بعضيها وأن الرئيس أيضا هو في عقول وقلوب محدودي الدخل، وليس على السادرين في غي المعارضة إلا أن يطلعوا منها ويتوقفوا عن لعب دور العذول ويقولوا لأنفسهم في لحظة مكاشفة "ربنا يهني سعيد بسعيدة وشعبنا برئيسه"، ولعلمهم يدركون خطل وهطل منهجهم الذنيوي البراجماتي الإمبريقي الذي يفترض أن حب الشعب لرئيسه لابد أن ينبع من غرق هذا الشعب في العز وأكل الوز، وخلوه من الأمراض والعلل، وتمتعه بما لذ وطاب من الأكل والشراب، مع أن المواطن منا لايجب أن يبتغي من الدنيا سوى قبر يلمه أقصد لقمة تسد رمقه وشربة تروي ظمأه ومكان محنق يحب فيه رئيسه ويدعو له قائلا "وتعيش لنا للممات باريس يا قمرنا إنت ياسكرة".

لقد أشعرني هذا الدعاء الجليل بصدق وعمق ذلك الكلام الذي

قاله يوماً ما الرئيس جمال عبد الناصر عن كون الشعب هو المعلم الأعظم، وبعد أن كنت أسخر من ذلك الكلام وأقول " إذا كان الشعب معلماً أعظم فلماذا إذن ترك عبد الناصر كرايبيج رجاله تعلم على جسد الشعب"، لكنني الآن أيقنت أن عبد الناصر على حق، فقد تعلمت أنا الكثير من هذه السيدة التي جعلتني أتأمل أنني برغم كل ما أنا فيه من نعم لأشكر الرئيس مبارك ولأدعو له، ولذلك فأنا أقضي وقتي في الحق والسخط والمعارضة، بينما هي لا تكف عن الدعاء له بأدعية يعجز عن قولها كبار المتصوفين ولذلك فقد كانت الإبتسامة تملأ شفتيها وتير وجهها المكدود من عناء المحبة. وما أحوجكم إلى أن تسلكوا مسلكته فتتعلموا من هذه السيدة التسامح والدمائة والبلاغة فتلهج ألسنتكم بأدعية كالتي دعت بها، أما إذا لم يزركم شيطان الشعر الذي زارها فاكثفوا بأن ترددوا دعاءها وتحفظوه لأولادكم وتعيش لنا للممات باريس. ياقمرنا إنت ياسكرة"، وإذا سألكم أحد الذين لم يثبت حب الرئيس في قلوبهم "يعيش لممات مين بالضبط" فقولوا له على الفور " لممات الشعب طبعاً ياقليل الأدب".

رمضان في منشية ناصر

١٨ يوماً فقط!

جاعني صديقي الغيور على دينه وهو نائر ومنفعل ويضرب
كفا بكف ويقول لي أنه لم يكن يتصور أنه سيأتي اليوم الذي
ترتكب فيه المعاصي في مصر جهارا نهارا دون خشا أو حياء.
حاولت تهدئة نائرتة لكن نائرتة رفضت، فطلبت منه أن يتركها
حتى تهدأ لوحدها ويبادر ويحكي لنا عن المعصية التي استقرته
إلى هذا الحد، فقال لنا أنه لم يشهدا بنفسه وإلا لما كان قد أغفل
واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن صديقا ثالثا لنا
للأسف حكى له أنه رآها دون أن يغيرها، بدأ كلامه بغير دمي،
فقلت له: يا عم خلص وإحكي لنا عنها لعلنا نذهب سويا لنغيرها.

بسم صديقنا وحوقل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ودم
إلى هذا الزمان أهيله ثم قال لنا أن صديقه روى أنه اضطر
لبعض شئون دنياه أن يذهب في نهار اليوم الثامن عشر من شهر
رمضان إلى حي منشية ناصر أحد أشهر الأحياء العشوائية
والفقيرة في مصر ففوجئ أن الناس فيها يفطرون جهارا نهارا
دون أن تبدو عليهم آثار السفر أو المرض، بل بالعكس كانوا في
منتهى الحبور والسرور وكان أطفالهم يلبسون ملابس جديدة
ويقومون بفتح اليمب في الشارع، ونساؤهم يسرن بصواني الكحك

والتوقيت.. فأهل منشية ناصر يعتبرون أنفسهم فوق لأسباب
 جيولوجية لا طبقية). ظن صديقنا الأمر اشتغاله فخط فيه قائلا
 "جرى إيه يا عم.. إنت هتخسرني صيامي.. عيد إيه وزفت إيه..
 خلصني خليني اشوف مصلحتي.. عشان شكلكو هنا فايقين
 ورايقين"، أخذ المنشاوي الناصري - نسبة إلى منشية ناصر -
 يهدئ من روع صديقنا وعزم عليه لأكثر من مرة أن يشرب
 ليمون لكي يروق دمه، ثم توقف عن ذلك لما وجد هذا العرض
 يزيد من انفعاله، ثم حكى له أن الحكومة هذه السنة عملت شهر
 رمضان ١٩ يوم بس كهدية للناس بمناسبة فوز الرئيس في
 الانتخابات وأن شيخ الأزهر قال أنه لا يوجد مانع طالما رأى ولي
 الأمر أن في ذلك مصلحة للناس خاصة والإسلام دين يسر
 لا عسر، هب صديقنا نائرا يريد أن يفتك بالمنشاوي الناصري
 وأخذ يتهمه بالهرطقة والزندقة، لكن الرجل استشهد له بأكثر من
 جار له أكدوا له نفس الكلام، ثم استدعوا عم الجارحي الموظف
 السابق بشركة أليان والخارج معاش مبكر وهو من أكبر أهل
 المنطقة سنا وأكثرهم ثقافة وعلما، وقد حاول عم الجارحي أن
 يمتص غضب صديقنا القاهري فأكد له أن هذا الكلام جاء بتوجيه
 من السيد الرئيس القادم جمال مبارك، وأنه تم نشره في جريدة
 روز اليوسف التي يعلم الجميع أنها جريدته المفضلة. انفعل
 صديقنا بشدة وقال له: والمصحف لأنزل أبلغ عنكو في الأزهر
 دلوقتي يقيموا عليكم الحد، ولا عشان كفرانين من عيشنكو
 هنكفروا رسمي، خاف الجمع من تهديد صديقنا فأخذوا يعاتبونه

والغريبة في الشارع، بل وأن امرأة منهن عزمت عليه بقطعة
 غريبة ساخنة كادت عينه تطلع عليها، وعندما تمنع خوفا من الله،
 قالت له: ماتخافش دي معمولة بسمن النخلتين، لكنه أبى أن
 يعصي الله ويأكلها حتى لو كانت معمولة بسمنة روابي ذات
 الطعم البلدي وتحدي، ونهر المرأة التي شتمته شتمة قبيحة كان
 بمقدوره في العادي أن يردها عليها بأحسن منها، لكنه خشى على
 أجره فالتقى بأن يقول لها: اللهم إني صائم، ثم لم يقدر فقال لها:
 ربنا يسامحك يابنت الكلب، عازما أن يحتج بين يدي الله بأن هذه
 ليست شتمة بل تقرير واقع، ومضى في طريقه وهو ينظر إلى
 أطفال المكان وهم يلعبون بالمراجيح البلدي ويرشقون بعضهم
 بمياه المجاري في حبور، دون أن يفهم ما الذي حدث لهؤلاء
 الناس، ظن أن الفقر أفقدهم عقولهم ومن ثم أفقدهم إيمانهم، فقرر
 أن يضربوها طبنجة ويفظروا في نهار رمضان لعلمهم بذلك
 يجذبون أنظار المجتمع إليهم فيبدأ في حل مشاكلهم المعقدة وينظر
 إليهم بعين العطف والرضا، أخذ صديقي يدعو الله أن يقه شر
 الفقر الذي يفضي إلى الكفر، كان قد وصل إلى الصديق الذي
 قصده لبعض شئون دنياه، فزاد من حيرته أن صديقه سلم عليه
 بحفاوة وقال له "كل سنة وانت طيب"، قال له "طيب إيه بقى هو
 انتو خايبتو فيها رمضان ولا نيلة.. ده إنتو عيديتو مع نفسكو"،
 استغرب صديقه كلامه وقال له "مانا باقولك كل سنة وانت طيب
 بمناسبة العيد.. هو إنتو ماعيدتوش تحت" (كان يقصد بتحت هذه
 القاهرة الكبرى وضواحيها والمقيمين خارجها مع مراعاة فروق

على أنه ظن بهم الشر وتخيّل أنهم يمكن أن يفطروا جهارا نهارا لمجرد أنهم كفرانيين من عيشتهم وفقدهم، بل وقال له أحدهم " معقولة نعمل كده عشان نعيش في جهنم دنيا وآخرة"، استلم عم جارحي زمام الحديث ثانية وقال لصديقنا أن كل الحكاية أن " ست الكل السيدة سوزان مبارك زارتنا هنا في المنشية الأسبوع اللي فات ونورت الدنيا كلها.. وانبسنا بيها وانبسنا بينا وبعد مامشيت قرينا في الجرايد حكاية إن الحكومة هنقدم العيد في منشية ناصر، فرحنا قوي وقلنا أخيرا الحكومة حست بينا وإننا صابمين طول السنة ومش لاقيين اللضا وقالت الناس الغلابة اللي في منشية ناصر يصوموا السنة دي ١٨ يوم بس.. وإحنا عارفين إن القرار ده مش لوجه الله.. لا.. ده عشان ننتخب مرشحين الحزب الوطني.. وبصراحة إحنا هنعمل كده عشان الخدمة اللي اتعملت ده ماكانش يقدر يخلصها لنا غير الحزب الوطني ربنا يبارك له.. صدقت بقي إن احنا ماينعشيش ربنا لاسمح الله".

قلت لصديقي: ماتحكىه مرعب لكنني لأصدقك، صحيح أن زيارة السيدة سوزان مبارك لهذه المنطقة حدث مهم لأنها تأتي بعد سنوات من التجاهل الرسمي، وصحيح أن السيدة سوزان مبارك كما قال عنها القط الممتاز في مقاله في أخبار اليوم "ندرت حياتها لإسعاد الفقراء والمهمشين"، لكن كل ذلك ليس كافيا لكي تقامر الحكومة بتخفيض شهر رمضان ولو على سبيل الدعاية الانتخابية أو حتى التخفيف عن الناس احتفالاً معهم بفوز الرئيس مبارك، خاصة والبلاد مولة بعد حكاية مسرحية الفتنة الطائفية في كنيسة

محرم بك وضرب عساكر الأمن المركزي للمتظاهرين الغيورين على سيدييات دينهم، ويصعب على الحكومة أن تغامر بالقيام بحركة مثل هذه، عموماً الأمر لا يستحق السكوت، ولا بد أن نذهب سوياً مع صديقك إلى منشية ناصر لنشاهد بأنفسنا. قال لي: طيب استنى بعد الفطار أصل نفسي في الغريبة اللي حكى صاحبنا عنها.

بعد الإفطار ذهبنا لصديقنا الذي استغرب تأهينا وتحفزنا للذهاب إلى منشية ناصر، وعندما عرف السبب وقع منا على الأرض من شدة الضحك، ولم يتوقف عن الضحك إلا بعد أن نهرناه بشدة وكدنا نضربه، وعندما هدأ قليلاً خشية من ثورتنا قال لنا أنه فعلاً ذهب إلى منشية ناصر لكن كل ما حكاها كان من وحي خياله، اشتغالة يعني، وأن مادفعه لذلك هو أنه قرأ مقالا لرئيس تحرير روز اليوسف عبد الله كمال يعلق على زيارة السيدة سوزان مبارك لمنشية ناصر قائلاً بالنص "العيد جاء مبكراً في منشية ناصر" فتخيّل صديقنا كل السيناريو الذي حكاها إمعاناً في العيب الذي جعل عبد الله كمال يكتب كلاماً مفضوح الموالسة كالذي كتبه، انهلنا عليه ضرباً وتقريعاً لأنه لعب بأعصابنا وكان يمكن لنا لو قررنا أن نغير المنكر بدون أن نصطحبه أن نفقد حياتنا في منشية ناصر إذا ما ذهبنا إليها لنلوم أهلها على إختصار شهر رمضان والتقريط في حد من حدود الله. وبعد طول الضرب اعترف لنا صديقنا أن شأن الدنيا الذي ذهب إلى منشية ناصر بسببه هو أنه كان رايح يجيب حشيش. فلمنا أنفسنا لأننا نسينا

حقبة أمره وصدقنا حشاشا أراد أن يسخر من مواسن فنسب إلى
أناس أبرياء مؤمنين مثل أهالي منشية ناصر ما لا يمكن أن يفعلوه.
كل سنة وأنتم طيبون، وكتب الله لنا ولكم زيارة السيدة سوزان
مبارك بإذن الله.

معدوم يشتري ترپاسا!

أصحي الصبح ما ألقاش أعضائي
معدوم: ياعم يعني هي كانت عملت لك إيه أساسا.. على الأقل لو اتأخذت منك هتريحك من الإحراج
محدود: على رأيك.. بس والله الناس اللي مانت دي حاجة تقطع القلب.. ربنا يرحمهم برحمته.. اللي حصل ده مخلي الواحد يشك في صواب رجليه
محدود: إيه ريحتهم وحشة؟.. بص لما تروح بلاش تغسلهم بمية سخنة.. هي اللي بتعمل الريحة
معدوم: مية سخنة إيه ياعم.. هو أنا باغسلهم أساسا.. المية مقطوعة بقى لها فترة.. من ساعة ما حصل عطل مفاجئ في الماسورة الأم وهم مش عارفين يلاقوا لنا أم تانية عشان نستحما
محدود: وهي الأم تتعوض
معدوم: أبدا.. المهم قصدي أقولك إن اللي حصل ده مخوف الواحد من كل اللي حواليه.. حتى قرابيه الأنتم
محدود: بالعكس دي فرصة عشان تطهر الجبهة الداخلية
معدوم: أظاهر الجبهة الداخلية إزاي يعني
محدود: بطل هزار.. أنا شايف إن اللي حصل ده يخليك يبقى عندك سبب تقطع علاقتك بكل قرابيك وقرابيك مراتك.. منها توفير للعزائم والحفلات وأعياد الميلاد والظهور وهدايا النجاح والخيلة الكدابة دي.. ومنها تضمن إن ما حدش فيهم يطلع سوكوباتي ولا ملعوب في نفسه
معدوم: وهو في حد في البلد مش ملعوب في نفسه.. ده أنا

مسرحية من فصل مريز - للكبار فقط
(كعادتهما كل يوم يلتقي المواطنان محدود ومعدوم لمناقشة هموم الوطن على قهوة العدم.. يسخران من كل حدث أيا كانت قسوته على أساس أن شر البلية ما يضحك.. ويتمنيان البلا قبل وقوعه على أساس أن البلا واقع لامحالة.. في هذه المسرحية المنظر ثابت والديكور ثابت وسعر المنتج ثابت.. لاتوجد أي حركة مسرحية تذكر.. على الممثلين الأداء بشكل طبيعي وعدم الإجهاد في توصيل الحوار لأن المفروض ألا يصل).

محدود: شفت ياعم.. مسكوا السفاح بتاع قرية بني مزار.. طلع سوكوباتي.. يعني مافيش لاعصابة بتقطع الأعضاء الذكورية وتفتح بيها طرب الفرانة ولانيلة
معدوم: أنا ماكنش مصدق الموضوع ده.. أعضاء إيه اللي تفتح طرب.. ما طول عمرنا ماشيين بيها ومافتحش علبه تونة
محدود: أسكت ياعم ده الواحد عاش في رعب اليومين اللي فاتوا.. طول عمري عايش مش خايف من الحرامية عشان ما عنديش حاجة تتسرق.. حتى العمر ذات نفسه اتسرق خلاص.. جه السيوم اللي أقفل الباب بالترباس وأتم على الشبابيك أحسن

قعدت أفكر في ظروف الناس اللي معايا في العمارة لقيت يطلع منهم ثلاثة سفاحين وكذا قاتل مختل وثمانية "مجرم موتور"

محدود: ياريت على كده وبس.. زمان كان أحسن حل تقفل باب شقتك عليك.. دلوقتي أحسن حل تقفل باب أودتك عليك.. مانيت إيش ضمنك يكون إينك بيتعاطي مخدرات.. ولا مرانك عضو في عصابة سطو مشلح.. لازم تخلي تعاملك مع الناس كلها رسمي.. ماحدش ضامن الظروف

معدوم: بس لعلمك اللي حصل ده يمكن يهون مصيبة إخواننا السودانيين اللي البوليس قتل قرايبهم المعتصمين في جنيحة ميدان مصطفى محمود ويكنعهم يعني إن الموت في مصر مش صعب قوي.. مش لازم تعتمس في جونيحة عشان تموت.. ده إنت ممكن تموت وإنت في قلب الترينج اللي لابسه.. ده لو ماكانش الترينج بيتغسل

محدود: بص بقى أنا صعبان عليا الإخوة السودانيين وربنا اللي عالم يزعلي عليهم بس أنا يعني شابف إنهم ظالمين الحكومة بتاعتنا قوي.. قعدوا يطالبوها تعاملهم معاملة المصريين.. الحكومة قلبها رحيم ورهيف قعدت تقولهم ثلاث شهور بلاش معاملة المصريين.. خليكو سودانيين أحسن.. صمموا.. قامت مليية طلباتهم وسلطت عليهم الأمن المركزي يعاملهم معاملة المصريين.. طب تزعلوا ليه.. مش انتو طلبتو معاملة المصريين

معدوم: يحمدوا ربنا إن الحكومة موتتهم على طول مش زي ماموتت اللي طلعوها ينتخبوا.. الأول سلطت عليهم الباطجية

والشراشيح بلتسكوا بيهم.. إنما إخواننا السودانيين على الأقل ماتوا بكرامتهم

محدود: إنت عارف لو اللي اعتسموا دول كانوا مصريين ماكانوش سابوهم ثلاث شهور.. كانوا فضوهم في ساعتين وتلت

معدوم: قصدك فضوا اعتصامهم

محدود: لا.. قصدي فضوهم.. وإنت قاريني بقى.. على فكرة أنا زعلان من إن الدكتور نظيف زار عساكر الشرطة اللي اتجرحوا ومازارش السودانيين.. دي مش أخلاق الناس الطوال

معدوم: يزورهم إزاي ياعم.. ده لو شافوه كانوا كلوه بسنانهم.. وهو ماشاء الله ممكن يكفي خيمتين تلاته أكل.. الرجال مصر محتاجه

محدود: محتاجه في إيه

معدوم: مصلحة كده.. ماتوجعش دماغك.. يالله سلام

محدود: رايح فين

معدوم: رايح أشترى ترباس لشباك المطبخ عشان السفاحين

محدود: وتشتري ليه.. هاديك الترباس بقاعي

معدوم: وإنت تنام من غير ترباس.. مش خايف على نفسك

محدود: بيني وبينك.. أنا أتمنى ربنا يرزقني بسفاح.. يرزقني من غلبي.. على الأقل أضمن أموت شهيد.. وأقضيها في الجنة غسل ولبن وخمرة.. وأهم شئ أنهار مية مابتعطلش مواسيرها الأم

معدوم: ياسيدي ربنا يوعدنا جميعا.. بس إفرض السفاح جه

وإنت مش في البيت والجماعة لوحدهم
محدود: ياه.. ده يوم المنى.. أهوه يرحمني من مراتي ومن
أعضاءها

معدوم: المهم ربنا يكرمنا بسفاح يخلصنا من أعضاء
العصابة اللي ناهيانا. قول يارب. سلامو عليكو

عبد الله سينا أومباسييل!

عرفت عبد الله محمد الشهير بعبد الله سيثا في وقت كنت
أظن فيه وبعض الظن إثم أن التصدع الدائم والإنهيار المتوالي في
الحياة شرط أساسي لكي يكون الإنسان مثقفا.
عبد الله البالغ بشق الأنفس ٢٤ عاما والحي الذي لا يرزق
بشبرا الخيمة كان واحدا من المعلمين العظام الذين تعلمت منهم أن
الرجل الحقيقي هو الذي لا ينخ للحياة ولا يطاق لها، كان لدي
أحزان حياتية بعضها حقيقي وبعضها وجودي، لكنني عندما
عرفت عبد الله وعاشت أحزانه التي تخزيق الجبال الرواسي،
توقفت منذ لحظتها عن التصدع والإنهيار وأدركت أنني لن أكون
شاعرا أبدا وأن الشعر مش بالعافية، ومن ساعتها وكلما واجهت
هما أو أزمة أتذكر وجه عبد الله السيف وهو يذكرني بجملته
الفلسفية المركزية " مطرح ماترسي دق لها.. لحد ماهي تدفق".
عندما عرفت عبد الله قبل سبعة أعوام كنت صحفيا يشار
إليه بالبنان في زمن كثرت الإشارة للصحفيين فيه بالوسطى، كنت
أخذ مرتبا يبلغ ستة أضعاف ما يقبضه عبد الله الذي كان يقبض
مائة وخمسين جنبيها في هيئة السكة الحديد، سألته مرة "إنت
بتشتغل إيه في السكة الحديد يا عبد الله"، فقال لي "مش عارف بس

بيشكروا فيا في الشغل". كثيرا ما حمدت لعبد الله أنني على سوء ظروفه المادية لم أضبطه يوما ما متلبسا بالإستلاف مني، كان لديه حرص أزلي على أن يؤكد لي أنه ليس بحاجة أبدا إلي، بل ظل سنوات يحاول إقناعي بالتدخين "عشان نعرف نعزم عليك بواحدة كوكو الضعيف"، كان يريد طيلة الوقت أن يشعرني أنه موجود، حاولت كثيرا أن أفسد عبد الله بجعله يدمن القراءة ونجحت، لكن عبد الله كان مؤصلا فلم تؤثر فيه الكتب التي قرأها، مع أنني تعمدت أن أعطيه كتباً ستحوله لامحالة إلى إنسان مخوخ مثلي ومثل كل من قرأها لكنه ويرغم قراءته لها ظل لرب الدهر لا يتصدع، حاولت يوما ما أن أحصل منه على تفسير فقال لي 'بص يا عم مشكلتك في الحياة إنك اتولدت لقيت في بيتكو تلاجة'، ثم هز رأسه وسكت، بدا التفسير لي مقنعا لكنه أصابني بشناوم شديد عندما أدركت أن أبنائي من بعدي سيصابون بنفس نخوخي النفسي لأنهم بالتأكيد سيولدون في بيت به تلاجة.

في يوم فلس عظيم منعت نفسي بصعوبة من أن أحقق لعبد الله انتصارا تاريخيا بجعله يسلفني قرشين، أو ٢٠٠ قرش بمعنى أصح، ولكي أغلوش على رغبتني المحمومة في السلف سألته غاضبا "يا عم إنت ازاي عايش حياتك ومقضيها بمرتب ١٥٠ جنيه بس وأنا اللي ياخذ قدك ست مرات مش قادر أعيش.. هي فلوسي حلال وفلوسك حرام.. ولا تكونش بتسرق.. ولا بتتاجر في المخدرات.. ماتقهمني إنت إيه بالضبط"، كان سؤالي اقتصاديا امبيريقيا بحثا لكنه قلب بجد ونكد وقلب المواعع كلها على عبد

الله، قال لي "يااه.. تخيل دي أول مرة حد يسألني إنت إيه بالضبط.. الله يسامحك"، أخذ عبد الله يقول كلاما أفرعني وأطار صوابي فطلبت منه أن يتمهل ويتخيل أنه يدلي بشهادة عن نفسه يكون دوري أن أوصلها للناس لكي يعرفوا أنه كان على هذه الأرض واحد اسمه عبد الله كان أرجل بكثير من عبید آخرين لله، لعب الموضوع في دماغ عبد الله وبدأ يفكر في عنوان مقترحا عنوانا مبدئيا "كفاحي ياولاد الوسخة"، أخذته على قد عقله، لكنه أدرك أنني أستغله حتى يبدأ في الحكى، ولذلك قال لي "بص أنا قررت أن أسمي شهادتي سينا أومبيسيل"، كان عبد الله قد سمع هذه الكلمة من سائحة فرنسية تكاثر عليها أبناء مصر البررة في محطة مصر ليروها حفاوة واحتضان أولاد البلد، وكانت تصرخ مرددة "سينا أومبيسيل" وهي تحاول الهروب منهم، أعجبت الكلمة عبد الله وخيشت معه، فكلفني بالسؤال عن معناها، وعندما قلت له أنها تعني "مش ممكن أومش معقول" فرح بالجملة فرحة الناجي أكثم وهو خارج من أنقاض عمارة هليوبوليس، فاتخذها لسان حال له يخاطب بها كل من حوله، حتى صار إسمه في المنطقة عبد الله سينا امبوسيل، لم يكن مهما بالنسبة لي أن يكون إسم شهادة عبد الله ما يكون، كان المهم أن أسجلها للتاريخ وكفى، كنت أريد أن أنتزع من عبد الله شهادة على حاله وحال أقرانه من السكان الأصليين لمصر، شهادة أنقلها لكم وعهد الله دون حذف ولا إضافة ولا تعديل، وعشان الواحد يراعي ربنا، فقط حذف بعض الشتائم والقباحات الصريحة التي يمكن لك تخيلها، مكتفيا

بالبقاعات اللاصريحة، ومضيفا بعض الأخطاء الإملائية والنحوية من أجل تحقيق وحدة النص.
يقول عبد الله سينا التائه في شهادته يخاطبك عزيزي الساكن غير الأصلي لمصر:

"بص ياعم إنت باللي بتقرا للجدع حبيبي بلال فضل، صباح الفل، أعلم أنك لا تعرفني مع أنك تعرفني أشد المعرفة، ممكن أكون أخوك أو أخو صديقك أو ابنك أو ابن الجيران أو ابن كلب خبطك في كتفك وإنت معدي أو غشك في لم الأجرة في الميكروباس أو حك عربيتك بعجلته أو بص على حريمك بصة وحشة، يعني المهم أنك تعرفني وأنت لاتعرفني. لكي لا أطيل في كلامي الذي قد تظنه أغازا، دعني أبدأ معك من الصفر أو من تحت الصفر، فذلك أصدق وصف لما أعيشه الآن. أبدأ حكايتي من بعد ان أخذت "الدبلون" يا فرحتي من شئ اسمه المعهد الفني التجاري لايعلم أحد حتى حسني مبارك أنه موجود على أرض مصر، بعد التخرج قضيت سنتين بين الجلوس على المقاهي والعمل فيها والبحث عن الفلوس بأى شكل وبأى شغل، المهم حوشت قرشين جت الخدمة العسكرية، وبعدما خلصت الجيش وقبل أن اقضي أعواما جديدة من البطالة وبمساعدة واحد قريبي استلمت وظيفة حكومية وأصبحت موظف ميرى مربوط على الدرجة الرابعة، أساسى المرتب ٩٨ جنيه ونصف، وعلى رأى ريتا الشريزة فى حلقات (باور رينجرز) وهى تقول "فلينتضم الحوش"، قعدت أصيح "فلينتضم المرتب". وبعد طول المرمطة

وصل إلى ١٥٠ جنيه بالعلوات والحوافز والواسطة- اللي هي الوساطة مش الوساطة بتاعة سوهاج (هذا الإفيه أصر عبد الله على الاحتفاظ به في شهادته ولما قلت له أنه بيض قال لي هي كانت شهادة أمك بأخي، ولمنع انهيار المشروع وافقت على الإبقاء عليه).

عندما عرفت أنني سأخذ ١٥٠ جنيه مرة واحدة صرخت بعزم مافيا بالهول، إذا سألعب بالفلوس لعب، لنذهب السجائر الفرط إلى الجحيم وأهلا بالعب البوكس، ومع أول قبض متين احتفلت مع أصدقائي فشربنا قزازة بيريل وأكلنا سندوتش شاورمه مضروب وسندوتش بطاطس بوريك وطرشى وحبسنا بإثنين شاي وواحد قهوه ع الريحه وربح جنيه لعمر القهوجى وعلية سجائر اللواد ولید صديقى الذى يعتبرنى ثريا لأنه من مشنوقى الدخل بينما هو يتصور أنني من محدودى الدخل أو على الأصح هو لا يعلم شيئا حتى الآن عن معنى "دخل" ليلة إحتفالينا التاريخية طيرت عشرة جنيه وأنا فى غاية الانشكاح، اكتشفت فجأة إن فاضل معايا ١٤٠ جنيه، المهم إنى بأقبض على مرتبى يوم ٢٠ من كل شهر، يعنى أنا الوحيد اللي لا بأقبض فى أول الشهر ولا فى آخره، وبرضه أنا الوحيد الذى يفلس فى أول الشهر وتتشط عندى الغدة السلفية- لأننى سلفى بالمناسبة مع الاعتذار للدكتور سيد القمنى اللي بيستم دائما أصحاب التفكير السلفى مش عارف ليه - (الإفيه السابق إذا كان فيها فعلا هو من آثار الثقافة اللي جت على كبر لعبد الله والتي أضرب نفسي بالجزمة لتسببي فيها... نسبت أن

أقول لكم أن عبد الله أصغر على أن يفتح قوسا ليقول فيه المن
لا يعلم الغدة السلفية غدة تبدأ عملها في أوقات متباينة عند أمثالي
من محدودى الدخل المعدوم".

ما علينا. فضل معايا ٤٠ اجنيه، البيت.. اللي هي الأسرة
اللي هم الجماعة اللي ببصرفوا عليا بجد من الآخر.. لازم ياخذوا
٥٠ جنيه عشان يبقى من حقي أكبر اللقمة وأقل الغموس وأتخافق
على الصدر بدلا من الورك يوم الجمعة، والباقي لازم أعيش بيه
وأحب وأتسلى وما اشربش مخدرات وما ابقاش متطرف
وما انضمام لخلية نائمة. في ذلك الصباح الباكر جاعني زميل
عمل ليبيخ في أذني بشرى إنشاء جمعية ب ٥٠ جنيه، سأقبضها بعد
١٠ اشهور، الله.. بعد ١٠ اشهور ها قبض ٥٠٠ جنيه، ٥٠٠ جنيه،
مبلغ يسيل له اللعاب. صحيح أنه لو جاعني لما عرفت ماذا أفعل
به ولما استفتعت به بنكلة، لكن المهم أنني سأجد فرصة لكي أحقق
حلما قديما لي بأن أكون رجلا يدخل جمعيات، وحتى كنت باحلم
إن يتصب عليا فأمسك بتلابيب صاحب الجمعية وأفعل به
الحاجات الوحشة التي كنت أرى جدتي بل الله تربتها وخالي
يفعلون ذلك ذات مرة عندما انتصب عليهما مرة وأنا صغير.
طسوال أشهر اشتراكى في الجمعية ومع اقتراب موعد قبضى
تداهمنى خيالات النصب على فأبدأ بالإعداد لشراء مطواة، وبعد
انتشار عربيات الأتارى وقانون البطاحة صرفت نظر وقررت
أستخدم سكينه المطبخ عند اللزوم.

تخيلوا كل هذه الشهور وأنا أقبض مرتبى، ٥٠ للبيت و ٥٠

جمعية و ١٠ جنيه عنظرة أول الشهر، يبقى ٤٠ جنيه، وإذا كانوا
يقولون اعقلها وتوكل، فعابز أشوف شيخ العقلاء اللي يتوكل لمدة
شهر بـ ٤٠ جنيه، عارفين يعنى إيه؟ يعنى يصرف جنيه وشلن
لمدة ٢٠ يوم وبعدين جنيه واحد لمدة عشرة أيام، طب إزاي وأنا
أجتمع مع زملائي في الصباح كل يوم لنفطر جمعاء مقابل أن
يدفع كل منا لزوم الإفطار ٥٠ قرش، وهو ما كان يضطرني
للبحث عن زملاء يؤمنون بنظرية المنح اليابانية التي لا ترد
ولا يؤمنون بالمدرسة الانجليزية بنت الكلب، أحيانا أدعى الصيام
للهرب من الاشتراك في الدفع، في إحدى عشرينات الشهر ذات
مرة سرقت شوية شرايط انجليزية تملكها أختى وبعتهم وفطرت
بشهم كذا يوم.

زهقتك بالكلام عن الفلوس .. عابزنى أكلمك شوية عن
الحب.. طيب تعال أكلمك عن الحب شوية. وأحكي لك قصة
البنت المعفنة اللي كانت الحاجة الوحيدة اللي عرفت أعلقها في
حياتي، حتى هدومي ماباعلقهاش عشان مافيش مكان ليها في
الشقة، باكومها في كرتونة فوق الدولار. بص ياسيدي لازم أقولك
الأول أنا علقتها منين. علقتها في السينما، وأول حاجة لفتت
انتباهي ليها إنها كانت أول بنت في حياتي أشوفها بتاكل فشار،
ففي عرفنا في المنطقة البنت اللي تاكل فشار بره البيت ومش قدام
محرم تبقى مش تمام.

قد يبدو شكلي عبيطا عندما أقول لك أنني وقعت في غرام
الحنة بتاعتي لأنى رأيتها تأكل الفشار داخل السينما، أعذرك لأنك

السنة، واستمر التعليق بيننا حتى هذا اليوم التاريخي الذي أدلى فيه بشهادتي، صحيح أنني في أحيان كثيرة أتعد عنها بحجة أنني لأريد أن أشغلها عن المذاكرة والحقيقة أنني أهرب من هدايا عيد الأم وأعياد الميلاد وأعياد الحب وأول الدراسة وأجازة نص السنة ورأس السنة و(..) السنة.

مع الوقت تحول التعليق الى علاقة حب مع أني لا أمل لي في الزواج، عندما حاصرتني عاتقيا وطلبت مني أن أعدها بأن أصلح غلطتي لكي تغلط معي وهي مطمئنة صارحتها بحقيقة كونى موظفا حقيرا، فوجئت أنها فرحت ليتضح أنها من أسرة أفقر من أسرتنا، برغم الفشار الذي كان نزوة كما ادعت أو ربما كان طعما لإصطياد المغفلين من أمثالي. عدت إلى البيت يومها دائخا بعد أن طارت أحلام الغلط اللذيذ، قلت لنفسى "إذن إنتم تَن تن على تَن تَن"، بدأت الذكريات تتداعس في مخيئتي "لأكتشف كم كانت حبيبي أكلة الفشار واطية وكم كنت أبلها، تذكرت أول يوم خرجت معها فيه بعد طول تمنع منها، يومها عزمتها على شاي في كافتريا ألأجه بوسط البلد ولأنها واطية فقد أصرت تاكل سندوتشين شاورمة لحمه الهى تطفحهم يارب، وطبعا الميزانية خرمت وكان شهرا خرائي النزعة. تكرر هذا خلال الشهرين التاليين وعندها سعيت لتطوير "العلاقة" لتحليل ثمن الشاورمة فحاولت أبوسها ذات بير سلم لكنها رفضت بإلحاح مع إني كنت صارف عليها ربع المرتب، قال إيه عايزة الحلال، يعنى هو أنا كنت غاوي الحرام؟، عدت إلى بيتي مخذولا مقموعا، أسأل نفسي

لن تفهم أبدا نفسي التي زفنتي نحو غرام كهذا، فالفشار في سينما سودرن شبرا التي دخلتها كان وقتها بجنييه، هذا الكلام قبل تسع سنين أيام كان الجنييه يجيب طبق كشري بكاملته، وأربع "سندوتشات" مشكلين بمنافعهم، وأن تشاهد كموظف فقير بننا لم يأكلها القطر كأغلب بنات منطقتك تقف شامخة في السينما تاكل فشار بجنييه، فذلك معناه أنها أغنى منك ناهيك عن كونها أيضا أجمل منك، وقبل أن تستغرب الجملة دعني أقل لك أنني للأسف أجمل من جميع بنات حثتي مع مراعاة أنني نسخة رقيقة قوي من الممثل الجميل المليان غريب محمود. المهم أن أمر الله نفذ وسهم الغرام رشق مع رشقها لحبات الفشار في بلعومها، الله حلوة الجملة دي، اقتربت منها واتخذت وضع الفتنة، ابسمت لها، نظرت لى باحتقار، نزل علي برود كل الحلاقين دفعة واحدة، وقعدت أضحك لها وأنا منتح لها. كان معي فى جيبى ٢٠ جنيها وكنت لابس هدوم جديدة جبت تمنها من أختى اللى استألفت منها ١٥٠ اجنييه على حس الجمعية اللى هاقبضها بعد ٨ شهور. المهم اشتريت علبة سجائر قد تبدو من النوع الردي بالنسبة لبعضكم لكنها بوكس وما أدراكم ما البوكس بالنسبة لنا نحن صغار الموظفين، إنه أمر لو تعلمون عظيم، أخذت أدخن وأنا أذهب وأجيبى أمامها متمخطرا بهدومي ذات الخامات المعفنة والتي قضيت أسبوعا كاملا بها لأنى أعلم أنها ستبوظ مع أول غسلة (بالمناسبة أصبحت الآن حثت مطبخ). المهم ثبت أن قراري بالسناحة كان استراتيجيا فقد جابت السناحة مفعول وقدرنا نعلق

طيب والحل، قلت لنفسى بعد كذا شهر حاقبض الجمعية وأجيب
 دبلتين من أم تسعين جنيه، وبعد كده أبيع دبلتى وأجيب واحدة
 شبيهة من أم ثلاثه جنيه وبعد كده كله يبقى بالحلال.
 بعد طول تفكير قلت لنفسى العمل الاضافى هو الحل، طب
 إزى والمقاهى مليئة بشباب من كل صنف لا يجد شغلا ولا
 مشغلة، مش مهم إن نابليون رئيس المواطنة الفرنسية إياها يقول
 إن المستحيل اللي هو السيتامبوسيل كلمة لا توجد إلا فى قاموس
 الضعفاء، طب ما أنا الضعفاء والضعفاء أنا، جميع الأبواب مغلقة
 وأنا من الفلس فى غاية، حتى الصراف بابيه مغلق اليوم، ما فيش
 سلف والغدة ناقحة عليا، كل اللي أملكه دلوقتى شوية كتب خدتهم
 من المدعوق بلال فضل ورباعية حافظها لصلاح جاهين الله
 يخرب بيت بلال فضل اللي جزني لسكته "يا باب أيا مقفول إمتى
 الدخول.. صيرت ياما واللى يصير ينول.. دقيت سنين والرد
 يرجع لى مين.. لو كنت عارف مين أنا.. كنت أقول". قعدت جنب
 شريط السكة الحديد حيث أعمل، أتأمل شريط حياتى المليئة بهم
 فى ضوء هذه الرباعية، لو قابلتني طنط أمال فهمى دلوقتى
 حاهدي الرباعية دي لكل السكان الأصليين لمصر زي ما بيسميهم
 الواد بلال صاحبي وبعدين أعيط فى حضنها وطبعها هتطلب لى
 البوليس وهاروح فى داهية بتهمه فعل فاضح على الناصية.
 لا كده مش نافع لايد أن أفرغ الآن شحنات الغضب والضيق
 اللى جوايا، إزاي، الحل فى المخدرات والسهرات الحمراء بس
 أجيب فلوسها منين. أستلقت عشرة جنيه وذهبت إلى مقهى كنت

أجلس عليها أيام الجهادية من ١٢ مساء إلى ٦ صباحا كل سبت
 تعرض برامج القنوات المتخصصة فى السكس، هدأني اللحم
 الأحمر المستورد كثيرا مع أن المفروض ألا يهدئني، لم يخرجني
 من أحلامي إلا صوت الجرسون يذكرني بالمشروب بتاع كل
 ساعة، على آخر السهرة طارت العشرة جنيه وطار عقلى. قبل أن
 أقوم ومع أذان الفجر أغمضت عيني لأختزل كل منظر وحركة
 رأيتها حتى أستطيع استرجاعها وأنا فى الخلاء لأقذف بصحتي
 وأحلامي فى البالوعة.

لست ميت القلب. بداخلى نقاط بيضاء ناصعة وأخرى
 خضراء كالبراعم، وقلبي مفعم بالحب لكل فتاة جميلة أراها
 وخاصة حبيبتى أكلة الفشار. حلوة الجملة دي. وعهد الله أنا اللي
 كاتبها زي ماهي مش الجدد بلال. فى الأسبوع التانى ذهبت إلى
 المقهى إياه ثانية، كانت ليلة سوداء بهيمة مثلي، كان الفيلم فى
 غاية الاثارة، وأنا فى منتهى النشوة والفلس، سهرت حتى الصباح
 وعند ذهابي إلى العمل سقطت من شدة الألام المفاجئة، فى نفس
 اليوم عملت عملية المصران الأعور، قال أنا ناقصه، زارتني
 فتاتى حزينة، لتقول لى أنى ملكت قلبها ومألت حياتها، أنا فعلا
 أحبها، وأحب الجنس الذى لا أمارسه معها فى الحلال وأحب
 التدخين وعائلتى الصغيرة، والفلوس أبعد من السحاب، لكنها
 لازمة لكى يحبني كل هؤلاء، وأنا على فراش المرض سألت
 نفسي هل ٥٠ جنيه كافية لأن يأكل الانسان شيئا غير نفسه.
 أصبح لازما على أن أثبت حسن النوايا تجاه البنت وأروح

أقابل أهلها، خاصة وقد أثبتت نجاحها في كل الاختبارات، هي قابلتني بره بس ما خلتيش ألمسها بره حدود الأدب، تخيلوا واحد زى تعبان ملة وجعان نسوان يضع بنت جميلة تحت اختبارات الأدب، ذهبت إلى أهلها فوجدت مالا يسر البيني آدم، عايشين في عشش صفيح ولها إخوان وقرايب حرامية وسوابق ومساجين. كانت هذه هي التجربة التي يدعو صديقي شادي المسيحي الرب ألا يدخله فيها، لكنني دخلت، وكان لابد أن أخرج قبل ما أتمسك، تهربت من وعود الزواج من الفتاة وعندما أخذت تلح على في كل مرة تقابلني لم يكن هناك بد من مصارحتها بأنني لن أتزوج إلا في عام ٢٠١٧ مع افتتاح الرئيس مبارك لتوشكي، يُنسب الفتاة وضاعت مني بسبب المال، لقد كانت ضربة قوية تحت الحزام من هذا الملاك المسمى بالقدر.

لعلها الآن عادت لإصطياد زبون جديد بالفشار كما عدت أنا ثانية إلى دوامة الحياة مستعينا بمرتبتي الضئيل، ٥٠ جنيه للبيت و ٥٠ جمعية و ٥٠ جنيه لمصاريفي بواقع ٢ جنيه إلا شوية في اليوم منها ٥٠ قرش فطار كل يوم وعشرة جنيه متفرقة أصرفها مع صديقي ونصف الآخر وزميلي الوحيد في الدنيا التي تهزمه دائما، وليد الذي لا أعرف سواه ولا يعرف أحدا سواي منذ ٢٠ عاما ونيف زى ما يقولوا، يعلم كل شئ عني وأعلم كل شئ عنه كأنا كتابين مفتوحين لبعض، حتى عدد مرات العادة العلنية في اليوم يعلمها كل منا عن الآخر ولا مؤاخذه من باب التشجيع المتبادل وتطمين بعضنا البعض بأنه لا زال لدينا شئ لم نخسره.

بالنسبة لى ولوليد الجنيه ثروة وصرف ٠ اقروش في غير موضعها خسارة فادحة، ولا مكان لأى تجاوزات، الجلوس على المقهى مباح لو كان على حساب الغير، السينما محرمة حرمة الدم، ورغيف الكفتة محرم حرمة لحم الخنزير، السجائر تأتي بالعلبة كل فترة ويتم حبسها في الدولاب ليتم السليف منها بالسيجارة والسجارتين، لأدخن في البيت إطلاقا احتراما للأهل من جهة وتوفير للفلوس من جهة أخرى.

لن تصدقوا لو حكيت لكم أنني عندما جاء دورى في قبض الجمعية (٥٠ جنيه مرة واحدة) دخلت إلى المستشفى لأعمل عملية الزائدة (تخيل الزائدة دى بنت الكلب ما تجيش إلا للى زى حالاتنا اللى ما بيستعملوهاش أصلا، بالمناسبة كنت عملت عملية فتاق قبل شهر، يعني أنا الفقير أعمل ثلاث عمليات في سنة بينما الغني لا يعمل في عمره سوى عملية ترقيع لمن يهمله أمرها). طارت ٢٠٠ جنيه لسزوم العلاج خاصة بعد أن لعبوا في المستشفى في العملية القديمة فبهلوا الدنيا. لكن أحدا من الديانة لم يرأف بحالى بل توافدوا كالنمور الآسيوية إلى المستشفى ليستردوا فلوسهم، طيب يا أندال والله لأعاقبكم وما عدتس أستلف منكوا تانى. بما تبقى من فلوس الجمعية اشتريت ب ٥٠ جنيه قميص وبنطلون وجزمة ومن ساعتها لم آتى حتى بقطعة شاش أو أى شئ يمت بصلة إلى القطن والنسيج. بعد كل هذا الهم اللى فضل من الجمعية ٣٠ جنيه، يا فرحتى يا هنايا. لم يبق لى إلا السخرية من نفسى. كنت دائما أستهزئ بكل شئ حتى أصبحت أستهزئ بنفسى وأديم

الشكوى ولا أحمد الله بل أسخر وأقول عندما أمر بأزمة مالية أنني لن أشكر ربي حتى لا يزيدني فقرا على فقر لأنه أستغفره عزوجل يقول (لئن شكرتم لازيدنكم)، لم أكن أصلى أبدا، ولكن بعد تجربة الثلاث عمليات فقت كثيرا وأدركت أنني أتلقى دروسا إلهية بأن سخطي لن يغير حالي، ولذلك أصبحت من يومها أعيش في أشد حالات الندم، أدبت نفسي وابتعدت عن إدمان قذف أبنائي المستقبلين في البالوعة منذ فترة وأحارب شيطان شهواتي وأصلى الفروض وأحاول أن أصلي السنن، لكني لا زلت أشعر أن جبال الدنيا "تجسم" بالسین فوق صدري، الحياة مش مساعدة، لا أستطيع أن أصنع بهذا الذي يدعونه المرتب شيئا، ومن منكم يستطيع أن يفعل به شيئا إلا قراطيس وخوازيق ويلبسها، ولا مواخذة عندما أفكر في المستقبل أجد نفسي مباشرة أفكر في الانتحار، لكني لن أفعل لأنني باكره الحر جدا، لكني أعود ثانية للتفكير فيه عندما أقول لنفسي لنفرض أنك أخذت أضخم علاوة في تاريخ الجهاز الوظيفي وأصبح مرتبك قول ٤٥٠ جنيه وده طبعا مش هيجصل إلا لما أشوف ففكة ودني، طيب إزاي هاتجوز واسكن وأبنى حياة بـ ٤٥٠ جنيه، فما بالك ومرتبتي فعلا يوم ما هيجضبه الدم مش هيجدى بعد عشر سنين الـ ٢٥٠ جنيه. على المقهى وفي أول الشهر عزمنى صديقى وليد ليحكى لى طبعا عن آخر مشاكله الاقتصادية، فوجئت به يلفت نظري إلى أن شعري بدأ يتساقط وصلعتي بدأت تظهر، قال لى بحكمته البالغة : يا ابني إنت حظك غريب إنت عندك كام سنة يعني عشان شعرك يقع وتدخل

المستشفى فى عمليتين جراحيتين فى خلال شهرين، لم يكن عندي إلا جواب العظيم صلاح جاهين الذى أصبحت أحفظ كل رباعياته تقريبا "أنا شاب لكن عمرى ولا ألف عام .. وحيد ولكن بين ضلوعى زحام .. خائف ولكن خوفي منى أنا .. أخرس ولكن قلبى مليون كلام" وعجبنى وليد أنه لم يفهم ولا كلمة لأنه انشغل بالشغال سيجارة فرط والذويان فيها. فدعيت على بلال فضل وقرأت الفاتحة لصلاح جاهين.

شوف بقى ياسيدي أكثر حاجة باكرها في الدنيا إن ضابط يقول لى بطاقتك وإن حد يقول لى انت غلطان إنك ما تعلمتش ودخلت الجامعة، الجملة الأخيرة دي أمي ماسكاها لى عمال على بطل، هي بالمناسبة مش أمي قوي لأن أمي الحقيقية سابتي وأنا صغير واتجوزت، وأبويا دخل السجن في قضية ما حدش قادر يحددها لحد دلوقتي، وكان ممكن أبقى سارح أشد كلة دلوقتي ولا ماشي في الشوارع عريان ملط، لولا ربنا ساق لى ست غلبانة بنشغل خياطة فساتين سواريه مع أنها ساكنة في حارة لو قلت لواحده فيها عندك تايرر، هتطشك بالقلم وتقولك عيب يا (..) أنا أشرف من أمك. الست دي خدنتي أنا وأختي وربتنا وصرفت علينا لحد ما بقيت فاشل قد الدنيا ولحد ما أختي اتجوزت واد كسيب وخلفت منه، ومع إن أمي هي اللي كانت السبب إني ما أكملش تعليمي عشان ديك ذات اليد، بس طول النهار تقولي "مش كنت تعلمت ودخلت الجامعة وقلحت"، عشان كده كبرت في دماغى من فشرة وقلت هاحوش وادخل التعليم المفتوح عشان أثبت لها إني

فاشل حتى لو خدت شهادة، وبعدين قلت بلاش دي حاجة مش محتاجة الفلوس دي كلها عشان أثبتها، هي أكيد حاسه بده، مش قلب أم ياجدع.

قال تعليم قال، ماعندك الواد مصطفى المصري اللي ساكن تحتينا، دخل الجامعة وخذ بكالوريوس خدمة اجتماعية وفضلوا يقطموننا بيه لما انتقعنا، تعال شوف حاله دلوقتي مافرقش عننا ببصلة إحنا اللي واخدين بكالوريوس خدمة بيوت، ومع إنه من دوري لكن تحس إنني أصبى منه، لما تشوفه دلوقتي تحس إن عنده ٢٤ سنة شغل ونفاذ، وحتى في الحب خاب نفس خيبتني ويمكن ألعن، خطيبته اللي خطبها في شهر مارس اللي فات ستخطب لغيره في شهر مارس اللي جاي، ماشفتلوش قصة الحب "العينية" التي عاشها معها سنين طويلة، أصل الحب ماينفعش إجابة لأسئلة من نوعية معاك كام وهتجيب إيه وهتجهز إمتي وشفقتك فين، لما يسألك أهل حبيبته أسئلة زي دي ابقى خلي الحب ينفك أو حتى خلي البكالوريوس ينفك، لو قلت لهم معايا بكالوريوس إنشاء الله، مش بعيد أبو حبيبته حاج بيت الله اللي بيصلي الفرض بفرضه يقولك "البسه يا حبيب أمك".

أدي ياسيدي حال الشباب الجامعي، تقدر تقولي التعليم والجامعة نفعا مصطفى بابيه، أديني زي زي بنلف سوا في ساقية، شبه بعض في الواقع والألم والقرف، حتى في الحلم البكالوريوس مافرقش، عارف ليه لإننا الإثنين نفسنا نهج ونسب البلد دي اللي بتاكل ولادها. إنت عارف مصطفى اشتغل إيه

بالبكالوريوس اللي أمه هرت الحتى شربات لما خده، اشتغل مدير مبيعات، يعني أنا عندي وظيفة ثابتة عنه، هتقولي بس إسمه مدير مبيعات، هاقولك ده إسم دلغ للشباب اللي بينزل بشنطة بضاعة يلف على الموظفين ده يرزل عليه وده يغت عليه، زيه زي اللي بيوقف على الرصيف يبيع بدلة حمادة أو حاجة تفرح للعيال أو لانجيريها مستعملة للمدام عشان تفرح أبو العيال، الفرق بينهم كرافته بس، يمكن عشان الكرافته دي خد لقب مدير، تسأله بيدير مين، تلاقيه بيدير نفسه. وتقولي تعليم يا أخي أحمد، إنت عارف الواد مصطفى ده لما كان في الجامعة كان غاوي تمثيل، كان فاكر إنه هيبقى أحمد زكي زمانه، بتعمل إيه يامصطفى، باعمل بروفات مسرحية هتكسر الدنيا وهنغزم مخرجين يكتشفونا عشان نعدي ياكلاب ونسيبكو في الفقر ده، يوم المسرحية الأمن منعها بعد ماقعد شهرين هو وزمابه يعملوا بروفاتها، من ساعتها مصطفى ده اتكسر، مابقتش فارقة معاه أي حاجة، زي مايكون في حد كل روحه من جواه. إنت عارف مين اللي خطف خطيبته منه، أعز صحابه في الجامعة، وتقولي تعليم، على الأقل أنا حبيبة كلني طلع إخواتها مسجلين خطر، يعني ناس واضحين وعندهم مبادئ. عارف بعد ماخطيبته خانتها عمل إيه، سافر يشتغل في الغردقة وضبط مع واحدة أمريكية كان هيتجوزها، كانت شبه عيشة الكيلاني كده، بس كان ناوي يبيع نفسه ويشيلها ويسافر معاه، في الفترة دي كان مصطفى ده ملك المنطقة، صحابه ماتعرفش تعدهم وكل واحد فيهم يعمل معاه أحلى واجب على أمل يشده معاه لما

عليه روحه قام رامي القوطة في الأرض وراجع، ياعم الحاج ماتسبب اللي بيص بيص، إنت في إيه ولا في إيه، لا كرامته نقحت عليه، طيب ياسيدي خلي الكرامة تتفعلك، عارف أنا لو مكانه أبجح وأبص لهم وأبرق لهم عشان يخافوا ويزودوا البقشيش. وتقولي تعليم جامعي، ياعم ده إحنا في نعمة والنعمة. الحمد لله على الفقر والجهل، حاكم الفقر مع العلم لعنة.

اليومين دول قررت أحسن أحوالي وأبدأ إصلاح من الداخل، وبدل ماألعن الظلام ألعن الشمعة، قلت لازم أزود دخلي بأي شكل، لقيت شغل إضافي، بس مواعيده تبتدي بعد مايخلص الشغل الرسمي بساعة واحدة وأفضل فيه لبعد نص الليل، باشتغل "سكويريتي" أوأمن خاص زي مايبضحكوا علينا في الشغل عشان نحس إن لنا لازمة، شايفين المسخرة، من السابعة صباحا وحتى الواحدة برضه صباحا بأفضل في الشارع، باصرف حوالي ٥٠ جنيهه أكل وشرب بره البيت ده غير التجريح من "البيج بوس" بناعنا في شركة السكويريتي اللي كان بيشتغل منصب أمني مهم وانتقلش منه في قضية فساد وبرغم كده عايش لى في دور عبده المهم طول الوقت، مع إن منظره تحس إنه حتى اتفقش في قضية فساد معفنة مش قضية فساد من اللي هم، لأ، أكيد اتفقش في قضية آداب، عموماً مسيري أعراف لما يسبب الشركة بإذن الله.

أحياناً تسرح بي الأفكار وأنا واقف ألف فى شغلى في الليل الهادي الخالي وأقول لنفسى: مادمت فعلا مش هاتجوز ومش هاقدر ألقى سكن محترم وأبعد عن خنقة وزحمة البيت اللي أهله

يسافر، لما الموضوع باظ ولقت الحيزبونة حد ثاني أحلى مايقاش حد يعبر مصطفى بالصرمة، نفعه بإيه البكالوريوس، بقى كل شوية يشدني ويقول ياترى يا عبد الله هي الظروف اللي بتصنعنا ولا إحنا اللي بتصنع الظروف، أقوله هات سيجارة وأنا أقولك، لما يدني سيجارة أقوله بص يامصطفى هاقولك حاجة حطها حلقة في ودانك، كاف ألف الفيل أبو عينين قزاز، ده أهم مبدأ تمشي بيه في حياتك، أهم من البطاقة ذات نفسها.

بس عمره ماسمع كلامي أبدا، إنت عارف الفرق بيني وبين النواد مصطفى إيه، إن عنده كرامة وأنا الحمد لله ماغنديش، الظاهر شالوها مع الزايدة وباعوها لحد غني كان عايز كرامة جديدة، عارف النواد الفقري ده كان ممكن يبقى مليونير لو ركز في الغردقة وشرم والحت دي، كان أول حد في الحتة طلعتها، من وهو في الكلية راح هناك يشتغل مع حد قريبه في الأجازة، كان قريبه بيغسل عربيات هناك، خده وعلمه ازاي يساعده، ولما سافر قاله عايزك تمسك مكاني، استلم منه صولجان الغسيل، وابتدا يشتغل مع سواق انبسط منه واداه فلوس، وبعدين قاله إنت تشتغل معايا على طول، قاله لا أنا بادرس في خدمة اجتماعية، الراجل اتخض وقاله معقولة أنت طالب جامعي، قال يعني اتفاجأ بـ (٠٠) أمه، قعد ياكل دماغ مصطفى بكلام يحرق الدم حسسه إنه ابن وزير وجار عليه الزمن، في اليوم اللي بعديه راح يطوق عربية فسيها اربع بنات زي الملايكة، هو بيقول أنا رأيي تلاقهم (ش٠٠) بصوا له بصات كلها احتقار مع إن لبسه كان نضيف، صعبت

سألتني مذبة "هايفاء" في ثاني أيام العيد عن ذكرياتي كمؤلف كوميدي مع خروف العيد فقلت لها وأنا سعيد لأنها ذكرتني بالذي مضى، أننا كنا كل عيد كبير نشكل وفدا مع أطفال شارعنا في حي محرم بيه في اسكندرية لنذهب لأحد الشوارع القريبة منا لكي نشاهد تاجر المخدرات الذي يذبح خمسة عجول وعشرة خرفان يوم العيد ويوزع لحومها على الفقراء الذين هلكت أجسادهم بفعل مخدراته الرديئة الصنع، قاطعتني محرجة: مافيش ذكريات ثانية عن العيد بس تكون كوميديّة، عابزين نفرح الناس، قلت لها: فاكر مرة عسكري أمن مركزي فتح دماغ عاطف جارنا لما ضربه بستوكة الحزام وإحنا رايعين نحضر أول حفلة لفيلم حنفي الأبهة في سينما مترو، قالت لي: هي صعبة شوية بس يعني مافيش غيرها، قلت لها: أنا أسف أنا أذكر إتنا مرة وإحنا صغيرين خالص بعد الرئيس السادات ماتقتل رمينا بمية من فوق السطوح على بوكس كان بيمشي في الشارع، السواق اتخض وقام لابس في القهوة اللي تحت البيت، كانوا قابضين على عيال بيقولوا سكرانة وبيقولوا بتعاكس، المهم إنهم هربوا والضابط كان نايم في الدواسة.

عصير قصب من الراجل اللي قدام جامع سلطان، ونحاول نحس
 إننا فرحانين بجد، نفتحل أي كلام عشان نتأخر على معاد مرواح
 سناقتنا للقرافة عشان مانديبشش في المشوار الكتيب ده، نلعب
 مائش كورة في أي شارع جانبي محاولين الحفاظ على بياض
 جلابيتنا الناصع بفعل سافو مسحوق حمدي باتشان المفضل، ماين
 تسندت حلاوة اللعب حتى يصبح لزاما علينا المرواح منعا للتهدئي
 وقلة القيمة، ننتظر حتى يجف العرق وندخل البيت خاشعين
 متحججين بأننا ذهينا لنصلي في اسناد الإسكندرية مع السنية بتوع
 الإخوان المسلمين تنفيذاً لوصية النبي عليه الصلاة والسلام، كبار
 البيت يقضون اليوم في النوم لتعويض ما فاتهم من سهر خلال
 الأيام الماضية لمحاولة تلبية إحتياجات العيد دون أي تعجيز،
 التفرزيون يذيع برامج أطفال مملة لعيال لا يشبهوننا أبداً يرقصون
 ببلاهة مع مدام صفاء أبو السعود ويغنون مع عمو محمد ثروت،
 والمذيعه تقطع كل أغنية بتهنئة السيد الرئيس المحبوب والأمة
 الإسلامية اللي كارهاه بأمر العيد، المنفذ الوحيد للتسليه لم يكن
 البلكونة فظاهر الشوارع البادي من خلالها ظاهر خادع فيه عيال
 تسير كأنها منومة بالبالونات، وناس تجري وهي تدوس على
 بعض وراء عريبة توزع أكياس لحمه، وأصابع غارقة بالدم تطبع
 بصماتها على كل الحوائط، المنفذ الأكثر تسليه هو المنور حيث
 بطن البيوت مفتوح لمن ولد فضوليا مثلي، هنا سأضيع الساعتين
 اللتين تفصلان بيني وبين أول حفلة سينما سأهرع إليها لأتوحد مع
 بطلي عادل إمام وهو يضرب الأشرار على قفاهم ونساء الأغنياء

كنت أحكي وأضحك وعلى وشك أن أحكي لها عن ذكرياتي
 عندما كنت أتبول وأنا لم أبلغ الحلم بعد على صاحب محل الفحم
 الموجود أسفل بيتنا وأفسد له فرشته، لكنني قطعت تدفق ذكرياتي
 عندما اكتشفت أن المذيعه لا تضحك، قات لها: هو أنا ليخت
 ولا حاجة، قالت لي: العفو، بس يعني إحنا عايزين ذكريات تتذاع،
 قلت لها: كان نفسي بس والله غصب عني، أصل بصراحة وأنا
 صغير كان العيد عندنا يوم النكد، مش في بيتنا بس، في كل بيوت
 العمارة ويمكن بيوت الحنة، ما أكديش عليك كذا بنفرح قوي أنا
 وكل عيال الشارع لما نصحا الصبح عشان نلبس الجلابيب البيضاء
 ونجري على جامع سلطان.. اللي هو أحلى جامع صليت فيه في
 حياتي لما حضرتك تسافري إسكندرية انزلي شارع عمر بن
 الخطاب وإسألني عليه هتلاقه في آخر الشارع قريب من عمود
 السواري.. كنا نروح نصلي ونحاول نبين للكبار إننا حافضين الله
 أكبر الله أكبر والله الحمد، ودايما نتلخبط في الحنة بتاعة وعلى
 أنصار سيدنا محمد، عمري ما عرفت أضيبتها، مش عارف ليه،
 ستي كانت تقول لي عشان نيتك مش صافية، يمكن، لكن أول
 ما نخرج من الجامع الكبير يبدأ دما يتحرق لما نبص على اللعب
 اللي مع العيال اللي أبهاتها سافروا الخليج أو تاجروا في
 المخدرات أو رزقهم الله من حيث لم يحسبوا، كانت لعبهم الغالية
 بتضايقتنا وتخلينا نتف على المسدس الصيني العيان أو السيف اللي
 بيتلوي أول ما تضرب بعض بيه أو الكورة اللي بتفرقع من غير
 ما عجلة تدوس عليها حتى، كنا بنحاول ننسى ده وإحنا بنشرب

وانت طيب، قلت لها: مانا قلت لسعادتك أنا علاقتي ضعيفة بخروف العيد، إحنا كنا بنجيب كبد الخروف، حاجة من أثره يعني، على فكرة أغلب المصريين كده، حتى تلاقي الفتة عندهم بيتم سد نقص اللحمه فيها بالتفنن في صنع تغليتها بحيث تجعل الحليم سكرانا، والمستورين زي حالاتنا بياخدوا اللحمه بالمناب، يعني كل واحد ليه منابه، إنتي عارفه إن فكرة المناب في مصر تصلح موضوع لدراسة عن دور المناب في تفعيل الديالكتريك الطبقي في مصر، يعني الفرق بين الفقير والغني مش في الآلة زي مقال ماركس إنما في المناب، قالت لي وهي ذاهلة بص بأستاذ بلاش نتكلم عن اللحمه خالص ممكن عشان نبنتي نسجل نسأل سؤال ثاني.. تقدر تقولنا إيه عن فرحة العيد. قلت لها وأنا أكظم غيظي: أعترف لك أنني لم أشعر حتى الآن بفرحة العيد بجد، لأن الطفولة مرت بدون أن أشعر بهذه الفرحة بشكل واضح وأنا أسف يعني لو كان ده يضايك بس دي الحقيقة، لكنني أتمنى أن يشعر أولاد مصر بفرحة العيد يوما ما عندما يأتي يوم عيد لا يرى فيه مذبة تلفزيون أو إذاعة تسأل ضيوفها ببلاهة عن ذكرياتهم مع خروف العيد في بلد وصل فيها سعر الخروف العيان تسعمية جنيه والخروف المغتصب فاقد العذرية تمنية جنيه، يعني مرتب وكيل وزارة. سنشعر بفرحة العيد عندما يأتي يوم عيد لا تقع فيه على دماغ أمك وأنت تمشي في الشارع بمبة تطير صوابك إن كان لا يزال لديك صواب. عندما يقتنع مسئولو التلفزيون أن العيد ليس فرحة وأجمل للثلاثة أرباع

الأشرار على قفاهن برضه ثم يرفع حاجبه ليلاغينا ويضحكنا، أجلس لأزجي وقت الفراغ محاولا تمييز الأصوات وتركيبها على الوجوه وأنا هاجيب لكو منين.. إنتو طلعتو عين أمي إنتي وعيالك.. أمك الواطية مين دي اللي أعيد عليها.. دي خرابة بيوت.. طب عليا الطلاق بالتلاتة لو مائزتي معايا ورجلك فوق رقبك لآكون معلقك زي الخروف.. وهو فين الخروف ياموكوس.. إن ماعمرك دخلت علينا بمعزة حتى.. العيد فرحة ياسلام.. هيه هيه هيه.. وطوا صوت التلفزيون ياوولاد الجزمة وخلوا يومكو يعدي.. صحيني قبل المسرحية ماتبتدي.. إحنا مش هناك في أم يوم البيت.. فيلم إيه اللي جايه ياروح خالك.. خش ذاكر لما نشوف هتجيب مجموع كام.. إنت مش قلت هتفسح العيال.. بعدين بعدين حد يتفسح أول يوم.. الفسح دي لتاني يوم.. لو كنت قلت لك خدمه لأمك كان زمانك نزلت جري.. وأجيب لكو فلوس السيمنا منين.. ده إنتو تمانية.. هيجيبوا سك على بناتك النهارده.. اتفرجوا واحمدوا ربنا.. إنتو ماعندكوش تلفزيون.. يالهوي بترمي اليمين عليا يوم العيد.. قاعد تتصنت على الخلق ليه ياحيوان"، الجملة الأخيرة ركبت عليها وجه جدتي وشبشا طائرا في الصالة يستقر غالبا في وجهي. كنت مسترسلا في الحكي لكن صوت التلفون المحمول أيقظني من ذكرياتي التي صادفت سر الهوى، دست زرار الإجابة فجاءني صوت المذبة: أنا أسفة يافندم الخط قطع، هاسأل سعادتك ثاني ذكرياتك إيه مع خروف العيد بس والنبي مش عايزين ذكريات مؤلمة كل سنة

المصريين بل هو نكد مبين فيبدأوا بالتفاوض مع السيدة صفاء أبو السعود لجمع نسخ الأغنية وإحراقها دون زعل. عندما لا يكتفي الإمام الأكبر في خطبة العيد بالدعاء للسيد الرئيس وبإي المسؤولين الذين يسعى بعضهم لإقناعنا أنه يعرف ربنا بجد، سننتقدم لو قرر الإمام الأكبر ولو لمرة أن يقتدي بسلفه العزيز عبد السلام فيعظهم ويذكرهم بأن لهم يوماً تترد فيه المظالم أبيض على كل مظلوم إسود كحل على كل ظالم، سننتقدم لو شهدنا حاكم مصر وهو يصلي وسط شعبه الذي أهلكته الأقساط والجمعيات والسلفيات والتصرفات، سننتقدم لو أصبح من حق الفقير أن يأكل اللحم مرتين في الشهر على الأقل دون أن يشحتها أو يتسولها أو يقف ليطحن في ضعفاء مثله من أجل أن يحصل على كيس لحمة يقول لمن يعطيه له كل سنة وإنت طيبة ستين مرة. مرة ثلاثة عاد صوت تليفوني ليقطع استرسالي الغاضب، وجاءني صوت المذبةعة "معلش يا استاذ بلال أنا اضطريت اقطع مع حضرتك أصلنا كنا على الهواء، أرجوك إحنا في يوم عيد ومش عابزين نزع الناس، أنا هارجع معاك على الهواء أول ماتخلص غنوة العيد فرحة وأجمل فرحة.. هيه هيه هيبه".

المومس اللي فاضلة !

من الصعب أن أنساها.

قبل ١٥ سنة تقريبا كنت داخل قسم الدقي مع زميل لي في كلية الإعلام نجري مقابلة حصرية مع مسجلة آداب كان اسمها فتحية سيلان، ليس نسبة إلى جمهورية سيلان الآسيوية بل إلى المرض الشهير الذي يعتقد أطباء الامراض التناسلية أنها كانت أول من أدخله إلى محافظة الجيزة وبالتحديد إلى شارع ابن قميير الذي كانت تقف على إحدى نواصيه بسبب حنين غامض يربطها بالإسم الذي كان على حد تعبيرها يجعلها راغبة في أن "تتقمير" من حين لآخر، كنا نقف على باب التخشبية المألئ بالعاملات في صناعة الترفيه واللواتي يأخذن عملهن بجدية شديدة نفتقدها في جميع مواقع الإنتاج واضعات نصب أعينهن قول أمير الشعراء أحمد شوقي "أيها العمال أفنوا العمر جدا واكتسابا.. واعمروا الأرض فلولا سعيكم أمست بيابا".

كانت فتحية سيلان تحاول أن تقنعا أن عمرها ما عملت حاجة غلط وأن الضابط المفترري ربنا بيتليه بنصيبه لفق لها قضية، وأنهم أخذوها من شقة المواطن العربي وهي بلبس الصلاة، شاء سوء حظها أن يمر الضابط من خلفها وهي تقول هذا الكلام، ليقوم

عن فتحية وزميلاتها المتابعات لسير الحوار في من خلف قضبان
التخشيبية أصوات غير بريئة لا يمكن قياسها إلا بمقياس ريختر،
وأخذت فتحية تضحك وتصدر تلك الأصوات لأدرك أنا وصديقي
أن فتحية لم تكن أبدا المومس الفاضلة بل هي المومس التي
فاضلة.

بالرد عليها بأسلوب علمي لأجروا على ذكره، قبل أن يقسم أمامنا
أنه سيطلق سراح فتحية فوراً لو قرأت أمامنا الفاتحة، ردت عليه
فتحية بكل ثقة "الفاتحة في القلب يا باشا.. يعني هم اللي حفظوها
كانوا عملوا إيه"، استمرت ردود الضابط الحضارية على فتحية
التي كانت تتعامل مع الضابط برغم كل ما كان يفعله على أساس
أنه غير موجود، وأن مانراه ليس حقيقياً، فقد استمرت في التأكيد
على أن مشكلتها مع الفاتحة أنها بقت بتتسى بسبب الهم، لكن قلبها
ابيض من ليس الصلاة التي كانت لابساه، أصابت الضابط حالة
من الجنون وأخذ يقسم لنا أن كل علاقة فتحية بالدين هي أنهم
قبضوا عليها مرة وهي ترقص لسياح عرب على أنغام أغنية
"صلينا الفجر فين"، نظرنا إلى فتحية مشدوهين فقالت لنا بنفس
ملاحها الموازية "أعمل إيه يعني.. هي التي كانت شغالة في
الراديو". كنت يدا الضابط أو أصابعه بمعنى أصح من الرد على
فتحية بأسلوبه العلمي، فأنصرف لبعض شأنه، ولأننا كنا
رومانسيين ثوريين نؤمن بنظرية المومس الفاضلة، فقد أخذنا
نسأل فتحية عن ما الذي يمنعها من أن تترك طريق الإنحراف
وتسلك سلوكاً شريعياً، أخذت دموعها تنهمر وتحكي لنا قصصاً
مذهلة عن إخوتها الذين تجري عليهم، (بالطبع سمعنا نفس
القصص بعد ذلك كثيراً في مناسبات مختلفة، نكتشف أنها أكثر
انتشاراً من حواديت الشاطر حسن)، أخذ بنا التأثير كل مأخذ
فاندفعت أسأل فتحية ببراءة أدت بي إلى الإرتباك "يعني عمرك
مافكرتي تبقي جوزة يافتحية"، وقع زميلي من الضحك، وصدرت

مصر التي ما المسئول عنها

بأعلم من السائل!

لم يفهم صديقي المراسل الصحفي الأجنبي سر عنفي غير
المبرر وأنا أعتذر له عن الإجابة على أي سؤال عن مستقبل
مصر في حال جرى لأقدر الله للرئيس مبارك مكروه من ذلك
الذي يسري على البشر حكامهم ومحكومهم. قال لي مذكرا بأن
الكلام عن المستقبل ليس عليه جمر حتى الآن. وقبل أن يذكرني
بأنه حتى الرسول مات وأمر الله لا بد يكون، عدت لأقول له بعنف
أقل أنني لن أكون أهلا للكلام عن المستقبل مطلقا إلا عندما
أعرف أولا لماذا أُدفع كمواطن أجره رفع الزبالة في شقتي مرتين
في الشهر، كل مرة بخمسة جنيهات، خمسة للحكومة في فاتورة
الكهرباء وخمسة للزبال الذي تجمعني به عشرة تفوق عشرتي
بأغلب أصدقائي. سألتني صديقي ما إذا كنت قد سألت أيا من الزبال
أو محصل النور عن سر دفعي فلوس الزبالة لكل منهما، فقلت له
أنني لم أفكر أن أسأل سؤالا كهذا ربما لإنشغالي بالتفكير في سر
كون جامعة القاهرة تابعة لمحافظة الجيزة. بديهي
في أول زيارة لمحصل النور سألته "أنا عندي سؤال وأرجو
أنك ماتاخدوش بمحمل شخصي لأن علاقتنا أكبر من أن تتأثر
بأسئلة تافهة زي اللي هاسألها"، كان جنينه البقشيش الذي أخذه للتو

كافيا لتوسيع صدره بما يكفي لسماع سؤالي الناقه. "هو أنا ليه بادفع أجرة الزبالة مرتين مرة"، كان واطيا بحيث رد ردا لم أتوقعه "وهو إنت هتبص لفلوس زي دي باباشا"، لو كنت أضمن أنه سيرد الجنيه كنت طلبته، لكنني كبرت في سري وقلت له "ماعنديش مانع أدفع قدهم بس يمكن الأستاذ صبري اللي في الرابع يبص لفلوس زي دي أصله بيتعالج في معهد الأورام"، فهم الرجل مغزى سؤالي فأطرق قليلا وقال لي "والله مش عارف باباشا بس بصراحة أول مرة حد يسألني السؤال ده من ساعة ماربطنا فاتورة الكهرباء بالقمامة"، نطقها هكذا كما قالها أكثر من مسئول مهم في التلفزيون في تصريحاتهم فائحة الراحة، ربط جمع القمامة بفاتورة الكهرباء، دعوت في سري أن يربط الله من أخذ قرارا كهذا شر ربطة ويحرجه أمام شريك حياته، لكنني ربما فهمت مقاله لي محصل النور متأخرا فقلت له "يعني مافيش حد هدد بالإمتناع عن الدفع أو شتمك أو قال حرام عليكو ياظلمة هتروحو من رينا فين ياوواد الـ.. إنت قاريني يعني"، قال لي "لا أصل كلهم مؤدبين مع إنهم ولاد جزمة"، استغربت ربط كونهم مؤدبين بأنهم ولاد جزمة، سألته عما إذا كان ربطا على شاكلة ربط الزبالة بالفاتورة، فرد والأسى يقطر من صوته "أصل من ساعة الحكاية دي بطلوا يدوني إكراميات، طب الحكومة بنت لذين أنا ذنب أمي إيه". سألته عن صحة أمه وتمنيت له السعادة. أول مافعلته بعد رحيل المحصل كان الإتصال بصديقي المراسل الأجنبي لأقول له "ممك ماتتكلمش هنا ثاني".

بعدها بيومين كان هناك حوار شيق جمعني مع الزبال الذي تمكنت أخيرا من الإمساك به في يوم غير أول الشهر الذي يوقظنا من أحلى نومة لطلب شهريته، لم أكن محتاجا لأن أسأله أبدا عن سر اختياره السادسة صباحا لكي يخبط على السكان لجمع نقوده، فهم إما بادئ في النوم مثلي ومثل أشرف العاطل عن العمل أو غارق في النوم وفي عرض ساعة نوم كمان كباقي سكان العمارة من الموظفين، ولذلك لن يكون لدى أحد منا الطاقة الكافية لسؤاله عن سر تراكم الزبالة أياما دون أن يقوم بجمعها، كل مانفعله فتح الباب نصف فتحة ودعك العين للتأكد من أننا نعطي خمسة لخمسين، ثم إغلاق الباب سريعا قبل أن يطير النوم. هذه المرة التزمت بالجهاد الأكبر جهاد النفس لكي أبقي صاحبا حتى العاشرة مغلقا صوت التلفزيون ومكتفيا بمتابعة الترجمة مصيخا السمع لصوت حركة جمع الزبالة، حيث اليوم يوافق أحد اليومين المنتظرين لتشريفه، لابد أن افاجئه هذه المرة وأخذه على حين غرة، سيبك من أن أكثر من غرة تمخضت بعد فتح باب المطبخ عن تبادل النظرات الحائرة مع ققط العمارة اللواتي يشمن وماتنفسى أكياس الزبالة فلم يعدن يهربن بل يكتفين بنظرات وقحة أزعمن أنها مصحوبة بشنائم قبيحة بلغة الققط "إيه الفلق ده ياروح أمك.. مش تخبط قبل ماتفتح"، أخيرا جاء، هو هو، هذه طوبوله هذه بشائره، فتحت الباب بنقّة وأنا منكوش الشعر زائغ العينين، فرمقتني بنظرة وكيل وزارة في الأربعينات، ثم قال لي "إيه في زبالة ثاني"، قلت مستجمعا شجاعتي "هو إنت كنت شلت الأولاني

يعني"، قال لي "معلش بابيه مش ملاحقين وإنو يعني مش مديننا فرصة.. ربنا يزيدكو"، فجأة أصبحت أنا في موقع الدفاع الطبقي عن نفسي، وتحول جدلنا المفترض حول تأخر رفع الزبالة إلى جدل ديالكتيكي أنا فيه الخسران لامحالة. فجأة وجدنتي أقول له "ولايهمك الله يعنيك.. أنا بس كنت عايز أسألك سؤال"، شعر بصدق دعائي له فوضع زنبيله على الأرض وترك قدميه تغوصان في أكياس الزبالة المتركمة، وقال لي بكل أريحية تفوق أريحية الزبالة الفاتحة "تفضل باباشا"، قلت له يعني أصل أنا باديك فلوس أول كل شهر"، لميت تحفزه بجملة اعتراضية "مش قد تعبك والله أنا عارف.. لكن الحكومة بقى بتأخذ مننا كل شهر خمسة جنيه برضه قال إيه عشان نديها للشركات الأجنبية اللي بتجمع الزبالة.. وبيقولوا قبهمك الله إنهم بيدوكوا من الفلوس دي"، عاد لتحفزه، حقه بصراحة، وقال لي "طيب إيه الغرض يعني من الحوار ده"، قلت له "لا أصلي لأقبل أنهم ينصبوا علينا بإسمكو"، أفتر ثغره عن ابتسامه ساخرة حنونة فاستبشرت خيرا وانتظرت حلا للغزي وبدأت أفكر فيما سأقوله للمراسل الأجنبية عن مستقبل مصر، لكنه قطع تداعي أفكارى عندما قال بعبارات قاطعة "أنا كنت فاكرا إن عقلك كبير باباشا.. إحنا لو سبناكو للحكومة باباشا هتغرقوا في الزبالة ولأموأخذة.. طول عمرنا شايلين (..) البلد دي وساكنتين وراضيين بقليلنا.. ومش مستنيين حاجة لامنكو ولا من الحكومة"، لم أكن أدرك عمق إيمانه برسالته الاجتماعية، ولولا أنني مستأجر للشقة لكنت كتبتها بإسمه تقديرا مني له، خسر

مشاعري المتضامنة فورا عندما قال "وبعدين ماتدفع هي يعني الفلوس دي تهمك"، لم يكن الوقت مناسباً لأن أذكره بالمرضى الذين في الرابع والثالث والسابع والسادس، لم أفعل شيئاً سوى أنني ذكرته بفضل صيام النصف من شعبان وقلت له إني أحبك في الله وأغلقت الباب.

ساعة أو أكثر مرت وأنا أحاول النوم متغلباً على مشاعر الإهانة التي تعتريني لأني عجزت برغم كوني كاتباً عن معرفة سر دفعي لفلوس الزبالة مرتين، خمسة في خمسة، ألغيت فكرة أن أتصل بأحد أصدقائي المندوبين في محافظة القاهرة أو في وزارة الكهرباء، لن أكون مستعداً نفسياً للإستماع مجدداً إلى جملة "هي فلوس زي دي تهمك". يرن الموبايل لأجد على موجاته صحفياً مبتدئاً من صحيفة معارضة يسألني بحماس "حضرتك شاييف مستقبل المواطن المصري محدود الدخل إزاي في هذه المرحلة التي يكثُر فيها الحديث عن إلغاء الدعم"، فكرت أن اشتمه لكني تذكرت أنني جيتت عن شتيمة الزبال فاستعدت بالله من أن أكون من الجاهلين، بعد أن ساد الصمت قليلاً سألتني "أنا أزعتك"، قلت له "لا أبداً أنا تحت أمرك.. أنا اتخصيت من سؤالك لأني كنت لسه باناقش الموضوع ده في المطبخ مع أحد أصدقائي"، تهلل صوته وقال لي "طيب أنا حظي كويس.. ياترى ممكن تجاوب على السؤال ده إزاي"، قلت له بحيرة "سؤال إيه"، ظن أنني أسخر منه فقال لي "لو أنا مضايق حضرتك ممكن أقفل"، خفت على زعلته وقلت له "معلش أصل أنا تايه شوية لأني يمكن ماأكونش

قال لي ضاحكا "مزاجك عالي ياباشا.. آه طبعاً شفته أنا والأسرة كلها"، قلت له "حلو قوي هل تذكر كيف وقف ذلك المواطن الشاب ينتظر نصيبه من صفقة الضابط مصطفى أبو يد مرزبة مسلماً خده للضابط وأمره الله فإذا بالضابط يتوقف عن صفعه في آخر لحظة ويشير له بإصبعه، لا كإشارة للخفاء لأصحاب العطايا بل كإشارة إبراهيم حسن لجمهور الزمالك ذات يوم. هذا هو حالنا الآن.. نحن ننتظر نصيبنا كأيا كان.. صفقة أو إشارة إصبع أو مادون ذلك أو مافوق ذلك.. كل اللي يجيبه ربنا كويس"، لم يعلق على كلامي بما هو أكثر من التهيد فواصلت "مستقبل إيه الذي تسأل عنه.. مالمستول عنه أعلم من السائل.. ياسيدي مصر الآن حالها كحال شاب ملقى في عرض البحر قالوا له أن ذلك الشاطئ الذي يلوح في الأفق هو شاطئ إيطالي دفع من أجله دم قلبه وكتب على أهله واللي خلفوه كمبيلات لكي يصل إليه.. وهو الآن يعوم وقد ملأ الملح جوفه داعياً الله أن تكون فعلاً إيطاليا وليس ليبيا أو الصومال أو الهانوفيل.. وحتى لو فرضنا أنه سيصل إلى شاطئ إيطالي فالمستقبل لا يبدو مضموناً.. هذا هو حالنا ياسيدي.. نحن الآن نعيش في وطن يقول حكامه أنهم يبحثون عن الفقراء لأنهم مش لاقينهم لأن هناك أناسا وحشين ظلوا طيلة السنوات الماضية يسرقون ما يستحقه هؤلاء الفقراء.. نحن نعيش في وطن يحكمه حاكم يسمح لأعدائه أن يتحدثوا عن أهمية الإنطلاقة الثانية بعد أن قضى ربع قرن في إنطلاقة أولى.. وهي أطول إنطلاقة في تاريخ البشرية.. غرانديزر نفسه وهو ينطلق لم يقض كل هذا الوقت".

أهل للحديث عن المواطن محدود الدخل لأنني بادفع فلوس جمع الزبالة مرتين، خمسة جنيه للمحصل وخمسة جنيه للزبال"، قال لي مقاطعاً "وهي فلوس زي دي تهكم ياباشا"، أغلقت السكة في وجهه لكي لا أتورط في شتيمة أندم عليها، بعد لحظات جاء اتصال من رقم آخر لم أكن أعرف أنه رقم آخر لجريدته إلا عندما سمعت صوته "معلش الخط قطع من عندي.. كنت حابب أعرف رأيك باعتبارك دائماً بتكتب عن السكان الأصليين لمصر.. مستقبلهم إيه في الفترة القادمة".

قلت له وأنا أتجاوز صغائر الأمور محاولاً أن أبحث عن إجابة لنفسى قبل أن تكون لصحيفته "أعتقد أننا نعيش الآن في مرحلة خلع البنطلون.. أبوه ماتستغربش كلامي.. لعلك قرأت قصة ذلك الشاب ابن الناس الذي أوقفه الضابط في لجنة بشرم الشيخ ومسح بكرامته الأرض وطلب منه أن يخلع البنطلون لكي يعتدي عليه.. أعتقد أن السكان الأصليين لمصر يعيشون الآن مرحلة خلع البنطلون التي يمر بها أي شخص يخلع البنطلون في لجنة ويظل لدقائق تمر كأنها قرون يفكر.. هل سيأذن له القدر بلبس البنطلون على خير أم سيعتدي عليه القدر شر إعتداء". قاطعني الشاب ضاحكا لماذا لأدري "كلامك مهم ياأستاذ بس صعب أتشره يعني.. ممكن تقول لي تشبيه تاني"، "أنا تحت أمرك.. قل لي شفت الفيديو كليب اللي بيتوزع على الإنترنت للضابط اللي بيتسابق هو وزمائله على ضرب مواطن حظه كدقيق فوق شوك نثروه ثم قالوا لحفاة يوم ريح ياولاد الكلب إجمعه"،

نعوم فوق.. ياسيد جمال لقد عرفت شيئا وغابت عنك أشياء، إذا كانت إيديكم فعلا على الأرض، فانتبهوا لأن الشعب تحتكم فمه على الأرض وقد تعب والله من سف التراب". سكت قليلا لألتقط أنفاسي فجاء صوت المراسل الملعون "هي سف التراب دي ممكن تترجم إزاي". جاء صوتي هادرا "عارف لو إتكلمت هنا ثاني هابلغ عنك إنك جاسوس". ثم أغلقت الخط.

فجأة رن الموبايل وأنا أتكلّم ليقطع ماكنت أتصوره تأملا فأتضح أنه هذيان عندما جاء صوت الصحفي الشاب ليقول لي "أنا أسف يا أستاذ الخط قطع قبل ما أسمع إجابتك على سؤالى"، قلت له "سؤالك عن المستقبل؟" قال لي "أيوه.. تمام كده"، قلت له "أنا أسف ممكن تكلمني بالليل أصل ماباحبش أتكلّم عن المستقبل قبل ثمانية مساء". وأغلقت الموبايل في أدب. أكثر من ثمانية أيام مرت وأنا أحاول أن أهرب من سماع أي شئ عن المستقبل، حتى استمعت إلى خطاب السيد جمال مبارك قبل بدء المؤتمر الرابع للحزب الوطني وهو يقول بكل ثقة "مصر بتتغير.. لكن في ناس مش عايزه تصدق.. إحنا إيدينا على الأرض.. مش بنعوم فوق". لو كنت قد استمعت إلى تصريح مثل هذا قبل حوارى مع الزبال لكنك قد أوجعته ضربا، أقصد الزبال طبعاً، بينما أنا أغلي وأفور رن الموبايل ثانية، وعاد صوت المراسل الأجنبي الملعون الذي لن أصفه أبدا بصديقي لأن هناك "سمبادي" سلطه عليا، لو لم يكن الأمر كذلك لما كان قد امتلك جرأة سؤالى عن تعليقي على تصريحات السيد جمال مبارك، قلت له وأنا أتخذه وسيلة نفس غلي "الحقيقة أهم مافي تصريحات الأستاذ جمال أو السيد جمال سمه ماشئت إسم الله عليه.. هو أنه أول اعتراف بمدى ماوصلت إليه أحوال مصر في عهد أبيه.. ألم يقل أن إيدينا على الأرض.. فعلا غالبية المصريين أصبحوا على الأرض من عناء العيش في هذا البلد.. ياسيد جمال لقد قلت أننا نعوم فوق.. فهل قلت ذلك للسيد والدك سيادة رئيس الجمهورية بأننا كنا طيلة الزرع قرن الماضي

ضحايا ولاكشوف لهم!

كنت أطالع بذهول الصفحة الأولى من صحيفة الأهرام والتي تصدرتها صورة عدد من السكان الأصليين لمصر وهم يتزاحمون أمام مجموعة من الكشوف معلقة على حائط، عندما سألتني جرسون الكافيتيريا الذاهل غالبا عما حوله ملاحظا ومشيرا إلى الصورة "إنت بتقرا جرنان قديم ولا إيه ياباشا؟"، لم أفهم جملته إلا عندما قال لي "هو مش التنسيق خلص خلاص؟.. أنا مش عارف زاحمين نفسهم على إيه.. ماحنا دخلنا كليات واتخرجنا.. خدنا إيه وفين؟.. ولا بلاش فين دي ياباشا أحسن تفهمني غلط"، نظرت إلى الصورة واستوعبت ماتخيله ثم قلت له "لا.. دي كشوف ربنا مايكتب عليك تكون فيها أبدا". كانت الصورة التي فهمها الجرسون خطأ لعدد من أهالي ضحايا قطار قليوب يتزاحمون لقراءة أسماء أقاربهم في كشوف الضحايا التي تكرمت الجهات المختصة بتعليقها بدلا من تعليق المتسببين في وقوع كل أولئك الضحايا.

كشوف الضحايا، يا حلاوة يا ولاد، هاقد أصبح لدينا الآن نوع جديد ورائج من الكشوف، زمان كان الواحد منا لا يعرف سوى كشف النتيجة الذي يتوقف عليه مستقبله الدراسي في مراحل الدراسة المختلفة، قبل أن يوصي أمه بأن تدعو له المولى عز وجل

بأن يرى إسمه في كشف تعيينات أيام كان هناك تعيينات، بعدها أصبحنا نسمع عن كشوف البركة أيام شركات توظيف الأموال فنلن أهلها ونحسداهم، ثم بعد حرب الخليج دخل إلى حياتنا مصطلح كشوف التعويضات فأخذنا نشفق على المزدحمين أمامها في السفارات وفروع وزارة الخارجية ونحسداهم أيضا لأنهم طلعا من المولد ببعض الحمص، بعدها ومع ازدهار عصر المسرحيات الديمقراطية ظهر مصطلح الكشوف الانتخابية ليصبح معلما من معالم الحياة السياسية تتخافق عليه المعارضة وتلعب فيه أجهزة الأمن ويتجاور فيه الموتى مع مسلوبى الإرادة، لكن كل هذه الكشوف صارت كوما وكشوف الضحايا التي راجت وازدهرت في العهد المباركى كوم آخر.

هل تتذكر كم مرة خلال العام الماضى فقط رأيت فيه صورا صحفية أو متلفزة أو غير ذلك لمئات من المواطنين يتزاحمون أمام كشوف معلقة على الحائط ليقرأوا أسماء ذويهم الذين راحوا ضحية عبارة أو طائرة أو قطار أو أتوبيس أو سيارة ترحيلات أو قصر ثقافة أو بيجو سبعة راكب، لاتشغل نفسك بالعد ولاتقلب على نفسك المواجه، فكشوف الضحايا في هذا العهد المبارك صارت أعجز من أن تحصي ضحاياها كلهم، هي إن جئت للحق أو جاء الحق إليك تحصي الذين قضاوا نحبهم فقط أما الذين ينتظرون ذلك بفارغ الصبر أو الذين يسعون جاهدين لكي لا يكونوا ضحايا فلم يكتب لهم بعد أن يكون لهم كشوف خاصة بهم. ربما لأنه من السهل أن تحصي الضحايا الفعليين لكن من الصعب جدا

أن تحصي الضحايا المحتملين. فأى كشوف تلك التي ستسمع لأسماء المعرضين بين غمضة عين وانتباهتها لكي يموتوا في تصادم قطارين متهاكين أو غرق عبارة مواشى تحمل معتمرين أو مرضى كتب عليهم دخول سلخانة حكومية أو محشورين في بيجو يسير على طرق ممهدة إلى الموت أو معرضين للهلاك المسرطن بسبب سوء التغذية أو انعدامها أو تلوثها؟ تعددت الأسباب بإصاح والكشف واحد. سلمها لله إذن وادعه خاشعا متصدعا بالأ ينقل إسمك أنت ومن تحب ومن يتشدد لك من كشف الضحايا المحتملين إلى كشف الضحايا الفعليين. هل هناك شئ آخر يمكن أن تفعله في مصر غير أن يلهج لسانك بدعوة مثل هذه؟ لاتحدثني عن إقالة هذا المسئول أو ذاك، عيب أن تخدع نفسك، ولاتشغل بالك بالسؤال عن يتحمل وزر ماحدث، سواق القطر التي قدام أم سواق القطر التي وراء، فأنت تعلم وأنا أعلم والله من فوقنا جميعا يعلم أنه طالما لم نكن قادرين على محاسبة سواق القطر المصري بضم الفاف هذه المرة فمن العيب أن نسأل عن أخطاء أي سواق آخر.

أقرأ تغطيات الصحف الحكومية لردود أفعال المسئولين على الكارثة، وأشعر أن بعض كتابها وصحفيها يريدون أن ينطقوا بما يكاد ينطق به مسئولو الحكومة نفسها "احمدوا ربنا.. إنتو عايزين إيه.. اللي مات هيطلع له بيجي ثلاثين ألف جنيه ماكانش أهله هياخدوهم وهو حي"، لاصوت يعلو فوق صوت التعويضات، كلما علا غضب الرأي العام زاد الرقم ألف جنيه أو خمسة آلاف جنيه،

هكذا هي بلادنا من قديم الأزل، الشعب اللي تعرف ديتة إحكمه، لاتحدثني عن قيمة الإنسان نفسه، لاتحدثني عن حياته التي لاتقدر بمال، لاتحدثني عن إمكانية أن تصبر أسرة لأنها فقدت فردا منها في كارثة طبيعية زلزال أو إعصار أو أي مصيبة سماوية، وليس لأنها فقدته بسبب فساد حكومي أو إهمال بشري. لاتحدثني عن الحساب فلو كنت منصفًا لقلتها بعلو صوتك "تحاسب مين ولا مين ولا مين والدودة في أصل الشجرة؟". من نخدع جميعا، حتى نحن الذين نتحدث عن وزير النقل ونطلبه كبش فداء بحجة أنه صديق جمال مبارك؟، لماذا لانواجه أنفسنا بصدق وشجاعة لنقول بصوت عال أن المشكلة ليست ابدأ في الذين ماتوا في قطار قليوب أو عبارة البحر الأحمر أو مسرح بني سويف أو حضانات أطفال مستشفى الشاطبي، المشكلة في الذين لم يموتوا بعد.

المشكلة في الأحياء الذين يسرون في مناكب مصر وكل منهم يعلم أن ديتة بالكثير ثلاثين قول خمسين ألف جنيه ستدفعها الحكومة بأعين بجحة وسع كداهوه، الأحياء الذين يسعون على رزق عيالهم وهم يعلمون أنهم لو قدر لهم أن ينتقلوا من كشوف الضحايا المحتملين إلى كشوف الضحايا الفعليين سيصبحون مجرد أرقام تتشر في عناوين الصحف، أرقام سيستخدمها المعارضون للعن سنسفيل الحكومة المباركة، وسترد عليهم الحكومة المباركة بأرقام أخرى للتعويضات التي إذا صرفها أهالي الضحايا والجرحي يفترض أن تغنيهم عن كل شئ، يفترض أن يغرقوا

بعدها في بلهنية العيش، يفترض أن يحمدا ربنا أنهم لم يكونوا في كشوف الضحايا الفعليين ويخرسوا خالص. بعد أن أدرك جرسون الكافيتيريا أن هناك شيئا خطأ فيما قاله وبعد أن فهم التينة، وباليته ما فهم قال لي "بصراحة باباشا أنا باحسد الناس دي، ثلاثين ألف جنيه، ده أنا باقبض تلتميت جنيه في الشهر وباتشحطط بيهم طول اليوم والمصحف أنا لو أبويا عرف هيقول لي ياريتك كنت مت في القطر ده يابعيد.. بيني وبينك باباشا لو أضمن أعملها بس الفقري اللي زبي الموت هيعانده أنا عارف.. هاطلع من الجرحى وأخد خمسة آلاف جنيه أصرفهم على العلاج". ينظر إلي مستغربا لأنني لم أضحك على كلامه، يقول لي "طبعًا تلاقك سرحان بتحفظ في البوقين اللي قلتهم.. بكره الأقيهم في فيلم.. بس والنبى لو ده حصل ومادفعتش حقهم هاتف لك في القهوة قبل ماأجيبها لك". أنظر إليه وهو يذرع المحل جيئة وذهابا بكل نشاط وأستغرب قدرته على نسيان كونه ضحية محتملة، محتملة إيه ياعم الحاج، إذا لم يكن هذا الإنسان ضحية فعلية فمن سيكون إذن.

وجوه الضحايا الفعليين التي تاهت من كشوف هذا العهد السعيد تطاردني واحدة تلو الأخرى، أتذكر تلك المكالمة التي جاءتني ليلة عيد الفطر اللي قبل اللي فات أو اللي قبله، مش مهم أفتكسر لأنني لأريد، يأتي إلى بعض جيراني يطلبون مني واسطة لدى أحد مسئولى الجمعية الشرعية، "شوف لنا أي صحفي من معارفك"، لماذا لم أسألهم عن المشكلة أولا، لست أدري، المهم

عليك هل سترفض فوراً أم أنها ستفكر في الأمر إذا لم تقل لك
أبوس إيدك إنت متأكد إنني هاموت ومش هيسرقوا فلوس
التعويضات.

في برنامج الحقيقة للصديق وائل الإبراشي شاهدت منذ أشهر
حلقة مع والددة الشغالة التي اتهمت الراقصة بوسي سمير
باحجازها ودفعها للإنتحار، كانت الأم تتحدث بحماس شديد عن
السبب الذي دفعها لكي تجعل ابنتها تعمل شغالة، فجأة في سياق
الكلام تحدثت عن مكتب من مكاتب توظيف الشغالات فقالت
وكانوا في المكتب ده بيدوا فلوس تفوق الخيال للي تسبب الشغل
وهي ساكتة، سألتها وائل "كانوا بيدوا كام"، انتهت لأسمع وبالييتي
مانتهيته، قالت وقد اتسعت حدقتا عيناها من رهبة الرقم الذي
قالته "يعني ألف جنيه مرة واحدة"، شكراً بامصر، هذه سيدة تظن
أن ابنتها سيئة الحظ لأنها لم تعش حتى تحصل على الفلوس التي
تفوق الخيال، اللي هي ألف جنيه مرة واحدة، طيب بنتكلم في إيه
أعزائي معشر الضحايا المحتملين؟.

أثناء محاولتي التماسك لإكمال هذه الكتابة على خير أو حتى
على شر، أعود كعادتي إلى ملف الأوراق التي أقصتها من
الصحف، أحتفظ بتقرير نشرته صحيفة المصري اليوم أجرت فيه
حواراً مع طالبة ثانوية عامة اسمها أمل حسن عمرها ستة عشر
عاماً، كان الصحفي يسألها عن أحلامها في المستقبل فقالت "بإذن
الله سوف أصبح من الأوائل وأدخل كلية الطب علشان أعالج
الناس من المرض الذي انتشر في البلاد بس المشكلة إن

أنني اتصلت بعدد من الأصدقاء لأجدهم مسافرين إلى مدينة
خارج القاهرة، بعد ساعتين ذهبنا لآيد من السؤال، طيب
ماهي المشكلة بإخواننا، بالييتي ماسألت، أم شاب منهم توفاه الله
بعد صراع مع أطباء المستشفيات الحكومية وممرضاتها وإهمالها،
طيب ماعلاقة الجمعية الشرعية بالأمر، أصلها بتوفر سيارات نقل
موتى مجاناً، والست لازم تتدفن في البحيرة والدنيا عيد وكل سنة
وانت طيب، كل هذا ليس مشكلة، المشكلة أن الوساطة التي
يطلبونها هي إعفاهم من دفع قيمة مشوار العربية، اللي هو كام
سعادتك، اللي هو مائة وعشرين جنيهاً فقط لاغير. عاش الحزب
الوطني. عاش الرئيس مبارك وإبنه وأعوانهما. بنتكلم في إيه
طيب؟. ارض بتعويضك السخي أيها الضحية المحتملة وكل
واشكر سيدك وإبن سيدك وأصدقاء إبن سيدك.

أتذكر السيدة صباح ذات الوجه الصبوح التي عملت ذات أيام
غبراء شغالة في بيتي، ولم تستمر، لماذا لأنني اكتشفت أنها أصلاً
محامية، طالعت كارنيهها بأمر عيني بدل المرة عشراً، رفدت
الحكومة زوجها تحت إسم المعاش المبكر فحولته إلى سيكوباتي
يعيش عائلة عليها، لم تجد من يعطيها حقوقها ولا حقوق ابنتها فلم
يكن ممكناً أن تعمل من أجل رد حقوق الناس، المجتمع الشريف
العفيف الذي يجب الله ورسوله أراد كثيرون من أفراد حته منها
فقررت أن تعمل في خدمة البيوت أشرف وأعف. طيب بنتكلم في
إيه؟. سيبك من كل هذا وقل لصباح ولغيرها سنعطيك ثلاثين ألف
جنيه وارمي نفسك في هذا القطار المتجه إلى الموت وقل لي بالله

برنامجا في التلفزيون وفجأة سمعت كلمة " جريب فروت" فسألت نفسي سؤالا لم أفكر فيه من قبل، وأقسم لك بالله أنني أسأله جادا لاهازلا، ماهو الجريب فروت؟؟ الواضح طبعا انه فاكهة لكن شكله ايه؟ طعمه ايه؟ يتاكل ازاي؟. الله اعلم. أخذنى هذا السؤال الى اسئلة اخرى كثيرة.. خذ عندك... انا ليه معرقت الجريب فروت؟. طيب هل حييجى عليا يوم واكله ولا حعيش واموت محروم من الجريب فروت؟. طيب هما اللي بياكلوا الجريب فروت احسن منى فى ايه؟ و طبعا مفيش ولا اجابة على اى سؤال فيهم... انا معنديش اعتراض على ان فى ناس يتاكل جريب فروت ...الف هنا وشفا... بس انا كمان من حقى اكل منه او على الاقل اعرف شكله ايه؟! هل اللي انا فيه ده ذنبى؟ ولا ذنب اللي بياكلوا جريب فروت؟ ولا ذنب البلد اللي بتخلى ناس يتاكل جريب فروت و ناس تانية بتجاهد يوميا عشان تلحق تاخذ رغيفين من الفرن... ولا ذنب الجريب فروت؟". ماعلاقة هذه الرسالة بكل ما نتحدث عنه الآن؟ بالطبع هناك علاقة وثيقة لامراء فيها وإذا لم تدرك علاقة شغف أحمد بضحايا قطار قلوب الباحثين عن واسطة في الجمعية الشرعية بصباح وإبنتها بالذين يموتون في البحر المتوسط قبل تحقيق حلم الوصول إلى شواطئ إيطاليا فالمشكلة عندك أنت وليست عندي. على أي حال دعني أذكر لك فقط أن مشكلتي الحقيقية مع أحمد كانت أنه بعد مناقشته عبر الإيميل اتضح أنه زعلان لأنه يتخيل أن الجريب فروت فعلا حاجة حلوة قوي تستحق الزعل على الحرمان منها، وهو ماكنت أظنه أنا نفسي

المصاريف كثيرة والحياة أصبحت للأغنياء فقط"، لم تعش أمل لكي تحقق هذه الأمنية، فقد قتلها أبوها هي وأمها وأخواتها الثلاثة لكي يريحهم من متاعب الحياة حسبما قاله في شريط الكاسيت الذي تركه قبل أن يرتكب جريمته. كم تستحق أمل من تعويض لأنها عاشت ما يجعلها تقول كلاما كالذي قالته قبل الذبح، وكم يستحق أبوها نفسه من تعويض باعتباره ضحية فعلية كاملة الأوصاف. أقلب الأوراق كأنني أقلب كشوفا افتراضية، شابان يقتلان الفنان عبد البديع عبد الحي ليسرقا ٤٠٠ جنيه. ٥٠ جراحة زرع كلى تكتشف بالصدفة في اسبوعين فقط. شاب يقبض مقابل كليته ١٢ ألف جنيه بينما نقيب الأطباء حمدي السيد يقول لصحيفة ميل أند جارديان البريطانية أن ثمن الكلية يصل إلى ٨٠ ألف دولار يدفعها مرضى الخليج، من سيدفع الفرق للضحايا ومتى سيكون هناك كشوف بأسمائهم.

قبل أن اصل إلى تقرير عن تجارة جديدة لبيع الدماء يدمنها بعض الشباب العاطل أتوقف، لأحتمل مزيدا من التقلب في ملفات الضحايا، أسارع بمغادرتها لكن نفسي الأمانة بالسوء تحدثني بقراءة ورقة طبعتها من على إيميلي وأجلت نشرها، ربما لأن قراءتها لأول مرة كانت أكبر من قدرتي على صياغتها أو التعامل معها، أحمد متولي من الإسكندرية لديه الشجاعة أن يذكر اسمه بل وكليته، " سيدي انا طالب فى كلية تجارة انجليزى جامعة الاسكندرية... اذكر ذلك فى بداية كلامى حتى لا يظن البعض انى جاهل... لئن اطيل و سادخل فى الموضوع مباشرة، كنت اشاهد

ذات يوم، يعني منذ أن كنت أنا مطرحة وحتى الآن لم تستطع
مصر أن تعلم أبناءها أنه لاداعي لأن تكي أبدا على الجريب
فروت، لأن البرتقان برفيته.
ولأراكم الله حبيبا في كشف ضحايا لديكم.

عزيزي المواطن..

إوعى حد يوريك "القطر"!

أستغرب كثيرا أن يتحدث الكثيرون في وسائل الإعلام عن جرائم سفاح أطفال الشوارع الشهير بالتوربيني كأنها حدث غير مسبوق مع أنها لاتعد شيئا مقارنة بما ارتكبه سفاح المصريين الحزب الوطني الشهير بحزب الأغلبية. الفارق الأساسي بين التوربيني والحزب الوطني هو أن التوربيني يرمي ضحاياه من فوق القطار بينما الحزب الوطني يرمي ضحاياه داخل القطار. التوربيني سقط في يد العدالة بعد أن قتل عددا من الأطفال يتجاوز العشرين طفلا، بينما تبدو يد العدالة غير قادرة على الإمساك بأي من توربينات الحزب الوطني الذي قتلت حكوماته بفعل إهمالها وفسادها وتسببها آلاف المواطنين في القطارات والعبارات والطرق السريعة، فضلا عن ملايين منهم من قضى نحبه بالأمراض المستعصية والقهر والفقر ومنهم من ينتظر أجازنا الله وإياكم.

عندما استغربت إهتمام صديقي المراسل الأجنبي المبالغ فيه بقضية التوربيني التي ربما تعامل معها أغلب المصريين بوصفها "من ضمن المصائب" التي يعيشونها، بل وربما أخذها البعض مادة خصبة للكوميديا السوداء رياضة المصريين المفضلة، قال لي أنه

تعامل مع التوربيني بكل هذا الإهتمام لأنه يبدو قاتلا إستثنائيا في تاريخ مصر. ليس فقط لأنه قرر مع سبق الإصرار والترصد أن يرد للمجتمع عطاياه، بل لأنه قاتل تسلسلي في بلد يتمتع كل من فيه بقصر النفس، حتى القنلة.

استثنى ريبا وسكينة اللتين رفعتا رأسنا عاليا بين قنلة الكون وستلاحظ أن القاتل المصري لحسن حظنا يكتفي عادة بضحية أو اثنتين قبل أن يولع في نفسه بجاز أو يسلم نفسه للبوليس ويبدأ رحلته مع الندم مع أول قلم في قسم البوليس، بينما في المجتمعات الغربية يبدو القاتل التسلسلي مألوفا نوعا ما، يتسابق القنلة التسلسليون هناك في تحقيق الأرقام القياسية سواء في عدد ضحاياهم أو في عدد السنوات التي يقضونها قبل سقوطهم في أيدي العدالة، برغم أن الحكومة هناك لاتقدم لهم التسهيلات التي تقدمها الحكومة المصرية للمجرمين، فمن يستطيع إنكار دور البنية الأساسية في بناء النفق الذي اختبأ فيه التوربيني وصحبه طيلة السنوات الماضية، ومن يستطيع إنكار التسهيلات الأمنية التي جعلت من محطات القطارات مسرح جريمة مكيف الهواء وكامل التجهيزات يكفي لإغتصاب وقتل أكثر من عشرين طفلا في زمن قياسي، عندما تستمع إلى التوربيني وهو يقول في التحقيقات التي تناقلت الصحف أنباءها أن سر إختياره للقطارات كمسرح لجرائمه هو "أصل ماحدث كان بيقولي إنت رايح فين".

لاأريد أن أكون قاسيا في الحكم على مباحث السكة الحديد التي لعلها كانت مشغولة بتأمين القطارات من ركوب الإرهابيين

أو أعضاء حركة كفاية وجماعة الإخوان القادمين للمشاركة في مظاهرات العاصمة، لكنني لأستطيع منع نفسي من إفتراض أن مشهد طفل شوارع يمسك بطفل صغير ويدخل به إلى محطة القطار أمر لا بد أن يكون مثيرا للريبة خصوصا أن إدراك العلاقة بين محطات القطارات والإعتداء على الأطفال ليس أمرا وليد هذه الأيام بل هو جزء من الثقافة الشعبية المصرية يتم توارثه عبر الأجيال.

أبناء الأحياء الشعبية مثلي يحفظون جيدا تلك النصيحة التي كنا نسمعها ونحن أطفال أكثر من نصيحة غسل الأسنان قبل النوم، "إوعى حد يقولك تعالى أوريك القطر"، لم يفكر أحد منا أبدا أن يسأل عن حكمة تلك النصيحة وسر ارتباطها بالقطار دون أن غيره من وسائل المواصلات مع أنه لم يكن جديدا على أيامنا بالطبع، وكان الواحد منا امتثالا للنصيحة الخالدة يكتفي بالإعتذار لأي طلبات ترده لرؤية القطار بأن يقول بأدب " شفته قبل كده"، أو أن يكون أذكي فيقول لصاحب العرض المريب " معلش أصلي باركب بيجو".

صديقي المراسل الأجنبي أخذ ماقنته له بجدية شديدة وبدأ يفكر في عمل زاوية في قصته الخيرية عما إذا كانت النصيحة الأسرية الشهيرة بعدم الإستجابة لمن يعرض رؤية القطار قد اندثرت خلال السنوات الماضية مع تقطع الروابط الأسرية وصلة ذلك بوقوع هذا العدد الكبير من الضحايا بين يدي التوربيني ورفاقه، لكنني قلت له أن ظروف الحياة القاسية في أزهى عصور

الفقر التي نعيشها لم تنس السكان الأصليين لمصر فقط أن ينصحوا أبناءهم بالحذر ممن يدعوهم لرؤية القطار بل أنستهم أنفسهم لدرجة أنهم يمكن أن يستجيبوا لهذه الدعوة لو وجهت إليهم.

ككل ما باتت تشهد مصر الآن، يبدو الأمر حزينا بقدر ما يبدو عبثيا، يتوقف صديقي الأجنبي عند تفصيلة ربما لم تلفت إنتباهنا كثيرا، هي أن مصر هي البلد الوحيد الذي عندما تتعرض فيه للإغتصاب والقتل تكون مضطرا لبذل مجهود إضافي لل صعود فوق سطح قطار. لألومه لأنه ليس فقط من حضارة أخرى بل من دنيا غير الدنيا عندما يسألني عن السر الذي يجعل أي إنسان مهما كان معدل ذكائه منخفضا يوافق على أن يدعو أحد للصعود على سطح قطار، للحظات هممت بأن أشرح له العوامل النفسية المرتبطة بظاهرة التسطيح التي ترتبط بدخول الإنسان المعاصر مرحلة العدمية الإنسيابية والتي لم تعرف بعد، لكنها إذا عرفت يمكن القول أنها المرحلة التي تصبح كلمة "ماتفرقش" هي الرد الوحيد على كل الأسئلة، لكنني تراجعت عن قول ذلك مفضلا أن أغرق في ذكرياتي عن الأيام التي كنت أعتبر نفسي فيها وأنا مدفون في زحام قطارات الدرجة الثالثة واحدا من المحظوظين لأن الأيام بكل قسوتها لم تضطرنني بعد للتسطيح على القطار، كان ذلك بالنسبة لي الخط الفاصل بين الوجود والعدم، أن تكون نائما على كرسي يقطع الضهر وفي مواجهة فمك تتدلى بيادة مجند مرهق، وعلى محرك عشرين بسكوثة خلفها صاحبها الميت ولابد

أن تشتريها لكي تخرج ورثته من أزمته، هو أفضل بكثير من أن تكون مضطرا للتسطيح على القطار حيث يغتصبك الهواء فعلا لامجازا وتظل طيلة الطريق الذي لا يعلم أحد حتى سائق القطار مدته معرضا للدرجة والسقوط بين عربات القطار مع أي فرملة غير مبررة، هذا إذا كان هناك في قطارات مصر فرملة غير مبررة، بالنسبة للكثيرين من السكان المنتفعين بمصر يبدو التسطيح أمرا لذيفا أو أوريجينال أو في أحسن الأحوال التقافية مثيرا للشجن لأن أحمد زكي أو منتصر في فيلم الهروب كان يسطح على القطار وهو ينظر للصقر بنظرات مليئة بالحيرة والعزة، وإذا كان هؤلاء لم يفهموا التسطيح أبدا فهل يفهم هذا الأجنبي الذي اتخنت منه كل هذا، قررت تركه لكي لأجد نفسي مقورطا في الإساءة لبلادي خاصة أنني لست أهلا لأن أساعده على الفهم إذا كنت أنا نفسي لم أفهم نفسي أبدا وأنا شغوف بالتعلق في الهواء الطلق لأفصلني عن الموت أو الشقلطة على الأسفلت سوى الإمساك بحديدة عربية ربع نقل عدد من هم خارجها أكثر ممن بداخلها، بينما يكتفي ركاب السيارات الملاكي بالنظر إليهم باشمئناط والضرب كفا على كف قائلين " يعني مش قادرين يستنوا العربية اللي بعدها.. ده إيه التخلف ده"، لاتسني كيف سمعت ماقالوه، فأنا أقوله الآن عندما أرى هذا المنظر الذي أعتبره دائما الرد القاطع المانع الجامع على كل من يتحدث دون فهم عن سلبية المصريين وعدميتهم، دون أن يدرك كيف يمكن أن تكون ظروف الحياة قاسية إلى حد يجعل الحياة ذات نفسها "ماتفرقش".

خادشا لتلك الطبقة الخادعة من السلام الإجتماعي، لسنوات طويلة ظلت الناس تترك هذا القانون جيدا، لكن المشكلة الأخطر في رأيي أن الناس بدأت تنتهك هذا القانون وتخرج إلى الشارع الكبير، من يومين شاهدت في وضح النهار رجلا يبدو أنه عاقل بالغ بدليل أنه يمسك موبايل في يده وهو يتبول في الشارع الرئيسي إلى جوار وزارة الخارجية مباشرة، لأدري إذا كان ذلك موقفا من سياسات الوزير أحمد أبو الغيط، لكن ما أدريه أن زمن عدم اعتداء الشوارع الخلفية على الشوارع الأمامية قد بدأ.

في عيادة الطبيب وجدت نفسي مجبرا على الإستماع لنشرة تسعة والعياذ بالله، كان المذيع ينقل تصريحاً للرئيس مبارك قال فيه لرؤساء تحرير الصحف القومية أن النزول إلى الشارع قرار غير حكيم، ظننته يقصد شوارع الدويقة أو مدينة السلام أو الضهرية، لكنني اكتشفت أنه يقصد شوارع بيروت، مع أن بيروت على مدى أكثر من أسبوع من التظاهر بمئات الآلاف لم تشهد سوى حادث قتل واحد جاء مع سبق الإصرار والترصد، لكن كم حادثا شهدته في نفس الفترة شوارعنا التي تمتلئ بالحكام الذين لا يعترضون على أحوالهم أبدا. هل أبدوا لك متشائما؟ هل أشعرك كلامي بالقلق؟ هل تريدني أن أقول لك أن الأمور بخير طالما كنت أنا بخير وأنت بخير؟ هل نحن حقا بخير؟ إذن من أين جاء التوربيني؟. شفت أن كل ما أحدثك عنه له علاقة بالتوربيني؟.

منذ أيام جاعني صديق اعتبره دائما من خيرة الناس وهو يتصيب عرقا وفرعا، وحكى لي كيف أنه وهو من سكان حي

هل استعدت بخواطري وأفكاري عن موضوع التوربيني؟ لأعتقد حتى لو كنت أنت تشارك صديقي الأجنبي الإعتقاد بأنني فعلت؟. أفضل أن أحتفظ بأفكاري بعيدا عنه وعنك لو أردت. بالنسبة لي كل الأمور الخاطئة والمريبة في هذه البلاد صارت "منفذة" على بعضها، أن يموت عشرون طفلا بعد إغتصابهم من فوق قطار لا ينفصل أبدا عن أن يحترق مئات أمثالهم داخل قطار، وأن تغرق ألف نفس في مياه البحر ظلما وعدوانا بينما الشعب يرقص طربا لأنه هزم كوت ديفوار، لا يمكن أن ينفصل أبدا عن تحول الشوارع إلى مفرخة لإنتاج الإرهابيين والسبرتجية والقتلة التسلسليين، كما أن كل ذلك في حقيقة الأمر ليس سوى محصلة لتحول البيوت التي هزمها الفقر وفتتها الإصلاح الإقتصادي وفرمها إحساس رئيس البلاد الدائم بمحدودي الدخل إلى أماكن طاردة للبشر، الرجال إلى شغلانة تلو الأخرى في اليوم ثم إلى الإرتواء مخمودين آخر اليوم وإلا فإلى القهراوي للتفيس بالدمنة والمعسل والشكاوي، والنساء إلى عتبات البيوت وشاشات الوصلات لتتحسر على الحال والتفكير في وسائل جديدة للتأكيد على الرجال، والأطفال إلى شوارع الضياع حيث يمكن أن تغض عنك الحكومة الطرف طالما كنت قادرا على معرفة الدهاليز الخلفية التي تجري فيها من عريبة الأتاري بعد أن تشرح أحدا بالموس أو تسرق مواطنا غافلا أو تدعو زميلا لك لرؤية القطار.

للشوارع الخلفية قانونها في العهد المبارك، إفعل ماشئت شريطة أن لا تخرج إلى الشارع الكبير شاكيا أو لاعنا أو حتى

المهندسين الرافعي فوجئ وهو بصحبة والدته بطفل شوارع لايتجاوز العاشرة من عمره يأتي إليه وهو يستعد للتحرك بسيارته أسفل بيته، وبدأ في مسح زجاج سيارته بخرقه متسخة زادت زجاج السيارة سوءا على سوء، بحركة لإرادية شخط صديقي في الطفل الذي سدد إليه نظرات ذكرته بنظرات أنتوني هوبكنز وهو يجسد دور السفاح هانبيال لانكتر في فيلم صمت الحملان الشهير، سألته ما إذا كان قد أخرج له لسانه ولعق الزجاج كما فعل هوبكنز، فشخط في طالبا أن استمع إلى باقي الحكاية، وهي باختصار أن الطفل عندما أحس أنه اهتز قليلا بفعل النظرات التي سدها له، توجه فورا إلى شبك العربية الآخر وأخرج من فمه موسا وأخذ يشوح به في الهواء قبل أن يخفي كفض ملح ذائب بعد أن تحرك بواب العمارة نحوه، هل يبدو لك صديقي خرعا وهو يشعر بهذا الفزع، ربما تراه كذلك، لكني لم أراه كذلك وهو يسألني بجزع "يعني خلاص قريت بقى إنك تمشي في الشارع فتترفع وتتقلب أو تتطعن من غير مايقالك دية"، بالطبع طمأنته أن ذلك لن يحدث بسرعة طالما بقي دائما في حدود المهندسين وماحولها لأن الحكومة ستكون حريصة دائما على حمايته لأنه في وجهها، أما الكتلة الغاطسة في حرارة الفقر فلها الله أو لتأكل في بعضها.

في موضع آخر حكى لي صديق برضه من خيرة الناس كيف انخفضت أسعار الشقق والفيلات في مدينة الشروق والقاهرة الجديدة بسبب كثرة حوادث السرقة التي تتعرض لها المدن الجديدة على أيدي الخارجين على القانون من سكان العشوائيات المجاورة

لها. ليعقب عليه صديق آخر من شرار الناس في جلستنا بمقولة ضابط بوليس في أحد أحياء إسكندرية العشوائية قال للناس عندما اشتكوا له من تغول ظاهرة أطفال وشباب الشوارع الذين يمارسون البلطجة وبيع المخدرات والإعتداء على الأطفال فرد عليهم بأن قوة القسم لا تتسع إلا للقبض على ستين أو سبعين منهما بينما عدد المشبوهين في شوارع المنطقة يتعدى الثلاثمائة، يعني محتاجين خمس أقسام كمان.

هل سنتعبرني مدافعا عن وزارة الداخلية عندما أقول لك أن الحل الأمني على أهميته لن يكون أبدا حلا ناجعا، طالما استمرت سياسة الإفقار المتعمد للناس والتي لم يعد ممكنا أن تسيطر الحكومة فيها على سعر كيلو البصل، بينما المفروض أن تسيطر على السلام الإجتماعي. عندما أفكر في الجملة التي نقلها صديقنا عن ضابط الشرطة أقول لنفسي فزعا أن المشكلة الحقيقية في مصر لم تعد في أن القانون لا يطبق، بل في أنه إذا تم تطبيقه فعلا فلن يكون هناك متسع في سجون وأقسام مصر للمخالفين للقانون. أنصار نظرية المؤامرة يقولون أن هناك قرارات حكومية سرية بعدم التشديد على الناس في جوانب كثيرة في الحياة لكي تعدي اللبلة ولا تضيق صدورهم فيبدأوا في التساؤل قائلين "إسمعني إحنا مالحرامية مالبين البلد وماحدث بيدوس لهم على طرف".

لم أكن أبدا من أنصار نظرية المؤامرة لكني كلما نزلت إلى الشارع أجد الكثير من الوجاهة في نظرية مثل هذه، تبدو الدولة كأنها تدير وجهها الناحية الثانية ليصنع الكثيرون ماشاؤوا طالما

أنهم يطحنون في بعضهم البعض ولا يفكرون في أن يسألوا عن مصيرهم في الأيام القادمة، لأدعي أنني أعرف الناس كلها لكنني أستطيع أن أزعم أن كثيرا ممن أعرفهم لا يبدون هنا على الإطلاق، كلما جلست في جلسة وجرنا الحديث إلى مستقبل البلاد ومهزلة التعديلات الدستورية أسكتتني ذات العبارة "يا عم ماتوجعش دماغنا.. إياكش تولع"، نفس المنطق الـ "ماتفرقشي" يسود لدى الغالبية، المهم أن ينتصر الأهلي في اليابان وأن نتجاوز عفة الإشارب مع فساد النفوس، أن يزيد الحجاب حتى لو نقصت العفة، أن تكثر المساجد ولو قل المصلون، عندما أفكر في كم التحذيرات التي استمعت إليها قبل ولادة ابنتي من أن أسميها إسما يبدو عليه أنه مسيحي أصاب بالفزع خاصة أن كل من كان يحذرنى أناس متعلمون وحاصلون على درجات في العلم، ناهيك عن الكم المرعب من القصص التي أسمعها عن اختطاف هذه الفتاة وتنصير تلك السيدة وإدخال ذلك القسيس في الإسلام، بلاش عندما أفتح الإيميل أفاجا بأن أغلب الإيميلات التي ترسل إلي وإلى عشرات غيري بطريقة الفورود تناقش قضايا تصلح للقرن السابع أو التاسع الهجري أو لمجتمع غير مجتمعنا يوشك على الغرق.

منذ أيام وأنا في بيت أحد أقاربي كنت أستمع وأنا أشعر بطرب حقيقي إلى العالم المصري الدكتور محمد النشائي الذي يكفيه فخرا أنه اخترع فرعا جديدا من العلم لم يسبقه إليه أحد، أسأل نفسي كيف يمكن أن نخاصم مصر عالما مثل هذا أقل مما يمكن فعله معه أن تفتح له ساعات من الإرسال المباشر لعله

ينفض العنكبوت الذي عشن في عقولنا، فجأة تغير الإرسال لأجد مكانه قناة الناس التي تبث شيئا يتحدث عن آداب الإبتسام والضحك في الإسلام وأجد قريبة لي هي طيبة بالمناسبة تعتذر لأنها لا تستطيع أن تفوت هذا الموعد اليومي مع هذا الشيخ، قلت لها أنني أزعم أننا يمكن أن نتقرب إلى الله أكثر لو استمعنا إلى الدكتور النشائي، وأن الله عزوجل قد يغفر لنا إذا ضحكنا بدون أدب، لكنه لن يغفر لنا أن نعيش في هذه الدنيا أحمره لانضيف لها شيئا ولانعمرها كما أمرنا بالعلم، كان لساني يتشك ولا أقول هذا، لأنني قضيت ساعة إلا ربع أفنعتها بأنني لأستهزئ بالإسلام ولأكره الشيوخ مستشهدا بأننا صلينا العشاء سويا قبل أن أنزل معتذرا لأنني أفسدت السهرة. في الأسبوع الماضي أخطأ صديقي الفنان المبدع هشام رحمة عندما قام برسم التطرف الذي كنت أحكي عنه في مقالي "المحاكم الشرعية الصومالية فرع مصر" على أنه تطرف للحية المشعثة والجلباب القصير، التطرف الأخطر في مصر صار تطرف العقل الذي يرفض التفكير في جسد حليق الذقن يرتدي أحدث الموديلات. دعني أقل لك أنني عندما أرى أغلب من حولي وهم يتحدثون عن الدين وحكمه ورأيه لأجد على لساني إلا سؤالا واحدا " إذا كنا عارفين ربنا إلى هذا الحد فمن أين إذن جاء التوربيني وصحبه؟".

في الشوارع يبدو الناس وقد ناؤوا بحمل ثقيل لا يملكون معه إلا السجهم وتبادل النظرات العدائية، منذ يومين ضببطت نفسي متلبسا وأنا أقول ساخطا "ياسيدي على الروقان" بعد أن شاهدت

سيارة إلى جواري يصفق فيها بعض الشباب طربا على أنغام غناء الشيخ ياسين التهامي، جرب أن تقيقه من الضحك وسط زحام المدن الذي أصبح عادة لايقطعها الله، وراقب كيف سينظر إليك من حولك، أما الشوارع نفسها فتبدو وسط كل هذا كنيبة متربة متسخة، انقبض قلبي بشدة عندما أصبحت أشعر أنها تذكرني بتلك الشفق التي يركنها أصحابها لفترات طويلة باحثين لها عن أي مستر أو مؤجر، تبدو شوارع مصر هكذا كأنها أصبحت بلا صاحب، كأنها تنتظر الآتي ولا يأتي، كأنها تعبت خلاص.

ساعتبرك قادرا على تحملي إذا كنت لاتزال تقرأ مقالي حتى الآن، ولذلك سأسألك السؤال الأهم بكثير من سؤال "من أين جاء التوربيني"، سؤالا شديد الجراءة، سؤالا ينقل صدري بشدة منذ فترة، خلص ياسيدي وإسأل، حاضر، سؤالي ببساطة "هل فعلا حسني مبارك هو مشكلتنا؟ هل ستصلح أحوالنا إذا لم يكن هو الذي يحكمنا؟ وهل ستكون أسعد حالا لو جاء ابنه أو غير ابنه ليحكمنا ونحن على نفس هذا الحال؟".

أعلم أنك لن تظن بي انهزاما أو تخاذلا أو تراجعاً عن أفكارى المعارضة التي تحمل نظام الرئيس مبارك المسئولية عن تردى الأحوال في مصر، لكنني أصبحت غير قادر على تخطي هذا السؤال الذي يطاردني في اليوم ما بين أربع إلى خمس مرات لأسباب متفرقة، منذ أسبوعين فرحت عندما قرأت مقالا لكاتب معارض متميز هو الدكتور إبراهيم السائح أحد أبرز كتاب

صحيفة التجمع التي كتب في عموده فيها قائلا " إن كنا جميعا نعلم أن النظام المصري فاشل وضعيف وفاسد، فلماذا يستمر مبارك في حكم البلاد لمدة ربع قرن دون أدنى منافسة حقيقية ولماذا يستغيب به الضحايا رغم أنه صاحب القرارات التي تقطع رقابهم... السبب الرئيسي في استمرار مبارك رغم سوء أدائه هو أننا جميعا ننافس في سوء الأداء، كل قطاعات الشعب المصري أدائها العام والخاص أقل كثيرا من أداء حسني مبارك، قد يكون مبارك نفسه أحد أسباب سوء الأداء العام في مصر ولكنه بالقطع ليس السبب الوحيد، كل الناس في مصر يتهمون حسني مبارك بأنه رئيس على قد حاله، والبعض يتطاولون عليه ويتهمونه بأنه ليس رئيسا على الإطلاق وأنه لا يصلح لحكم قرية صغيرة وليس دولة في مساحة مصر وقيمتها وتاريخها، ولكننا جميعا ننسى تقييم أنفسنا وأدائنا ومستوانا العام والخاص، ولو فعلنا لوجدنا أننا إما مثل مبارك أو أقل منه، ولهذا يستمر في حكمنا طوال هذا العمر لأن الحال من بعضه، ويرفض الاعتراف بانقراضنا له لأن الذي بينه من زجاج لا ينبغي أن يقذف الناس بالطوب".

أعرف أن كلام الدكتور السائح الذي لم أشرف بمعرفته لن يسعدك أبدا، أعرف أنك غالبا ستراه يائسا أو متسائما أو ملقيا اللائمة على غير أهلها، لكنني أقول لك أنني وبعد تفكير طويل أتفق معه تماما، بالطبع هو لم يجب التائهة ولا أنا أيضا، وبالطبع هناك كثيرون سبقوه إلى مقالته لعل أولهم قائل الأثر الخالد الجامع المانع " كما تكونوا يول عليكم"، أعرف أنك تجلس وأنت غارق

في سوء الحال تنتظر اليوم الذي تتحقق فيه المعجزة ويتغير فيه حاكم مصر لينصلح حالها، لكن ذلك لن يحدث أبدا طالما لم أدرك أنا وأنت أن سوء الحال نابع من سوء الأداء، لو لم يسأل كل منا نفسه عما فعله لإصلاح ماحوله أو الاعتراض عليه، لو لم يدرك كل منا أن معركته الحقيقية تبدأ من داخل بيته وأنه إذا لم ينتصر فيها أولا فلن تنتصر في أي شيء، لو لم يدرك كل منا أن خلاصنا في توير القرآن وتطبيق مقاصد الإسلام قبل أشكاله، لو لم يدرك كل منا أننا لاشيء بدون الحرية والعلم، وأن الحقوق تنتزع ولا توهب، وأنا سنظل مهددين بالتوربيني الصغير طالما سمحنا للتوربينات الكبار أن يرتعوا في الأرض فاسدين مكتفين بالشتيمة والسخط والكوميديا السوداء.

وحتى يحدث ذلك دعني أختم كلامي الطوييل المربيب بالكوميديا السوداء.

في نهاية يوم متقل بالهم والتفكير يأتيني صديقنا المنشكح دائما وأبدا ليقول لي وهو يكاد ينفجر ضحكا أن أحدث نكتة وصلته على الإيميل تروي قصة إثنين من أعز الأصدقاء شغلتهما كثيرا البحث عن التوربيني سفاح الأطفال قبل القبض عليه، وأقع أحدهما الآخر بأن يذهبا إلى محطة القطار لكي يبحثا عنه، عندما وصلا إلى المحطة ولم يجداه، أصر صاحب الاقتراح على أن يواصل البحث بين القطارات المهجورة، ثم أصر على أن يكمل البحث فوق أسطح القطارات، وعندما صعدا إلى سطح القطار التفت الصديق ليجد صديقه صاحب الاقتراح وقد خلع بنطاله

ونظر إليه بنظرات شريرة ذات مغزى وقح وقال له ضاحكا "مفاجأة مش كده".

انفجر صديقي ضاحكا بينما اكتفيت بأن أنظر إليه بنظرات تطق شررا وشررا، وبعد أن توقف عن الضحك بصعوبة ليسألني عن رأيي، اكتفيت بأن أقول له بمرارة "أكيد وأنت صغير حد وراك القطر".

وقائع هبة شعبية لم تكتمل
في مصر الجديدة!

لم أكن أتوقع أن أشاهد تلك الواقعة في مصر الجديدة بالذات.
لكن ذلك ما حدث ورأيتُه بأَم عيني الأسبوع الماضي أمام جامع
كبير في أحد ميادينها الشهيرة.

عندما دخلت إلى الجامع لكي ألحق بصلاة الجمعة كان عدد
قليل من بانعي الفاكهة قد بدأ في رص كراتين الناكهة أمام المسجد
أخذاً في تزويقها وتزيينها، فيما كان خطيب الجامع يتحدث بحماس
حقيقي عن غياب الضمير في مجتمعنا وعدم تذكر أي منا أن الله
عز وجل يراقبه ويراه، استبشرت خيراً بالخطبة التي يعد
موضوعها بمناقشة ساخنة لأوضاعنا المزرية، لكن الخطيب لم
يرد لفرحتي أن تكتمل، دونما سبب أراد أن ينتقل من حياتنا
المعاصرة ليرجع بنا مئات السنين إلى الوراء ليحكى لنا قصصاً
عن الغامدية وما عز وغيرهما من الثوابين الذين أصروا على أن
تقام عليهم حدود الزنا وشرب الخمر لكي تكتمل توبتهم، قبل أن
يستفيض في الحديث عن الزنا وشرب الخمر، ليجدد جرحي مع
خطباء الجمعة الذين لأدري سر ولعهم بالحديث عن الزنا وشرب
الخمر والمخدرات لجمهور من المصلين لو كان يرتكب أشياء
كهذه لما جاء إلى المسجد أساساً، جمهور يحتاج إلى أن نقول له

كيف يكون الدين أبعد من مجرد الصلاة والإستماع إلى خطبة الجمعة، كيف يكون ثورة على الظلم والفساد والتخلف، وكيف يكون سبيلا إلى الحرية والعقل والتفكير، فجأة تعثر بائع جوافة فوقع على الكرتونة التي رص عليها فأكهته قبل أن يقوم مسرعا للحم حبات الجوافة التي تبعثرت على الطريق ويساعده بأريحية بعض المسرعين للحاق بالصلاة، لم يكن البائع يعلم أن تعثره وتبعثر بضاعته نذير شؤم سيلحق به عما قريب.

انتهت الخطبة بعد أن فقد أغلب المصلين التواصل معها، ولولا أن الإمام كان رخيخ الصوت متمكنا من قراءة القرآن الكريم لما شعرنا أننا صلينا الجمعة أساسا. يادويك خلصت الصلاة من هنا وبدأ أغلب المصلين في ممارسة عادة الهروب من المسجد فور تسليمهم - ألا صحيح هل لدى أحدكم تفسير لهذه العادة المقيتة التي نقع فيها جميعا كل جمعة - علت أصوات الباعة تنادي على الفاكهة " كله بجنيه ونص ياباشا.. رمان سكر وجوافة عسل.. خش على العنب ياباشا"، حمدت الله أن أحد الباعة لم يتطوع بالوقوف لهز وسطه على أنغام أغنية العنب العنب التي باتت تطاردنا جميعا في كل مكان هذه الأيام، اتجهت باتجاه بائع الجرائد لكنني عدت ثانية باتجاه باب المسجد بعد أن سمعت أصوات صراخ وزعيق ترد من ذلك الإتجاه، عندما وصلت كان المشهد الذي رأيته غير مألوف على الإطلاق في مكان مثل هذا به أكثر من مكان حساس.

كانت قوة مشتركة من أشاوس البلدية والداخلية قد انقضت

على المكان عقب الصلاة مباشرة وأخذت تداهم بنجاح ساحق أوكار باعة الفاكهة محدثة خسائر كبيرة في الجوافة والعنب بينما لم يصب البلح والرمان بأضرار بالغة، فيما تمكن بائع تفاح بلدي من الفرار بكرتونه التي لم تقو كثيرا على تحمل جريه فتفككت أوصالها في الشارع ليقف الرجل مذهولا للحظات ومحتارا بين لم ماوقع منه والفرار بما بقي في حوزته، قبل أن يؤثر السلامة والفرار ربما لأن حجم القوة كان يبنى بأنه لن يتم إلقاء القبض على الفاكهة فقط، بل ربما تم القبض على باعته وحتى مشتريها، ستقول لي وأين الجديد في ذلك، فأنت بالتأكيد تراه كل يوم في أرجاء المحروسة. الجديد أن عددا لا يستهان به من المصلين تحلق حول القوة المشتركة ليمنعها من الإعتداء بالضرب على الباعة الذين رفضوا التخلي عن الفاكهة التي دفعوا فيها دم قلوبهم وكان لديهم أمل في أن ترد الدموية فيهم بعد بيع الفاكهة، فيما حاول مصلون آخرون إنزال الفاكهة التي ملأت عربة الربع نقل التي جاء بها الأشاوس، وقفت للحظات أستوعب المشهد الذي تعودت على رؤيته في المناطق الشعبية، وليس في مكان كهذا قريب من عدد من الأماكن الحساسة، ووسط جمهور من النخبة لم يتعود على الإشتباك مع الحكومة هكذا، كان يقود عملية المقاومة كما بدت لي رجل يرتدي جلابية بيضاء ناصع لونها كنصوع أمارات الجذعنة البادية عليه، حماسه شجع الكثيرين على الإعتراض وإنكار مارأوه منكرا، كان الرجل يصرخ في أفراد القوة المشتركة ممسكا بيد كبيرهم الذي يحمل جهاز لاسلكي في يده " يعني إحنا لو مسكناكو دلوقتي وقطعناكو ضرب هتعملوا لنا إيه؟"، أعترف

أن سؤاله أذهلني كما أذهل الواقفين إلى جوارى فلم يكن يخطر على بالي أن يجاهر الرجل بعدائه بهذا الشكل، لكن الذي أذهلني أكثر أن رجل اللاسلكي قال له بمنتهى الإستسلام "ولاحاجة يابيه"، لم أفهم للحظات سر انكسار الرجل، هل لأنه يعلم طبيعة المكان وطبيعة ساكنيه التي تدفعهم لهذا الإستيغاب الشرس، سألت نفسي سؤالاً خاطفاً هل كان يمكن أن يكون رد رجل اللاسلكي هكذا على رجل من إمبابة المطار أو طوابق فيصل أو رواد ترعة الزمر أو بركة الفيل أو البحر الأعظم، لكن تصاعد الموقف لم يعطيني فرصة للتفكير في الإجابة.

بدا أن موقف المقاومين لم يكن مجرد الإعتراض على ضرب البائعين ومصادرة بضاعتهم بشكل وحشي لأدمية فيه، بل كان وراءه ما هو أبعد من ذلك، اتضح لي ذلك عندما علا صوت قائد المقاومة الرجل الناصع ذو السكسوكة صارخاً "يعني بلاش إحنا نشترى فاكهة رخيصة.. لازم نشترىها يعني من السوبر ماركتات بتاعة الحرامية الكبار اللي بيبيعوها بالشئى الفلانى وبيبعوا لكو الإقفاص لحد البيت". بدا أن الرجل نطق بلسان جميع الواقفين الذين علت أصواتهم بعبارات التأييد والإستحسان كأن كلامه جاء على الجرح، للحظات سألت نفسي "هو أنا فين بالضبط"، من المؤكد أنني لم أكن أصلي في أي من جوامع السيدات زينب وعائشة ونفيسة وسكينة، من المؤكد أنني أعرف جيداً المواقع الحساسة التي تقف قريباً منها، من المؤكد أن هذا الحي لا يسكنه إلا أهل الطبقة المتوسطة العليا من الذين نصفهم

عادة بأنهم "مستريحين"، تشي بذلك ملايسهم وموبايلاتهم التي يحملونها وسلاسل مفاتيحهم، فقيم الحديث عن الفاكهة الرخيصة، وكيف ربط هذا الرجل بين حملة المداومة هذه والأقفاص التي يبدو متأكداً من مرواحها إلى البيوت والحرامية الكبار الذين يبيعون الفاكهة بالشئى الفلانى. كانت الأسئلة تندفع إلى ذهني بينما كان المصلون يتدافعون إلى العربية لينفذوا فاكهة الباعة الذين بكى بعضهم ربما لأنه لم يتوقع أن يقف أحد إلى جواره، أحدهم أخذته الحماسة وظن نفسه جزءاً من تحالف قوى الشعب الذي تشكل للتو فمد يده إلى صندوق العربية ليستعيد بلهفة صندوق بلح رطب يخصه، فجأة أوقفت عصا باطشة تقدم يده أعقبها صوت بانتر من أشوس يقف جوار العربية وقد بدا أقرب إلى هجمام منه إلى موظف بلدية، "لو مديت إيدك على العربية هاكسر هالك"، لم أكن حتى تلك اللحظة قد فتحت فمي، لكن ماشهدته فجر بركان غضب داخلي، كأنني تركت الموقف كله وتصدرت في تفصيلاً قد تراها هابفة لكنها والله جرحتي بقوة، زعقت في الرجل "كسر إيدك إنت.. هتكسر إيدك له.. هو بيمسرك.. وبعدين يعني هو ده اللي اتشطرت عليه.. مانت واقف سامع شتيمتك بوندك من كل دول ومافتحتش بكك.. ولا ده عشان غلبان بتتشطر عليه"، لم يترك الرجل ذو السكسوكة لي فرصة لأكمل حيث اندفع قائلاً "طب إكسر إيدك وشوف أنا هاحولك للنياية إزاي.. جرب كده وإعملها.. وبعدين إنتو نازلين نهب في الحاجات دي بناء على إيه.. أنهى قانون اللي يدبكو الحق في ده..

كفاية، فلم أجد إلا وجوها متعبة غاضبة قرفانة تحسبن وتدعو وتعلن سخطها، وأين في مصر الجديدة؟، قلت لنفسي وهل تحدث هبة كهذه إلا في مكان كهذا به أناس لديهم وعي، وهل يمكن أن تكون هناك عزة بلا وعي، لو كان هذا المشهد في حي عشوائي لبدا المشهد أقرب إلى الهوجة ولتم ضرب أفراد القوة ونهب الفاكهة وتقليب اللاسلكي تمهيدا لبيعه في سوق الإمام الشافعي، لكن الناس هنا يقفون ليعترضوا بكل تحضر، لم يمد أحدهم يده أو يشتم أو يتجاوز أو يغلط، جميعهم يعترضون ويحسبن ويدعون، والقانون لا يمنع الحسنة أبدا. وربما كان موقف هؤلاء الناس هو ما أريك أفراد القوة وكتف أيديهم عن الرد بعنف، فلن يستطيع أحد منهم أن يضرب أحدا لمجرد أنه يعترض بلسانه على ما يراه ظلما، أعترف أنني كنت مرتبكا للغاية، لأنني للمرة الأولى كنت أعيش لذة أن ترى أفكارك تتحقق بشكل عفوي وساحر، هذه هي المقاومة المدنية التي نحلم بها، أن يعترض الناس على الظلم بشكل حضاري، لن يتمكن أحد من قمع هؤلاء، حتى لو أنت كل عربات الأمن المركزي المتواجدة في المنطقة فلن تستطيع أن تضرب مصلين خارجين من مسجد يعترضون على مصادرة فاكهة، هكذا أظن. الرجل ذو اللاسلكي أصبح الآن في مأزق لا يحسد عليه، حتى أنني ظننت أن يتوع الفاكهة لم يعد لديهم مانع في أن تتم مصادرة فاكهتهم مقابل أن يستمتعوا برؤية الحكومة وهي لا يصة هذه اللوصة المعتبرة، أخذ الرجل يدفع بيده المتجمهرين حوله قائلا لهم "إنتم بتعملوا كده ليه.. إحنا بتعمل كده

معاكو إذن رسمي بكده"، ظهور اسم القانون في الحوار كان سيدفعني للضحك لكنني مسكت نفسي إحتراما لمقاومة الرجل النبيلة، ذكرني بالجملة التي كتبها في فيلم أبو علي عندما قال كريم عبد العزيز لمنى زكي في البوكس بعد فشل تجربتهما في اللجوء إلى القانون "لو نطقني كلمة فيها حرف القاف والنون هاولع فيكي وفي البوكس والحاج اللي قاعد ده"، لو كنا في ساعة حظ لقلت لذي المسكوكة "قانون مين يا حاج.. بخرب عقلك ده إنت فقري ودمك عسل"، لكنني ضببت نفسي مثلثا بالسؤال عن مدى قانونية حملات المصادرة التي تشنها البلدية منذ وعيت على الدنيا، وهل يعني أن شخصا قام بمخالفة القانون والبيع في الشارع أن تكون ممتلكاته عرضة للنهب دون رقيب ولا حسيب، ولماذا في بلاد الله المحترمة التي زرتها على قلنتها والتي سمعت وقرأت عنها على كثرتها والتي تشهد جميعها ظاهرة الباعة المتجولين لانتهم مصادرة الممتلكات وممرطة الباعة بشكل همجي بل يتم إجبار البائع على دفع غرامة لأنه لا يقف في الأماكن المخصصة للباعة أو لم يحصل على رخصة لممارسة عمله.

خرجت مجددا من الخلوة بتساؤلاتي عندما أدركت أن حركة المقاومة قد شهدت إنضمام سيدات للمرة الأولى، علا صوت سيدة وقفت إلى جوار أفراد القوة مشهورة يدها في وجوههم وقائلة "حسبي الله ونعم الوكيل.. ياظلمة ياأعوان الظلمة"، الله الله، حلم هذا أم علم ياالله، هل قالت حقا ياأعوان الظلمة، تفحصت المكان سريعا باحثا عن جورج إسحاق أو أي شعار من شعارات حركة

عشانكو.. مش إنتو اللي مبلغين عن بتوع الفاكهة دول"، كان يظن المسكين أنه قد وجد طوق نجاة بكلماته هذه، لكن أصوات الجميع تعالت دونما ترتيب "كدايين.. ماحدث بلغ.. يعني خلاص كل البلاغات خلصتوها وجايين عند بتوع الفاكهة.. مش تمسكوا الحرامية اللي ناهيين البلد الأول.. الحاجة دي سارقينها ورايحين على فين"، تصدق بالله أنني رأيت على وجه الرجل ذو اللاسلكي حزننا هزني من الأعماق بعد أن سمع الإتهام الأخير، ربما كان الرجل محترهما ومتجبراً على مايفعل، ملامحه على الأقل ليست كملامح الهجام ذي العضأ الذي كان يراقب الموقف ولسان حاله يقول "آه يااولاد المركوب لو يحكموني عليكو لألبسكو البلح ده بلحاية بلحاية".

بعد صمت قصير صرخ الرجل ذو اللاسلكي "ياخواننا حرام عليكو.. الحاجات دي بتروح للملجأ مايناخدهاش إحنا"، لو كان قد جرى إلى المسجد وأحضر مصحفا وحلف عليه وهو يقول هذه الجملة لما فرق كلامه مع أحد، نفس العبارات الساخطة كانت ستتدلع أيضا ملجأ ياواكلين مال اليتامى..هي الحداية بتحدف كتاكيت.. طب ملجأ إيه.. قولنا وإحنا نديله قد الفاكهة دي مرتين، بدا ألا مستقبل للحوار مع هذا الجمهور الذي يتمتع بشك ديكراتي عميق، نظر الهجام لذي اللاسلكي نظرات ذات مغزى، انتهز بانع البلح فرصة إنشغال الإثنين بالنظرات ليقوم بخطف كرتونته ويجري، ظننا أنه أفلح في ذلك لكن ارتباكاه جعله يخطف كرتونة يرتقان سكري جرى وراءه صاحبها ليستردها منه، فيما استغل ذو

اللاسلكي انشغال الجمع بمتابعة ماحدث ليتجه لركوب العربية بينما الهجام يحمي ظهره، استوقفته في الطريق قاتلا له "مانكسب ثواب وإحنا في أيام مفترجة وتدي الناس دي حاجتها وكفاية اللي حصل ليه"، كاد الهجام ينزل علي بالعصا برغم نظرات المحبة النفاضة مني، لكن الرجل الناصع ذي السكسوكة حماني قاتلا له "والمصحف لاليسك قضية لو ماسبت العصاية دي.. ملعون ابو اللي مسكها لك"، نط الهجام في العربية خلف رئيسه ليطلع السائق طلعة أمريكاني كادت تفرم أرجل بعض ذوي الجلايب المختلفة الألوان، بينما تشعل بالعربية بجنون بأنع أخذ يتناول ماتيسر له من الكراتين مطيحا بها إلى الشارع لتتبعثر الفاكهة على الأرض وينشغل الناس بجمعها وتوزيعها على أصحابها وأصواتهم تعلو بالحسنة على الظلمة الحرامية ولاد ستين في سبعين. لو شاهد سائح المنظر لإعتقد أن السيارة الفارة هي سيارة عصابة تمكنت قوات الشرطة التي ترندي الجلايب من ضبطها، ولو حلفت له على الووتر يجمد لما صدق أن الحكومة هي التي فرت وأن الأهالي هم الذين أحبطوا عملية الفاكهة التي تم تنفيذها دون عمل حساب أي هبات شعبية محتملة.

كنت تجيب لتشوف نظرات الفخر في عيون الناس وقد شعروا أنهم حققوا انتصارا ساحقا، كنت تجيب لتسمع تحليلاتهم السياسية الصاخبة المعارضة التي يتضاءل إلى جوارها كل ماتكته، كنت تجيب لتشعر بأن هناك أناسا ليسوا بحاجة إلى خطبة جمعة لكي ينكروا المنكر ويأمروا بالمعروف وبشكل سلمي

وعصري ماسمعتهم يبنادوا إلا بعد ما نخلص صلاة ونمشي"، علق زميل مقاوم لم يكن قد نطق طيلة صد العدوان " لعلمك من مصلحتهم إنهم يحترموا الصلاة وما يستفروش الناس.. إنت غلطان يا حضرت"، حاول "حضرت" أن ينسى منطقه الطائفي المقيت ليقول لاهنا "برضه منظرهم كده مش حضاري.. إحنا في مكان راقي وما يصحش يقفوا بالشكل ده"، نظر إليه ذو السكسوكة نظرة جزمت أن قلما ساخنا على صداغه سيعقبها، لكنه اكتفى بهز رأسه قائلا " تصدق بالله إحنا شعب يستاهل اللي بيجراله.. الناس بتتبهدل وبتموت من الجوع وإنت تقول لي منظر حضاري"، ثم نظر إلينا جميعا بقرف وتركنا مغيرا إتجاه مشيه، فكرت أن أقوم أنا بواجب القلم لكنني تذكرت أن الشبشب الذي نزلت به من بيت نسايني لن يساعدي على الجري، فكرت أن أكتفى بتوجيه شتيمة قبيحة له لكنني خفت على ضياع الحسنات القليلة التي جنيتها من صلاة الجمعة، فاكثفت بالزغر له وتوجيه الشتيمة القبيحة له في سري مقنعا نفسي أنها لن تحسب، فيما قال زميلنا المقاوم الدمث له " أنا معاك في موضوع الشكل الحضاري بس ده بيحي بعد حاجات حضارية كثيرة لازم نعملها أولها إننا نبقى بني آدمين".

بادرت بترك الجمع القليل الباقي مسرعا فلم يكن لدي رغبة بالمرّة لسماع باقي الحاجات الحضارية التي يجب أن نعملها "بعدهما نبقى بني آدمين"، فقد كنت بحاجة ماسة للتمسك بإحساس الهبة الشعبية الظاهرة التي شهدتها.

حتى لو كان إحساسا زائفا.

حضاري. شعرت برغبة حميمة في عناق الرجل ذي السكسوكة وسؤاله عن إسمه ومهنته، لكنني قمعت رغبتي لأنه كان لامحالة سيظنني مخبرا ولربما تعامل معي بشكل غير حضاري لفش غله الذي كان واضحا من كلامه أنه لم يفش تماما. فاكثفت بالمشي في ركابه هو وصحبه من المقاومين الذين بدا أنهم لا يعرفون بعضهم، كانوا يمشون في إتجاه بعيد عن الإتجاه الذي أقصده، لكنني شعرت بما يشعر به الثوار بعد نجاح الثورة، الإستتناس ببعضهم البعض، ولذلك مشيت بصحبتهم، وليتني مامشيت.

فجأة اقتحم ركبنا رجل خرتيت من أولئك الذين أنزل الله على وجوههم عبادة بينة وأنزل في أيديهم موبائل أحدث موديل، قال لنا "ياإخواننا إنتو ناسيين حاجة مهمة"، توقفنا وقد تتبعت حواسنا المقاومة لعله ينبهنا إلى ظلم جديد ندفعه ونعترض عليه، وليتنا ماتوقفنا ولاتنبهنا، نظم أنفاسه اللاهثة قليلا ثم تابع " البياعين دول مسيحيين باجماعة مايسناهلوش حمتكو دي"، اندفعت فيه دون تفكير صارخا "وايه علاقة إنهم مسيحيين ولا يهود حتى باللي حصل ده"، أخذ خطوة للخلف تنبئ أنه لم يكن يتوقع رد فعل كهذا، جاء رد متعقل من زميل مقاوم "هم يعني مش مصريين زينا"، بينما صرخت من جديد "يعني عشان مسيحيين نسيبهم يتسرقوا ويتضربوا.. هو ده الإسلام يعني"، أخذ خطوة أخرى للخلف ثم قال مبررا "أصلهم بيغلوشوا علينا وإحنا بنصلي بأصواتهم وهم يبنادوا على الفاكية"، شخط فيه ذو السكسوكة الذي كان صمته قد بدأ يقلقني "الكلام ده مش صحيح.. أنا باصلي هنا على طول

مشكلتي الثانية هي أنني أشعر بأكلان فظيع في شهري، لا أدري هل سببه الحشرات التي يقسم زملائي أنها أقدم في المستشفى من بهيرة كبيرة الممرضات، أم سببه رقودي على السرير على وضع واحد كل هذا الوقت، مع أن التغيير سنة الحياة، نبهني عم عبد البديع إلى التباس الجملة الأخيرة وكونها يمكن أن تسوء موقفي في القضية، لكنني أقسم لسيادتك أنني لا أقصد منها شيء سوى أنني فعلاً أريد أن أمارس حقي الدستوري في الهرش وتغيير وضع رقودي على السرير، فأنا لست دولة تستحمل أن تعيش ربع قرن على وضع واحد دون أي تغيير، أنا بشر ضعيف خلقت من تراب وسففت التراب ويلزمني بين الحين والآخر أن أتقلب على الجنبين، فهل هذا كثير على سيادتك؟!

